فتح المجيد
شرح كتاب التوحيد
تأليف
الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ
راجع حواشيه وصححه وعلق عليه سماحة الشيخ
عبد العزيز بن عبد الله بن باز
دار السلام للنشر والتوزيع

شرح كتاب التوحيد

تأليف

الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ

راجع حواشيه وصححه وعلق عليه سماحة الشيخ

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

دار السلام للنشر والتوزيع
الرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد فقد اطلَّعت على الحواشي التي وضعها الأستاذ العلَّامة الشيخ/ محمد حامد الفقي، على كتاب «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» تأليف الإمام العلَّامة المحقق الشيخ/عبد الرحمن بن حسن، ابن الشيخ الإمام المجدد لمعالم الإسلام في القرن الثاني عشر الهجري الشيخ/ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي رحمهم الله جميعًا، فألفيتها كثيرة الفائدة قد أجاد فيها وأفاد ونقل أكثرها من قرة العيون للشيخ/ عبد الرحمن المذكور، غير أنِّي وجدت فيها أخطاء قليلة فرأيت التنبيه عليها في مواضعها بنجوم تمييزًا لها عن الحواشي الأصلية، وأسأل الله أن ينفع بها كل من اطلَّع عليها، وأن يضاعف الأجر للجميع إنه جواد كريم، وهذا بيان تلك التنبيهات.

والله ولي التوفيق.

عبد العزيز بن باز

رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة (سابقًا)

والمفتي العام للملكة العربية السعودية (حاليًا)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والعاقبةُ للمتقين، ولا عُدْوان إلا على الظالمين - كالمبتدعة والمشركين - وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيُّوم السماوات والأرضين. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وخيرته من خلقه أجمعين. اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمدٍ وأصحابه ومَنْ تَبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فإن كتابَ التوحيد الذي ألّفَه الإمام شيخُ الإسلام محمد بن عبد الوهاب[١] أجزلَ الله له الأجر والثوابَ، وغفر له ولمن أجابَ دعوته إلى يوم يقوم الحساب - قد جاء بديعًا في معناه - من بيان التوحيد ببراهينه، وجمع جُملًا من أدلته لإيضاحه وتبيينه، فصار علمًا للموحدين، وحُجَّة على الملحدين. فانتفع به الخلق الكثير، والجمُّ الغفير. فإن هذا الإمام رحمه الله في مبدأ مَنْشئه قد شرح الله صدره للحق المبين، الذي بعث به المرسلين: من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين، فأعلى الله همته، وقوّى عزيمته، فتصدّى لدعوة أهل نجد إلى التوحيد - الذي هو أساس الإسلام والإيمان - ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار والقبور، والطواغيت والأوثان، وعن الإيمان بالسّحرةِ والمنجّمين والكُهّان. فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كل شيطان، وأقام الله به عَلم الجهاد، وأدْحضَ به شُبهَ المعارضين من أهل الشرك والعناد، ودانَ بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد، الحاضر منهم والباد. وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق، حتى أقرَّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق، إلا من استحوذ عليه الشيطان. وكرّه إليه الإيمان، فأصرَّ على العناد والطغيان. وقد أصبح أكثر أهل جزيرة العرب بدعوته، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة: «إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله أنكر ذلك المشركون وكَبُرَت عليهم، وضاق بها إبليس وجنوده. فأبى الله إلا أن يُمْضِيَها ويظهرها، ويُفْلِجها وينصرها على من ناوأها، إنها كلمة من خاصم بها فَلَج، ومن قاتل بها نُصر، إنما

---

(١) ولد في العُيَيْنَة سنة ١١١٥هـ وتوفي بالدرعية سنة ١٢٠٦هـ رحمه الله.

يعرفها أهل هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل، ويسير من الدهر، في فِئامٍ من الناس، لا يعرفونها ولا يُقرُّون بها».

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته، وسُرُّوا واستبشروا بطلعته، وأثنوا عليه نثرًا ونظمًا.

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء: محمد بن إسماعيل الأمير(١) في هذا الشيخ رحمه الله تعالى:

وقد جاءتِ الأخبارُ عنه بأنه ... يُعيدُ لنا الشرع الشريف بما يبدي
ويَنشر جهرًا ما طَوَى كل جاهل ... ومُبتدع منه، فوافقَ ما عندي
ويَعمُر أركانَ الشريعة هادمًا ... مشاهدَ، ضلّ الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سُواع ومثلِه ... يغوثِ وَوَدٍّ، بئس ذلك من وَد
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتفُ المضْطر بالصمدِ الفرد
وكم عَقَروا في سُوحها من عَقيرة ... أهلّت لغير الله جَهرًا على عمد
وكم طائفٍ حول القبور مُقبِّل ... ومُسْتَلم الأركان منهنّ بالأيدي

وقال شيخنا عالم الأحساء أبو بكر حسين بن غَنّام رحمه الله تعالى فيه(٢):

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدَى ... بوقتٍ به يُعلَى الضلالُ ويُرفع
سقاه نمير الفهم مولاه، فارتوى ... وعام بتيّار المعارف يقطع
فأحيا به التوحيد به اندراسه ... وأوهَى به من مطلع الشرك مَهْيَع(٣)
سَما ذِرْوة المجد التي ما ارتقى لها ... سواه، ولا حاذَى فناها سَميْدَع(٤)
وشمّر في منهاج سُنة أحمد ... يشيد يحيى ما تعفّى، ويرفع
يناظر بالآيات والسنة التي ... أُمرنا إليها في التنازع نرجع
فأضحت به السمحاء يبسمُ ثَغرها ... وأمسى محياها يُضيء ويلمع

---

(١) ولد بصنعاء سنة ١٠٩٩هـ وتوفي في شعبان سنة ١١٨٢هـ وكان إمامًا جليلًا، له المؤلفات الكثيرة النافعة، منها «سبل السلام شرح بلوغ المرام»، و«منحة الغفار على ضوء النهار»، و«العدة على شرح العمدة» لابن دقيق العيد، و«شرح التنقيح في علوم الحديث».

(٢) قالها في رثاء الشيخ رحمه الله، وهي تسعة وثلاثون بيتًا مذكورة بتمامها في كتاب «عنوان المجد في تاريخ نجد» في حوادث سنة ١٢٠٦هـ. ج١ ص ٩٥. توفي ابن غنام سنة ١٢٢٥هـ وله ترجمة في عنوان المجد: ج١ ص ١٤٩.

(٣) في عنوان المجد «وأقوى به من مظلم الشرك» والمهيع: الطريق الواسع.

(٤) في عنوان المجد «ولا حاذاه فيها» والسميدع: الشجاع القوي.

وعـاد بـه نـهـجُ الـغـوايـة طـامـسًـا ... وقد كان مسلوكًا به الناس تَرْتِع[(١)]
وجـرّت بـه نـجـد ذيـولَ افـتـخـارهـا ... وحُـق لـهـا بـالألْـمَـعِـي تـرفُّـع
فـآثـاره فـيـهـا سَـوامٍ سـوافِـرٌ ... وأنـواره فـيـهـا تُـضـيء وتـلـمـع

وأما كتابه المذكور فموضوعه: في بيان ما بعث به الله رسله: من توحيد العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب، من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرُب من ذلك أو يوصل إليه.

وقد تصدّى لشرحه حفيد المصنف، وهو الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى[(٢)] فوضع عليه شرحًا أجاد فيه وأفاد، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد، وسماه: «تيسير العزيز الحميد، في شرح كتاب التوحيد».

وحيث أطلق «شيخ الإسلام» فالمراد به أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، و«الحافظ» فالمراد به أحمد بن حجر العسقلاني.

ولما قرأتُ شرحه رأيته أطنبَ في مواضع، وفي بعضها تكرار يستغنى بالبعض منه عن الكل، ولم يكمله. فأخذت في تهذيبه وتقريبه وتكميله، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميمًا للفائدة وسميته: «فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد».

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم وموصلًا مَنْ سَعى فيه إلى جنات النعيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) في عنوان المجد «تربع».

(٢) كان عالمًا فاضلًا بارعًا في الحديث والتفسير والفقه، آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، صادق الاتصال بالله. قُتِلَ رحمه الله في آخر سنة ١٢٣٣هـ وشئ به بعض المنافقين إلى إبراهيم باشا بن محمد علي باشا، بعد دخوله الدرعية واستيلائه عليها، فأحضره إبراهيم؛ وأظهر بين يديه آلات اللهو والمنكر إغاظة للشيخ، ثم أخرجه إلى المقبرة وأمر العساكر أن يرموه بالرصاص جميعًا فمزقوا جسمه رحمه الله ورضي عنه. اهـ. عنوان المجد ج١ ص ٢١٠.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ابتدأ كتابَه بالبسملة اقتداء بالكتاب العزيز، وعملًا بحديث «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقْطَعُ». أخرجه ابن حبان من طريقين. قال ابن الصلاح: والحديث حسن. ولأبي داود وابن ماجه «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع». ولأحمد «كل أمر ذي بالٍ لا يُفتتح بذكر الله فهو أبْترُ أو أقطع». وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعًا «كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع».

والمصنف قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة؛ لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدم. وكان النبي ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه لِهِرَقْلَ عظيم الروم[١]. ووقع لي نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة، وثنّى بالحمد والصلاة على النبي ﷺ وآله. وعلى هذا: فالابتداء بالبسملة حقيقي، وبالحمدلة نِسبيّ إضافي، أي بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءًا به.

والباء في «بسم الله» متعلقة بمحذوف، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلًا خاصًا، متأخرًا.

أما كونه فعلًا، فلأن الأصل في العمل للأفعال.

وأما كونه خاصًا، فلأن كل مبتدئ بالبسملة في أمر يُضْمِرُ ما جعَل البسملة مبدأ له.

وأما كونه متأخرًا، فلدلالته على الاختصاص، وأدخل في التعظيم، وأوفق للوجود، ولأن أهمّ ما يُبدأ به ذكرُ الله تعالى.

وذكر العلامة ابن القيّم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد، منها: أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله. ومنها: أن الفعل إذا حُذف صحَّ الابتداء بالبسملة في كل عمل وقول وحركة. فكان الحذفُ أعمَّ. انتهى ملخصًا.

وباء «بسمِ الله» للمصاحبة. وقيل: للاستعانة. فيكون التقدير: بسم الله أؤلِّف حال

(١) رواه البخاري في حديث أبي سفيان الطويل الذي رواه عن ابن عباس في كتاب بدء الوحي.

. . . .

كوني مستعينًا بذكره، متبركًا به. وأما ظهوره في ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وفي ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ [هود: ٤١] فلأن المقامَ يقتضي ذلك كما لا يخفى.

والاسم: مشتق من السُّموّ وهو العلو. وقيل: من الوَسْم وهو العلامة، لأن كل ما سُمِّي فقد نُوِّه باسمه ووُسِم.

قوله: (الله) قال الكِسائي والفَرّاء: أصله الإله، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لامًا واحدة مشددة مُفخّمة. قال العلامة ابن القيم رحمه الله. الصحيح: أنه مشتق، وأن أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شَذَّ. وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العُلى. والذين قالوا بالاشتقاق إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى. وهي الإلهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك. فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة؛ ونحن لا نعني بالاشتقاق، إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة منه تولُّد الفَرْع من أصله. وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه: أصلًا وفرعًا، ليس معناه أن أحدهما متولد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

قال أبو جعفر بن جرير: «الله» أصله «الإله»،أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم فالتقت اللام التي هي عين الاسم واللام الزائدة وهي ساكنة فأدغمت في الأخرى، فصارتا في اللفظ لامًا واحدة مشدّدة. وأما تأويل «الله» فإنه على معنى ما روي لنا عن عبدالله بن عباس قال: «هو الذي يأله كل شيء ويعبده كل خلق» وساق بسنده عن الضحاك عن عبدالله بن عباس قال: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» فإن قال لنا قائل: وما دلّ على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود؛ وأن له أصلًا في فَعِل ويَفْعَل[1].

وذكر بيت رؤبة بن العجاج:

لله دَرُّ الـغـانـيـات الـمُـدَّهِ ... سبّحنَ واسترجعن من تألُّهي[2]

(١) كذا في الأصل. والعبارة ناقصة. ونصها: فإن قال لنا قائل فهل لذلك في فِعل ويَفْعَل أصل كان منه بناء هذا الاسم؟ قيل: أما سماعًا من العرب فلا. ولكن استدلالًا. فإن قال: وما دل على أن الألوهية هي العبادة وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلًا في فَعِل يَفْعَل؟ قيل: لا تمانع العرب في الحكم لقول القائل يصف رجلًا بعبادة الله ويطلب مما عند الله «تأله فلان» بالصحة ولا خلاف. ومن ذلك قول رؤبة. إلخ.

(٢) قال في اللسان: مدهه يمدهه مدها، مثل مدحه، والجمع: المده، أي: المستحقات المدح لحسنهن وجمالهن. والتأله: التنسك والتعبُّد. واسترجعن: قلن إنا لله وإنا إليه راجعون.

. . . .

يعني من تَعَبُّدي وطلبي الله بعملي. ولا شك أن التألّه التفعل، من أله يأله، وأن معنى «أله» إذا نطق به: عبدالله. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت منه بفعل يفعَل بغير زيادة. وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع وساق السند إلى ابن عباس أنه قرأ: «ويَذَرَكَ وَإِلاَهَتَكَ»[1] قال: «عبادتك. ويقول: إنه كان يُعبد ولا يَعْبُد»، وساق بسند آخر عن ابن عباس «ويذرك وإلاهتك». قال: «إنما كان فرعون يُعبد ولا يعبد» وذكر مثله عن مجاهد، ثم قال: فقد بيّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا: أن «أَلِه»: عَبَدَ وأن الإلاهة مصدره، وساق حديثًا عن أبي سعيد مرفوعًا «أن عيسى أسلمته أمه إلى الكتّاب ليعلمه؛ فقال له المعلم: اكتب بسم الله؛ فقال عيسى: أتدري ما الله؟ الله إله الآلهة».

قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله: لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية؛ وساقها. ثم قال: وأما خصائصه المعنوية فقد قال أعلم الخلق [به] ﷺ: «لا أحْصِي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» وكيف نحصي خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناء وكل مجد، وكل جلال وكل كمال؛ وكل عز وكل جمال، وكل خير وإحسان؛ وجود وفضل وبِرٍّ فله ومنه. فما ذكر هذا الاسم في قليل إلا كَثّره، ولا عند خوف إلا أزاله؛ ولا عند كربٍ إلا كشفه، ولا عند همّ وغَم إلا فَرّجه؛ ولا عند ضيق إلا وَسّعه؛ ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العزّ، ولا فقير إلا أصاره غنيًّا، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيّده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه. فهو الاسم الذي تكشف به الكربات؛ وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتُستدفع به السيئات، وتُستجلب به الحسنات. وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسماوات، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شُرعت الشرائع؛ وبه قامت الحدود، وبه شُرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حَقّت الحاقة؛ ووقعت الواقعة. وبه وُضعت الموازين القِسْط ونُصب الصراط؛ وقام سوق الجنة والنار؛ وبه عبد رب العالمين وحمد؛ وبحقه بُعثت الرسل؛ وعنه السؤال في القبر ويوم البعث والنشور؛ وبه الخصام وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سعد من عرفه

. . . .

وقام بحقه، وبه شَقِيَ من جهله وترك حقه؛ فهو سر الخلق والأمر؛ وبه قاما وثبتا؛

---

(١) ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وإليه انتهيا؛ فالخلق به وإليه ولأجله؛ فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا

مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه. وذلك موجبه ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١] إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قوله: (الرحمن الرحيم) قال ابن جرير: حدثني السرِّيُّ بن يحيى حدثنا عثمان بن زُفَر سمعت العَزْرَميّ يقول: «الرحمن بجميع الخلق، والرحيم بالمؤمنين». وساق بسنده عن أبي سعيد - يعني الخُدرِيّ - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم قال: الرحمن: رحمن الآخرة والدنيا. والرحيم: رحيم الآخرة».

قال ابن القيم رحمه الله تعالى[1]: فاسمه «الله» دل على كونه مألوهًا معبودًا؛ يألهه الخلائق: محبة وتعظيمًا وخضوعًا؛ ومفزعًا إليه في الحوائج والنوائب. وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته؛ المتضمنين لكمال الملك والحمد؛ وإلهيته وربوبيته ورحمانيته وملكه: مستلزم لجميع صفات كماله؛ إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي؛ ولا سميع؛ ولا بصير؛ ولا قادر؛ ولا متكلم؛ ولا فعال لما يريد؛ ولا حكيم في أقواله وأفعاله. فصفات الجلال والجمال أخص باسم «الله»، وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم الرب، وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف أخص باسم «الرحمٰن».

وقال رحمه الله، أيضًا: «الرحمٰن» دال على الصفة القائمة به سبحانه «والرحيم» دال على تعلقها بالمرحوم. وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ولم يجئ قطُّ رحمانٌ بهم.

وقال: إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت؛ فإنها دالة على صفات كماله؛ فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية؛ فالرحمن اسمه تعالى ووصفه. فمن حيث هو صفة، جرى تابعًا لاسم الله ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع؛ بل ورد الاسم العلم. كقوله تعالى ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] انتهى ملخصًا.

---

(١) في مدارج السالكين، ج ١ ص ١٨.

الحمدُ للهِ، وصلى اللهُ على محمدٍ وعلى آلهِ وسلم[١].

قوله: (الحمد لله) معناه الثناء بالكلام على الجميل الاختياري على وجه التعظيم. فمورده اللسان والقلب؛ والشكر يكون باللسان والجنان والأركان، فهو أعمُّ من الحمد مُتَعَلِّقًا، وأخصُّ منه سببًا؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة، والحمد أعمُّ سببًا وأخصُّ مُتعَلَّقًا؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها. فبينهما عموم وخصوص وجهي؛ يجتمعان في مادة وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة.

قوله: (وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم) أصح ما قيل في معنى صلاة الله على عبده: ما ذكره البخاري رحمه الله تعالى عن أبي العالية: قال: «صلاة الله على عبده ثناؤه عليه عند الملائكة»، وقرره ابن القيم رحمه الله ونصره في كتابيه «جلاء الأفهام» و«بدائع الفوائد».

قلت: وقد يُرَاد بها الدعاء، كما في المسند عن علي مرفوعًا: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه».

قوله: «وعلى آله» أي: أتباعه على دينه؛ نص عليه الإمام أحمد هنا؛ وعليه أكثر الأصحاب. وعلى هذا: فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين[٢].

* * *

(١) هذه الجملة في بعض النسخ دون بعض.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب «جلاء الأفهام في الصلاة على خير الأنام»، للعلامة المحقق ابن القيم رحمه الله، فإنه استوفى المذاهب في ذلك، وبين الحق فيها، وأن المراد من الآل أتباعه الذين آمنوا به.

كتاب التوحيد

كتاب: مصدر: كتب يكتب كتابًا وكتابة وكتبًا؛ ومدار المادة على الجمع. ومنه: تكتّب بنو فلان، إذا اجتمعوا. والكتيبة لجماعة الخيل؛ والكتابة بالقلم لاجتماع الكلمات والحروف. وسُمِّي الكتاب كتابًا: لجمعه ما وُضع له.

والتوحيد، نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة.

قال العلَّامة ابن القيم رحمه الله: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات؛ وتوحيد في الطلب والقصد، فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى، وصفاته وأفعاله وأسمائه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده؛ وإثبات عموم قضائه وقدرته وحكمته؛ وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح، كما في أول سورة الحديد، وسورة طه؛ وآخر الحشر؛ وأول تنزيل السجدة؛ وأول آل عمران، وسورة الإخلاص بكمالها، وغير ذلك.

النوع الثاني: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وأول سورة تنزيل الكتاب؛ وآخرها. وأول سورة المؤمن ووسطها؛ وآخرها؛ وأول سورة الأعراف؛ وآخرها. وجملة سورة الأنعام؛ وغالب سور القرآن. بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد؛ شاهدة به داعية إليه.

فإن القرآن إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه؛ فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإما أمر ونهي، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه؛ فهو حقوق التوحيد ومكملاته؛ وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة؛ فهو جزاء توحيده؛ وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم في العُقْبَى من العذاب، فهو جزاء منْ خَرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كله في التوحيد؛ وحقوقه وجزائه؛ وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. انتهى.

قال شيخ الإسلام: التوحيد الذي جاءت به الرسل إنما يتضمن إثبات الإلهية لله وحده بأن يشهد أن لا إله إلا الله: لا يُعْبَدُ إلّا إياه، ولا يُتَوكَّلُ إلّا عليه؛ ولا يوالي إلّا له؛ ولا

. . . .

يعادي إلّا فيه؛ ولا يُعْمَلُ إلّا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. وأخبر عن كل نبيٍّ من الأنبياء أَنَّهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له؛ وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]. وقال عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]. وهذا في القرآن كثير.

وليس المراد بالتوحيد: مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم؛ كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام والتصوف. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفَنوا فيه فقد فَنوا في غاية التوحيد، فإن الرجل لو أقرَّ بما يستحقه الرب تعالى من الصفات ونزّهه عن كل ما ينزّه عنه، وأقرّ بأنه وحده خالق كل شيء؛ لم يكن موحدًا حتى يشهد أن لا إله إلّا الله وحده؛ فيقرّ بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له، و«الإله»: هو المألوه المعبود الذي يُسْتَحَقُ العبادة، وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع. فإذا فَسّر المفسر «الإله» بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا المعنى هو أخصُّ وصف الإله. وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد - كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية - وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ. فإن مشركي العرب كانوا مقرّين بأن الله وحده خالقُ كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]. قالت طائفة من السلف: تسألهم: من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله وهم مع هذا يعبدون غيره[١] قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]. فليس كل من أقرّ بأن الله تعالى ربُّ كل شيء وخالقه يكون عابدًا له، دون ما سواه، داعيًا له دون

(١) ذكره ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ما سواه، راجيًا له خائفًا منه دون ما سواه، يُوالي فيه ويعادي فيه، ويطيع رسله ويأمر بما أمر به، وينهىٰ عما نهىٰ عنه. وعامّةُ المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أندادًا، قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤]. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ولهذا كان أتباع هؤلاء[١] من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها[٢]. ثم يقول: إنَّ هذا ليس بشرك. إنَّما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي، فإذا جعلتها سببًا وواسطة لم أكن مشركًا. ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك. انتهى كلامه.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾) [الذاريات: ٥٦] بالجر عطف على التوحيد. ويجوز الرفع على الابتداء.

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة الرسل.

وقال، أيضًا: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية.

وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح. والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهنّ لكل واحد من القلب، واللسان، والجوارح.

وقال القرطبي: أصل العبادة التذلُّل، والخضوع، وسُمِّيت وظائف الشرع على المكلَّفين عبادات، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته. فهذه هي الحكمة

---

(١) أي ممن يزعمون معرفة التوحيد على هذا المعنى، ككثير ممن ينتسب إلى الإسلام، ويشتغل بالسحر الذي هو عبادة الكواكب والشياطين بأنواع العزائم والبخور وذبح الحيوان الأسود أو الأحمر وغير ذلك مما سيأتي تفصيله.

(٢) أي يذبح لها الذبائح، ويصنع الأطعمة، كما يفعل الحاج لبيت الله من المناسك.

. . . .

في خلقهم.

قلت: وهي الحكمة الشرعية الدينية.

قال العماد ابن كثير: وعبادته هي طاعته بفعل المأمور وترك المحظور. وذلك هو حقيقة دين الإسلام، لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمِّن غاية الانقياد والذلِّ والخضوع. انتهى.

وقال أيضًا - في تفسير هذه الآية -: ومعنى الآية: أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب. وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم وهو خالقهم ورازقهم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الآية: «إلا لآمُرَهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي» وقال مجاهد: «إلا لآمرهم وأنهاهم». اختاره الزجاج وشيخ الإسلام. قال: ويدل على هذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي: «لا يُؤمَرُ ولا يُنْهَى» وقال في القرآن في غير موضع: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] فقد أمرهم بما خلقوا له، وأرسل الرسل بذلك. وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعًا؛ وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين ويحتجُّون بالآية عليه.

قال وهذه الآية تُشبه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] ثم قد يُطاعُ وقد يُعْصَى؛ وكذلك ما خلقهم إلا لعبادته، ثم قد يَعبدون وقد لا يعبدون. وهو سبحانه لم يقل: إنه فعلَ الأول، وهو خلقهم ليفعل بهم كلهم الثاني: وهو عبادته، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني، فيكونوا هم الفاعلين له. فيحصل لهم بفعله سعادتهم ويحصل ما يحبه ويرضاه منهم ولهم. انتهى.

ويشهد لهذا المعنى: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها: ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا: لو كانت لك الدنيا وما فيها أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم ألا تشرك بي - أحسبه قال: ولا أدخلك النار - فأبيت إلا الشرك[1]» فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه: من توحيده وألا يشرك به شيئًا، فخالف ما أراده الله منه، فأشرك به غيره، وهذه هي الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم.

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري أيضًا.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فبَيْن الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في حق المُخْلِص المطيع. وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي، فافهم ذلك تنج من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم.

قال: وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] الطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الطاغوت الشيطان»[١]. وقال جابر رضي الله عنه: «الطواغيت: كُهَّان كانت تنزل عليهم الشياطين» رواهما ابن أبي حاتم. وقال مالك: «الطاغوت كل ما عُبِدَ من دون الله».

[قال العماد ابن كثير: الطاغوت: الشيطان وما زيَّنه من عبادة غير الله].

قلت: وذلك المذكور بعضُ أفراده، وقد حدّه العلّامة ابن القيّم حدًّا جامعًا فقال الطاغوت: كل ما تجاوز به العبدُ حدَّه، من معبود، أو متبوع، أو مطاع. فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم؛ إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها، رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.

وأما معنى الآية: فأخبر تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس رسولًا بهذه الكلمة ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: اعبدوا الله وحده واتركوا عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]. وهذا معنى «لا إله إلا الله» فإنها هي العروة الوثقى.

قال العماد ابن كثير في هذه الآية: كلهم - أي الرسل - يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أُرْسِل إليهم، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبَّقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾. فكيف يسوغ لأحد من المشركين - بعد هذا - أن يقول: ﴿لَوْ شَاءَ

---

(١) ذكره ابن كثير عن حسان بن قائد العبسي عن عمر قال: «إن الجبت السحر والطاغوت الشيطان، وإن الشجاعة والجبن تكون غرائز في الرجال إلخ» ثم قال الحافظ: ومعنى قوله في الطاغوت: «إنه الشيطان» قوي جدًّا، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان، والتحاكم إليها، والاستنصار بها. وكذلك رواه ابن جرير.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ० وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنِ رُسلِه، وأما مشيئته الكونية - وهي تمكينهم من ذلك قدرًا - فلا حجة لهم فيها، لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضى لعباده الكفر، وله في ذلك الحجة البالغة، والحكمة القاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. انتهى.

قلت: وهذه الآية تفسر الآية التي قبلها. وذلك قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فتدبر!.

ودلت هذه الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل، دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شريعتهم. كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًاۚ﴾ [المائدة: ٤٨] وأنه لا بد في الإيمان من عمل القلب والجوارح.

قال: (قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾) [الإسراء: ٢٣] قال مجاهد: ﴿وَقَضَىٰ﴾ يعني وصى. وكذا قرأ أبيُّ بن كعبٍ وابنُ مسعود وغيرهم. ولابن جرير عن ابن عباس ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني أمر.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ المعنى: أن تعبدوه وحده دون ما سواه، وهذا معنى: «لا إله إلا الله».

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: والنفي المحض ليس توحيدًا، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له. كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا تسمعهما قولًا سيئًا، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيئ ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كما قال عطاء بن رباح: «لا تنفض يديك [على والديك]».

. . . .

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح، أمره بالفعل الحسن والقول الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ أي: لينًا طيبًا بأدب وتوقير. وقوله: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما. ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾. وقد ورد في برِّ الوالدين أحاديث كثيرة، منها: الحديث المروي من طُرقٍ عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «آمين، آمين». فقالوا: يا رسول الله، على ما أمنت؟ قال: «أتاني جبريل فقال: يا محمد، رَغِمَ أنفُ امرئ ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنفُ امرئ دخل عليه شهر رمضان ثم خرج ولم يُغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال رغم أنف امرئ أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين»[١] وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه، أحدهما أو كلاهما، لم يدخل الجنة» قال العماد ابن كثير: صحيح من هذا الوجه. وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقولُ الزور، ألا وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت» رواه البخاري ومسلم. وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «رضَا الرب في رضا الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين» [رواه الترمذي وصححه ابن حبان والحاكم] وعن أبي أسيدٍ الساعدي رضي الله عنه قال: «بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل من بني سَلمة فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما» رواه أبو داود وابن ماجه. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًّا.

---

(١) أخرجه عن أنس: ابن أبي شيبة والبزار في مسنديهما من طريق سلمة بن وردان عنه، وسلمة ضعيف. ورواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد. وابن حبان في ثقاته وصحيحه. والطبراني في الكبير، والبخاري في بر الوالدين، والبيهقي في شعب الإيمان، والضياء المقدسي في المختارة، كلهم عن كعب بن عجرة، ورجاله ثقات. ورواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في تهذيبه، والدارقطني في الأفراد. وأشار إليه الترمذي وأخرجه النسائي وابن السني في اليوم والليلة والضياء المقدسي في المختارة، كلهم عن جابر بن عبدالله. وأخرجه البزار والطبراني عن عمار بن ياسر. وأخرجه البزار عن ابن مسعود وأخرجه الطبراني عن ابن عباس وأبي ذر. وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما عن أبي هريرة وهو عند البيهقي في الدعوات مختصرًا. وعند الترمذي وأحمد وقال الترمذي: حسن غريب: وأخرجه الدارقطني في الأفراد والبزار في مسنده والطبراني في الكبير عن جابر بن سمرة، وأخرجه البزار والطبراني وابن أبي عاصم عن عبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي.

وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ

قال: (وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾[1]) قال العماد ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، فإنه الخالق الرازق المتفضل على خلقه في جميع الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته. انتهى.

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام، ليكون ذكره بعدها أنسب.

[قال]: (وقوله تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ﴾) الآيات[2] [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قال العماد ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿قُلۡ﴾ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله: ﴿تَعَالَوۡاْ﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿أَتۡلُ﴾

---

(١) قال في قرة العيون: وهذه الآية تبين العبادة التي خلقوا لها، أيضًا. فإنه تعالى قرن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرمه وهو الشرك في العبادة فدلت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة فلا تصح بدونه أصلًا كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦] فتقديم المعمول يفيد الحصر أي: بل الله فاعبد وحده لا غيره كما في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١] والدين هو العبادة بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى.

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة فلا تغفل عما تقدّم.

(٢) في قرة العيون: وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو أعظم المحرمات؛ كما وقع فيه أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ، عبدوا القبور والمشاهد والأشجار والأحجار والطواغيث والجن، كما عبد أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان، واتخذوا هذا الشرك دينًا، ونفروا إذا دعوا إلى التوحيد أشد نفرة؛ واشتد غضبهم لمعبوداتهم كما قال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]. وقال تعالى ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٦]. وقال ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦] علموا أن لا إله إلا الله تنفي الشرك الذي وقعوا فيه، وأنكروا التوحيد الذي دلت عليه. فصار أولئك المشركون أعلم بمعنى هذه الكلمة «لا إله إلا الله» من أكثر متأخري هذه الأمة لا سيما أهل العلم منهم الذين لهم دراية في بعض الأحكام وعلم الكلام؛ فجهلوا توحيد العبادة فوقعوا في الشرك المنافي له وزينوه، وجهلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه؛ فوقعوا في نفيه، أيضًا. وصنفوا فيه الكتب، لاعتقادهم أن ذلك حق وهو باطل، وقد اشتدت غربة الإسلام حتى عاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، فنشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير. وقد قال النبي ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ» وقد قال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

أقصُّ عليكم ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حقًّا، لا تخرُّصًا ولا ظنًّا، بل وحيًا منه وأمرًا من عنده ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وكأن في الكلام محذوفًا دل عليه السياق تقديره: وصاكم ألا تشركوا به شيئًا، ولهذا قال في آخر الآية ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ اهـ.

قلت: فيكون المعنى: حرّم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به، وفي المغني لابن هشام في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ سبعة أقوال، أحسنها: هذا الذي ذكره ابن كثير، ويليه: بيّن لكم ذلك لئلا تشركوا، فحذفت الجملة من أحدهما، - وهي «وصاكم» - وحرف الجر وما قبله من الأخرى. ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺ قالوا: يقول «اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا. واتركوا ما يقول آباؤكم» كما قال أبو سفيان لهرقل[1] وهذا هو الذي فهمه أبو سفيان وغيره من قول رسول الله ﷺ لهم: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

وقوله تعالى: (﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾) قال القرطبي: الإحسان إلى الوالدين برهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما و(إحسانًا) نصب على المصدرية، وناصبه فعل من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا.

وقوله: (﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾) الإملاق: الفقر، أي لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر، فإني رازقكم وإياهم، وكان منهم من يفعل ذلك بالإناث وبالذكور خشية الفقر، ذكره القرطبي. وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه (قلت: يا رسول الله، أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطعَم معك. قلت: ثم أيٌّ؟ قال: أن تزاني بحليلة جارك. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٥ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ٥ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾» [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقوله: (﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾) قال ابن عطية: نهيٌ عام عن

على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا؛ ومن هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي» وهذا الحديث قد صح من طرق كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من الحفاظ وهو في السنن وغيرها. ورواه محمد بن نصر في كتاب الاعتصام، وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ بعد القرون الثلاثة.

فلهذا عم الجهل بالتوحيد الذي هو أصل دين الإسلام؛ فإن أصله ألا يعبد إلا الله وألا يعبد إلا بما شرع، وقد ترك هذا وصارت عبادة الأكثرين مشوبة بالشرك والبدع، ولكن الله تعالى وله الحمد لم يخل الأرض من قائم له بحججه، وداع إليه على بصيرة، لكيلا تبطل حجج الله وبيناته التي أنزلها على أنبيائه ورسله؛ فله الحمد والشكر على ذلك.

(١) رواه البخاري في بدء الوحي، في حديث أبي سفيان الطويل.

بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ○ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا

جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي. و(ظهر) و(بطن) حالتان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء. انتهى.

وقوله: (﴿وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ﴾) في الصحيحين: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «لا يحلُّ دم امرئٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيِّبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

وقوله: (﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾) قال ابن عطية: (ذلكم) إشارة إلى هذه المحرمات، والوصية: الأمر المؤكد المقرر. وقوله (لعلكم تعقلون) (لعل) للتعليل أي: إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها، وفي تفسير الطبري الحنفي: ذكر أولًا (تعقلون) ثم (تذكرون) ثم (تتقون)؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا فإذا تذكروا خافوا واتقوا.

وقوله: (﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ﴾) قال ابن عطية: هذا نهي عام عن القرب الذي يعمُّ وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة، ثم استثنى ما يحسن: وهو السعي في نمائه، قال مجاهد: التي هي أحسن، التجارة فيه، وقوله: (حتى يبلغ أشده) قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ، روي نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم.

وقوله: (﴿وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾) قال ابن كثير: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ أي: من اجتهاد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه.

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ﴾ هذا أمر بالعدل في القول والفعل، على القريب والبعيد. قال الحنفي: العدل في القول في حق الولي والعدو، لا يتغير في الرضا والغضب. بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى فلا يميل إلى الحبيب والقريب: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله: ﴿وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ﴾ قال ابن جرير: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك: بأن يطيعوه بما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ وذلك هو الوفاء بعهد الله، وكذا قال غيره. وقوله ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ قال القرطبي: هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم، فإنه نهى وأمر وحذّر عن اتباع غير سبيله على

وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ○ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف. و(أنّ) في موضع نصب. أي أتلو أنّ هذا صراطي، عن الفراء والكسائي. ويجوز أن يكون خفضًا، أي وصاكم به وبأن هذا صراطي. قال: والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام. (مستقيمًا) نصب على الحال ومعناه مستويًا قيّمًا لا اعوجاج فيه. فأمر باتباع طريقه الذي طرّقه - على لسان محمد ﷺ - وشرعه ونهايته الجنة. وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي تميل. انتهى.

وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم - وصححه - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خط رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا؛ ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله ثم قال: وهذه سبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ - الآية» وعن مجاهد: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ قال: البدع والشهوات.

قال ابن القيم رحمه الله: ولنذكر في الصراط المستقيم قولًا وجيزًا، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلًا لهم إليه؛ ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسُن رسله، وجعله موصلًا لعباده إليه وهو إفراده بالعبادة، وإفراد رسله بالطاعة؛ فلا يشرك به أحدًا في عبادته ولا يشرك برسوله ﷺ أحدًا في طاعته. فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله فأي شيء فسِّر به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين. ونكتة ذلك: أن تحبه بقلبك وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمورًا بحبه، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته. فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، والثاني: يحصل بتحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به؛ وهو معرفة ما بُعِثَ به رسوله والقيام به، وقل ما شئت من العبارات التي هذا آخيّتها[1] وقطب رحاها. قال: وقال سهل بن عبدالله: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف، أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبيَّ ﷺ والاقتداءَ به في جميع أحواله ذموه ونفّروا عنه وتبرؤوا

---

(١) الآخية - بالمد والتشديد - حبيل، أو عويد يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير طرفه كالعروة تُشَدُّ فيها الدابة، وجمعها: الأواخي.

قال ابن مسعود: «مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إلى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتي عَلَيْها خاتمهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا﴾ الآية».

منه وأذلوه وأهانوه. اهـ.

قوله: (قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾) الآية.

قوله: (ابن مسعود) هو عبدالله بن مسعود بن غافل - بمعجمة وفاء - ابن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين؛ وأهل بدر، وأُحد، والخندق، وبيعة الرضوان، ومن كبار علماء الصحابة، أمّره عمر على الكوفة، ومات سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه.

وهذا الأثر، رواه الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه. وقال بعضهم: معناه من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتبت وخُتم عليها فلم تُغير ولم تبدّل فليقرأ: (قل تعالوا - إلى آخر الآيات) شبهها بالكتاب الذي كتب، ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص. فإن النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله، كما قال - فيما رواه مسلم -: «وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله» وقد روى عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ حتى فرغ من الثلاث الآيات. ثم قال: من وفَى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه وإن شاء عفا عنه» رواه ابن أبي حاتم والحاكم - وصححه - ومحمد بن نصر في الاعتصام.

قلت: ولأن النبي ﷺ لم يوصِّ أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه. وفي كتابه الذي أنزله ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله ﷺ.

قوله: (وعن معاذ بن جبل قال «كنتُ رديفَ النبي ﷺ على حمار؛ فقال لي: يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا - قلت: يا رسول الله، أفلا أبشِّر الناس؟ قال: لا تبشرهم فيتكلوا») أخرجاه في الصحيحين.

هذا الحديث في الصحيحين من طرق. وفي بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف.

وعن مُعاذِ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: كُنْتُ رَديفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلى حِمارٍ فَقالَ لِي: «يَا مُعاذُ أَتَدْرِي ما حَقُّ اللهِ عَلى العِبادِ، وما حَقُّ العِبادِ عَلى اللهِ؟ قُلْتُ: اللهُ ورَسولُهُ

و(معاذ بن جبل) رضي الله عنه هو: ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبو عبد الرحمن؛ صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدرًا وما بعدها، وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن رضي الله عنه. وقال النبي ﷺ: «معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برتْوَة»[1] أي بخطوة، قال في القاموس والرّتْوَة الخطوة وشرفٌ من الأرض، وسُويعة من الزمان، والدعوة، والفطرة، ورمية بسهم أو نحو ميل أو مَدَى البصر، والراتي العالم الرباني. انتهى.

وقال في النهاية: إنه يتقدم العلماء برتوة أي: برمية سهم، وقيل: بميل: وقيل مَدّ البصر. وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث، مات معاذ سنة ثماني عشرة بالشام في طاعون عمْواس، وقد استخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يُعَلمهم دينهم.

قوله: (كنت رديف النبي ﷺ) فيه: جواز الإرداف على الدابة، وفضيلة معاذ رضي الله عنه.

قوله: (على حمار) في رواية اسمه: عُفير، قلت: أهداه إليه المقوقس صاحب مصر.

وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه، خلافًا لما عليه أهل الكبر.

قوله: (أتدري ما حق الله على العباد؟) أخرج السؤال بصيغة الاستفهام، ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلم. و«حق الله على العباد» هو ما يستحقه عليهم. و«حق العباد على الله» معناه أنه متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاء لهم على توحيده: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

قال شيخ الإسلام: كان المطيع يستحق الجزاء، هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على المخلوق، فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق، إلا أنه أخبر بذلك ووعده صدق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقًا زائدًا على هذا، كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. ولكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة وأوجب على نفسه الحق، لم يوجبه عليه مخلوق. والمعتزلة يدّعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك؛ وهذا الباب غلطت فيه الجبرية والقدرية أتباع جهم، والقدرية

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: أخرجه محمد بن عثمان بن أبي شيبة في تاريخه من مرسل أبي عون الثقفي وأورده ابن عساكر في تاريخ دمشق من طرق عن محمد بن الخطاب.

أَعْلَم. قالَ: حَقُّ اللهِ على العِبادِ أن يَعْبدوه ولا يُشْرِكوا بِهِ شَيْئًا وحَقُّ العِبادِ عَلى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قُلْتُ يا رَسولَ اللهِ أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قالَ: لا تُبَشِّرهُم،

النافية.

قوله: (قلت الله ورسوله أعلم) فيه حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سُئِلَ عمَّا لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلفين.

قوله: (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا) أي يوحدوه بالعبادة. ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله حيث عرّف العبادة بتعريف جامع فقال:

وعبادة الرحمن: غاية حبه	مع ذُلِّ عابده، هما قطبان
ومداره بالأمر - أمر رسوله -	لا بالهوى والنفس والشيطان[1]

قوله: (ولا يشركوا به شيئًا) أي يوحدوه بالعبادة، فلا بد من التجرد من الشرك في العبادة، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتيًا بعبادة الله وحده، بل هو مشرك قد جعل لله ندًّا. وهذا معنى قول المصنف رحمه الله:

(وفيه أن العبادة هي التوحيد، لأن الخصومة فيه، وفي بعض الآثار الإلهية «إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل؛ وشرهم إليَّ صاعد، أتحبَّبُ إليهم بالنعم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي»).

قوله: (وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا) قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك وهو مثل قول القائل: ومن توضأ صحت صلاته، أي مع سائر الشروط. اهـ.

قوله: (لا تبشرهم فيتكلوا) أي يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال. وفي رواية «فأخبر بها معاذ عند موته تأثمًا» أي تحرُّجًا من الإثم. قال الوزير أبو المظفر: لم يكن يكتمها

---

(١) في قرة العيون:

حق الإله عبادة بالأمر لا	بهوى النفوس فذاك للشيطان
من غير إشراك به شيئًا هما	سببا النجاة فحبذا السببان
لم ينج من غضب الإله وناره	إلا الذي قامت به الأصلان
والناس بعد فمشرك بإلهه	أو ذو ابتداع أو له الوصفان

وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا. ليس على الله حق واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة. لكن هو سبحانه أحق ذلك على نفسه تفضلًا وإحسانًا على الموحدين المخلصين الذين لم يلتفتوا في إرادتهم ومهماتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى أحد سواه، ولم يتقرّبوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده والله أعلم.

فَيَتَّكِلوا». أخرجاه في الصحيحين.

فيه مسائلُ:

الأولى: الحِكمَةُ في خلق الجنِّ والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيدُ لأن الخصومة[١] فيه.

الثالثة: أن مَنْ لم يأتِ به لم يعْبدِ الله. ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾.

الرابعة: الحكمةُ في إرسال الرُّسل.

إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة؛ فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة؛ ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم.

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدَّم؛ الحثُّ على إخلاص العبادة لله، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تُسَمَّى عبادة. والتنبيه على عظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام، وجواز كتمان العلم للمصلحة.

قوله: (أخرجاه) أي البخاري ومسلم. و«البخاري» رحمه الله هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَردِزْبه الجعفي مولاهم؛ الحافظ الكبير صاحب الصحيح والتاريخ والأدب المفرد وغير ذلك من مصنفاته. روى عن الإمام أحمد بن حنبل والحميدي وابن المديني وطبقتهم. وروى عنه مسلم والنسائي والترمذي والفِرَبري راوي الصحيح. ولد سنة أربع وتسعين ومائة، ومات سنة ست وخمسين ومائتين.

و«مسلم» رحمه الله هو ابن حجاج بن مسلم أبو الحسين القشيري النيسابوري صاحب الصحيح والعلل والوِجدان وغير ذلك. روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم. وروى عن البخاري. وروى عنه الترمذي وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي الصحيح وغيرهما. وُلِدَ سنة أربع ومائتين. ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله.

* * *

---

(١) يعني أن الخصومة إنما وقعت بين النبي ﷺ وبين المشركين في تحقيق «لا إله إلا الله» المكونة من جملتين إحداهما: نفي والثانية إثبات. فالأولى: تنفي كل الآلهة التي يدعيها الناس والثانية: تثبت الإلهية لله وحده. يعني ينبغي أن يكفر بكل معبود لتخلص العبادة لله.

الخامسة: أن الرسالة عمّت كل أُمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرةُ أن عبادة الله لا تحصلُ إلا بالكفر بالطاغوتِ، ففيه معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

الثامنة: أن الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبِدَ من دون الله.

التاسعة: عظمُ شأنِ الثلاث الآياتِ المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل[١]. أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآياتُ المحكماتُ في سورة الإسراء وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تُسمّى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

الثانية عشرة: التنبيه على وَصيّة رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حقِّ العباد عليه إذا أدّوْا حقّه.

الخامسة عشرة: أنَّ هذه المسألة لا يعرفُها أكثرُ الصحابة.

السادسة عشرة: جوازُ كتمانِ العلم للمصلحة[٢].

السابعة عشرة: استحبابُ بشارة المسلم بما يَسُرُّه.

الثامنة عشرة: الخوفُ من الاتّكَالِ على سعةِ رحمة الله.

التاسعة عشرة: قولُ المسؤولِ عما لا يعلم: «اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ».

العشرون: جوازُ تخصيص بعض الناسِ بالعلم[٣] دون بعضٍ.

---

(١) التي هي الوصايا العشر. وأولها وأهمها: (أن لا تشرك بالله شيئًا).

(٢) لا يعرفها أكثر الصحابة لأن النبي أمر معاذًا أن يكتمها عن الناس مخافة أن يتكلوا على سعة رحمة الله ويتركوا العمل فلم يخبر بها إلا عند موته تأثمًا. فلذلك لم يعرفها أكثر الصحابة في حياة معاذ.

(٣) يعني العلم الزائد على القدر المحتاج إليه في إقامة الدين، وإلا لم يجز بدليل وعيد الله الشديد على كتمان العلم في قوله: =

الحادية والعشرون: تواضعُه ﷺ لركوبِ الحمار، مع الإرداف عليه.

الثانية والعشرون: جوازُ الإرداف على الدّابة.

الثالثة والعشرون: فضيلةُ مُعاذِ بن جبلٍ.

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]، وقوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقول النبي ﷺ: «ليبلغ الشاهد منكم الغائب».

١ - باب
فضل التوحيد[1] وما يُكفِّر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله: (باب بيان فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب) «باب» خبر مبتدأ محذوف تقديره هذا (قلت) ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره هذا. و«ما» يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي وبيان الذي يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي وتكفيره الذنوب، وهذا الثاني أظهر.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] قال ابن جرير: حدثني المثنى - وساق بسنده - عن الربيع بن أنس قال: «الإيمان: الإخلاص لله وحده»).

وقال ابن كثير في الآية: أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يشركوا به شيئًا: هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق: هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه.

وعن ابن مسعود: لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس بذلكم، ألم تسمعوا إلى قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» وساقه البخاري بسنده فقال: حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثني إبراهيم عن علقمة عن عبدالله رضي الله عنه قال: «لمَّا نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يارسول الله، أيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «ليس كما تقولون؛ لم يلبسوا إيمانهم بظلم، بشرك. أولَم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

ولأحمد بنحوه عن عبدالله قال لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله فأيُّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك». وعن عمر: أنه فسره بالذنب. فيكون المعنى: الأمن من كل عذاب. وقال الحسن، والكلبي: «أولئك لهم الأمن، في الآخرة، وهم مهتدون في الدنيا».

---

(١) في قرة العيون: والمراد بالتوحيد توحيد العبادة، وهو إفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة كالدعاء والذبح والنذر وغير ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

(٢) في قصة إبراهيم عليه السلام من أحاديث الأنبياء.

. . . .

قال شيخ الإسلام: والذي شق عليهم، أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو: ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبيّن لهم النبي ﷺ ما دلّهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢]، وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقد سأل أبو بكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: «يارسول الله، أيُّنا لم يعمل سوءًا؟ فقال: «ياأبا بكر ألست تنصَب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به» فبيّن: أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة، قد يُجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب، فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك، كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق. بمعنى: أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى: وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم، الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء، بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه، وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» أن من لم يشرك الشرك الأكبر، يكون له الأمن التام والاهتداء التام. فإن أحاديثه الكثيرة، مع نصوص القرآن: تبين أن أهل الكبائر مُعَرّضون للخوف؛ لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام اللذان يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم. بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط؛ ومعهم أصل نعمة الله عليهم ولا بد لهم من دخول الجنة. وقوله: «إنما هو الشرك» إن أراد الأكبر: فمقصوده أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وُعِدَ به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة، وإن كان مراده جنس الشرك يقال: ظلم العبد نفسه، كبخله - لحب المال - ببعض الواجب هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يُقدِّم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه. ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ في هذا الشرك بهذا الاعتبار انتهى ملخصًا[1].

وقال ابن القيم رحمه الله: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ قال الصحابة: «وأيُّنا يارسول الله لم يُلبس إيمانه بظلم؟ قال: «ذلك الشرك. ألم

(١) من كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه.

عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله. وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ....

تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» لما أُشْكِل عليهم المراد بالظلم، فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه.

وأن من ظلم نفسه - أيّ ظلم كان - لم يكن آمنًا ولا مهتديًا، أجابهم صلوات الله وسلامه عليه: بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك. وهذا والله، هو الجوابُ الذي يشفي العليل ويروي الغليل. فإن الظلم المطلق التام: هو الشرك، الذي هو وضع العبادة في غير موضعها. والأمن والهدى المطلق: هما الأمن في الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم. فالظلم المطلق التام رافع للأمن والاهتداء المطلق التام. ولا يمنع أن يكون [مطلق] الظلم مانعًا من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمله. فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة. اهـ ملخصًا[1].

قوله: (عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله؛ وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ورُوحٌ منه. والجنةَ حقٌّ والنار حق؛ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». (أخرجاه).

عبادة بن الصامت: ابن قيس الأنصاري الخزرجي؛ أبو الوليد؛ أحد النقباء بَدْري مشهور مات بالرّملة سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سنة؛ وقيل: عاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه.

قوله: (من شهد أن لا إله إلا الله) أي: من تكلم بها عارفًا لمعناها، عاملًا بمقتضاها، باطنًا وظاهرًا، فلا بد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولها؛ كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] أما النطق بها من غير معرف لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك،

---

(١) قال في قرة العيون: قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢] فالظالم لنفسه هو الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا؛ فهو تحت مشيئة الله: إن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنبه، ونجاه بتوحيده من الخلود في النار. وأما المقتصد فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه وترك ما حرَّم عليه فقط، وهذه حال الأبرار. وأما السابق فهو الذي حصل له كمال الإيمان باستفراغه وسعيه في طاعة الله علمًا وعملًا. فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة فالكل للكل، والحصة للحصة، لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها، فلم يلق ربه بذنب يعاقب به كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧] وهذا الذي ذكرته في معنى هذه الآية هو [معنى] ما قرّره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى وابن القيم رحمه الله في معناها، وهو الذي دل عليه القرآن، وهو قول أهل السنة والجماعة خلافًا لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم.

. . . .

وإخلاص القول والعمل - قولِ القلب واللسان؛ وعملِ القلب والجوارح - فغير نافع بالإجماع(١).

قال القرطبي في المفهم على صحيح مسلم: بابٌ لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين؛ بل لا بد من استيقان القلب - هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرجِئَةِ؛ القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف في الإيمان - وأحاديث هذا الباب تدل على فساده. بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق؛ والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح. وهو باطل قطعًا. اهـ.

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قوله: «من شهد» فإن الشهادة لا تصحُّ إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع؛ وهو أجمع - أو من أجمع - الأحاديث المشتملة على العقائد. فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها. فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم اهـ.

ومعنى «لا إله إلا الله» لا معبود بحق إلا الله. وهو في غير موضع من القرآن، ويأتيك في قول البقاعي صريحًا. قوله: (وحده) تأكيد للإثبات (لا شريك له) تأكيد للنفي. قال

---

(١) قال في قرة العيون: وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفيًا وإثباتًا، فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك «لا إله» وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك «إلا الله» قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل وهم الأكثرون، فقبلوا حقيقة المعنى فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد والطواغيت والأشجار والأحجار والجن وغير ذلك، واتخذوا ذلك دينًا وشبهوا وزخرفوا، واتخذوا التوحيد بدعة وأنكروه على من دعاهم إليه؛ فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم(*) فإنهم عرفوا معناها وأنكروا ما دلّت عليه من الإخلاص كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦] والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكره أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من الموتى والقبور والمشاهد والطواغيت ونحوها. فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه؛ وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه؛ فلهذا تجده يقول: لا إله إلا الله، وهو يدعو مع الله غيره.

(*) سبب ذلك أن عرب الجاهلية هم أهل لغة القرآن الفصحاء فلا يجهلون شيئًا من معنى التوحيد الذي قرّره. وأما هؤلاء الذين فشا فيهم اليوم شرك العبادة فليسوا من أهل ملكة هذه اللغة وإنما يدينون بالاصطلاحات التي تلقاها بعضهم من بعض من كلامية وعامية. وإذا كان مثل الفخر الرازي من أكبر أئمة متكلميهم وأصولييهم أخطأ في فهم معنى الإله في تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فما الظن بمن دونه من علمائهم. دع عامتهم ودهماءهم؟ هل يستغرب منهم الجهل بأن من دعا ميتًا أو صالحًا حَيًّا فيما لا يُدْعَىٰ فيه إلا الله، أو طاف بقبره ونذر له يكون عابدًا له ومتخذًا له إلهًا؟!!!

. . . .

الحافظ. كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٦٣] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٦٥] فأجابوه - ردًّا عليه - بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج:٦٢].

فتضمن ذلك نفي الإلهية عما سوى الله؛ وهي العبادة. وإثباتَها لله وحده لا شريك له، والقرآن من أوله إلى آخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل رَغَبًا ورَهبًا، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم في أدلة هذا الباب وما قبله، فمن صرف من ذلك شيئًا لغير الله فقد جعله لله ندًّا؛ فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

ذكر كلام العلماء، في معنى «لا إله إلا الله»

قد تقدم كلام ابن عباس؛ وقال الوزير أبو المظفر في الإفصاح: قوله: «شهادة أن لا إله إلا الله» يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بأنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال: واسم (الله) بعد (إلا) من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه. قال: وجملة الفائدة في ذلك: أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله؛ فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم في البدائع[1] ردًّا لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المستثنى منه. قال ابن القيم: بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه، فلا يكون داخلًا في المستثنى؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله: «لا إله إلا الله» لأنه لم يثبت الإلهية لله تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمَّنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها له بوصف الاختصاص. فدلالتها على إثبات إلهيته أعظم من دلالة قولنا: (الله إله) ولا يستريب أحد في هذا البتة. انتهى بمعناه.

وقال أبو عبدالله القرطبي في تفسيره: (لا إله إلا الله): أي: لا معبود إلا هو.

وقال الزمخشري: الإله من أسماء الأجناس. كالرجل والفرس؛ يقع على كل معبود

---

(١) بدائع الفوائد للعلامة ابن القيم: ج٣ ص ٥٦، وهو بحث قيم جدًّا في الاستثناء والمستثنى.

. . . .

بحق أو باطل؛ ثم غلب على المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: الإله هو المعبود المطاع، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد. وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، وتخضع له وتُذَلُّ له، وتخافه وترجوه. وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبَه، والمنكرون لها أعداءه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحَّت صحَّ بها كل مسألة، وحالٍ، وذوق. وإذا لم يُصححها العبد فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقال ابن القيم: (الإله) هو الذي تألهه القلوب محبةً وإجلالًا وإنابة، وإكرامًا وتعظيمًا وذلًّا وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وتوكلًا.

وقال ابن رجب: (الإله) هو الذي يُطاع فلا يُعصى، هيبةً له وإجلالًا، ومحبةً وخوفًا ورجاءً، وتوكلًا عليه، وسؤالًا منه ودعاء له، ولا يصلح هذا كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قول (لا إله إلا الله) وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك.

وقال البقاعي: لا إله إلا الله، أي: انتفاءً عظيمًا أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العِلْم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة؛ وإنما يكون علمًا إذا كان نافعًا، وإنما يكون نافعًا إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهلٌ صِرْف.

وقال الطيبي: (الإله) فِعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب - من أله إلهةً - أي عُبد عبادة. قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء وإجماع منهم.

فدلت (لا إله إلا الله) على نفي الإلهية عن كل ما سوى الله تعالى كائنًا ما كان، وإثبات الإلهية لله وحده دون كل ما سواه، وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] فلا إله إلا الله لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقد ذلك وقَبِلهُ وعمل به. وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء أن هذا جهل صرف، فهي حجة عليه بلا ريب.

فقوله في الحديث: «وحده لا شريك له» تأكيد وبيان لمضمون معناها. وقد أوضح الله ذلك وبيّنه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين، فما أجهلَ عُبّاد القبور بحالهم! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص لا إله إلّا الله! فإن مشركي العرب

وأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ . . . .

ونحوهم جحدوا لا إله إلَّا الله لفظًا ومعنى. وهؤلاء المشركون أقرُّوا بها لفظًا وجحدوها معنى، فتجد أحدهم يقولها وهو يألهُ غيرَ الله بأنواع العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة. بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أحدهم إذا وقع في شدة، أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فَرَجًا لهم من الله، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم كانوا يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد، فإنما يخلصون لله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية. فبهذا يتبين: أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم[١].

وقوله: (وأن محمدًا عبدهُ ورسولُه) أي: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نِيّة تكرار العامل. ومعنى: «العبد» هنا المملوك العابد، أي: أنه مملوك لله تعالى؛ والعبودية الخاصة وصفه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة؛ فالنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلهية فهما حق الله تعالى، لا يَشْركُه في شيء منهما مَلَك مُقرّب ولا نبيٌّ مرسل. وقوله: «عبده ورسوله» أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعًا للإفراط والتفريط، فإن كثيرًا ممن يدعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولًا وفعلًا، وفرط بترك متابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها والصدوف عن الانقياد لها مع إطراحها فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان به وتصديقه فيما أخبر؛ وطاعته فيما أمر؛ والانتهاء عما عنه نهى وزجر؛ وأن يعظِّم أمره ونهيه، ولا يقدّم عليه قول أحد كائنًا من كان[٢]. والواقع اليوم وقبله - ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين - خلاف ذلك، والله المستعان. وروى الدارمي في مسنده عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنه كان يقول:

---

(١) في قرة العيون قلت: وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى الإله وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى توحيد الربوبية وهو القدرة على الاختراع فأثبتوا ما نفته (لا إله إلا الله) من الشرك وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلًا منهم؛ وقد قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] قال محيي الدين النووي: أعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيع من أزمان متطاولة ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًّا وهو باب عظيم، به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقاب الصالح والطالح. وقوله: في هذه الأزمان يعني القرنين الخامس والسادس، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده وقد استحكمت فيها الغربة. ولشيخنا محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى في تفسير هذه الكلمة كلام بديع واضح لم يُسْبَقْ إلى مثله فليراجع لمسيس الحاجة إليه.

(٢) في قرة العيون: وألا تعارض بقول أحد لأن غيره ﷺ يجوز عليه الخطأ والنبي ﷺ قد عصمه الله تعالى، وأمرنا بطاعته والتأسي به وتوعدنا على ترك طاعته بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ الآية. [الأحزاب: ٣٦] وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]=

وأَنَّ عيسَى عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ ....

«إنا لنجد صفةَ رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخّاب بالأسواق، ولا يَجْزِي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يُقيم الملّة المتعوجة بأن يشهد أن لا إله إلّا الله، يفتح به أعينًا عُميًا وآذانًا صُمًّا وقلوبًا غُلْفًا» قال عطاء بن يسار: وأخبرني أبو واقد الليثي أنه سمع كعبًا يقول مثل ما قال ابن سلام(١).

قوله: (وأن عيسى عبدُالله ورسولُه) أي خلافًا لما يعتقده النصارى أنه الله أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة(٢). تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] فلا بد أن يشهد أن عيسى عبدالله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله؛ خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فليس ربًّا ولا إلهًا، سبحان الله عما يشركون. قال تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾(٣) [مريم: ٢٩-٣٦] وقال: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢] ويشهد المؤمن أيضًا ببطلان قول أعدائه اليهود: إنه ولد بَغِيٍّ، لعنهم الله تعالى. فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعًا في عيسى عليه السلام؛ ويعتقد ما قاله

= قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك؛ لعلّه إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».
وقد وقع التفريط في المتابعة وتركها وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله ﷺ: لا سيما من العلماء كما لا يخفى.

(١) آخر رواية الدارمي «ج١ ص ٥» وفي الرواية عن كعب «نجده مكتوبًا في التوراة».

(٢) في قرة العيون، فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده كما في الآيات المحكمات، وما فيها من الرد على كفار النصارى وهم ثلاث طوائف: طائفة قالوا: إن عيسى هو الله؛ وطائفة قالوا: إنه ابن الله؛ وطائفة قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. يعنون عيسى وأمه. فبين الله تعالى في كتابه الحق وأبطل الباطل فقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٧١] والآيات بعدها. وقال تعالى ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] في مواضع من سورة المائدة وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو في المهد.

(٣) في قرة العيون: فبين تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا ومن خرج منه هلك وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠] فبين تعالى الصراط المستقيم بيانًا شافيًا ووافيًا وأقام حججه على توحيده فأحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المشركون.

وكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَم ورُوحٌ مِنْهُ، . . . .

الله تعالى فيه: إنه عبدالله ورسوله.

قوله: (وكلمته) إنما سُمِّي عيسى عليه السلام كلمة لوجوده بقوله تعالى: «كن» كما قاله السلف من المفسرين. قال الإمام أحمد في الرد على الجهمية[1]: «بالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: «كن» فكان عيسى بكن، وليس عيسى هو «كن» ولكن بكن كان. فكن من الله تعالى قوله، وليس «كن» مخلوقًا، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى». انتهى.

قوله (ألقاها إلى مريم) قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عز وجل: فكان عيسى بإذن الله عز وجل، فهو ناشئ عن الكلمة التي قال له: «كن فكان» والروح التي أرسل بها؛ هو جبريل عليه السلام.

وقوله: (وروح منه)[2] قال أبي بن كعب: «عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله

---

(١) صفحة ٢٠ طبعة عيسى الحلبي وأولاده في باب: ثم إن الجهمي ادعى أمرًا فقال: إنا وجدنا آية في كتاب الله تدل على أن القرآن مخلوق. فقلنا: أي آية: قال: قول الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ وعيسى مخلوق.

(٢) الظاهر أن معنى «وروح منه» أنه كغيره من بني آدم الذي يقول الله فيه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] كما مثل له في الآية الأخرى بأنه مثل آدم. والله أعلم.

وقال في قرة العيون: أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم عليه السلام وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ﴾ الآية. [الأعراف: ١٧٢] وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى. وذكر ابن جرير عن وهب ابن منبه قال: «نفخ جبريل في جيب درع مريم حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت عليه»وعن السدي أن النفخة دخلت في صدرها فحملت، وقال ابن جريج: يقولون إنما نفخ في جيب درعها وكمها انتهى مختصرًا. فجبريل نفخ والله خلق بقول «كن» فكان. كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فسبحان من لا يخلق غيره ولا يُعبد سواه. وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول الله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ﴾.

فقال في الجواب: هذا ليس خاصًا بعيسى عليه السلام بل المخلوقات كذلك كلها. كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ﴾ [الجاثية: ١٣] أي خلقًا وإيجادًا وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته. وفي هذا الحديث الرد على اليهود أعداء الله وأعداء أنبيائه ورسله، فإنهم كانوا هم والنصارى على طرفي نقيض فنسبوه إلى أنه ولد بغي، قاتلهم الله، فأكذبهم الله تعالى في كتابه وأبطل قولهم كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها. فالنصارى غلوا في عيسى ابن مريم عليه السلام أعظم الغلو والكفر والضلال، واليهود جفوا في حقه غاية الجفاء، وكلاهما قد ضل ضلالا بعيدًا، نبه الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه وبين تعالى الحق والصدق ورفع قدر المسيح عليه السلام وجعله من أولي العزم الخمسة المذكورين في (سورة الأحزاب: ٧ ، والشورى: ١٣) وأمر نبيه ﷺ أن يصبر كما صبروا فقال: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] فهم أفضل الرسل على التحقيق والنبي ﷺ أفضلهم صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والجَنَّةَ حَقّ، والنَّارَ حَقّ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلى مَا كانَ مِنَ العَمَلِ» أخرجاه

تعالى واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل فيها» رواه عبد بن حميد وعبدالله بن أحمد في زوائد المسند؛ وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم.

قال الحافظ: ووصفه بأنه منه؛ فالمعنى أنه كائن منه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فالمعنى أنه كائن منه، كما أن معنى الآية الأخرى أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه، أي أنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته.

قال شيخ الإسلام: المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات، وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به؛ وامتنع أن تكون إضافته مخلوق مربوب. وإذا كان المضاف عينًا قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره. لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها؛ فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقولهم: سماء الله، وأرض الله. فجميع المخلوقين عبيد الله؛ وجميع المال مال الله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه؛ كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره. وكما يقال في مال الخُمْس والفيء: هو مال الله ورسوله. ومن هذا الوجه: فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره. فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. اهـ ملخصًا.

قوله: (والجنة حق والنار حق) أي وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله تعالى في كتابه أنه أعدها للمتقين حق؛ أي ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة؛ كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وفي الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافًا للمبتدعة(١). وفيهما: الإيمان بالمعاد.

وقوله: (أدخله الله الجنة على ما كان من العمل) هذه الجملة جواب الشرط وفي رواية: «أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء». قال الحافظ: معنى قوله: «على ما كان من العمل» أي من صلاح أو فساد، لأن أهل التوحيد لا بد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن

---

(١) في قرة العيون: ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسل، فإن الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم، وذكر أنها دار المتقين، وذكر النار وما فيها من العذاب وأنه أعدها لمن كفر به وأشرك.

ولهما في حديث عِتْبان: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلى النَّارِ مَنْ قالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذٰلِكَ وَجْهَ اللهِ».

يكون معنى قوله: «على ما كان من العمل» أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات.

قال القاضي عياض: ما ورد في حديث عبادة يكون مخصوصًا لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة ودخول الجنة لأول وهلة.

(قال: ولهما في حديث عِتْبان «فإن الله حَرّم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله[1].»).

(١) في قرة العيون: اختصره المصنف وذكر منه ما يناسب الترجمة وهو قوله: «من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه هذه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك، والصدق والإخلاص متلازمان لا يوجد أحدهما بدون الآخر، فإن من لم يكن مخلصًا فهو مشرك ومن لم يكن صادقًا فهو منافق، والمخلص أن يقولها مخلصًا الإلهية لمن لا يستحقها غيره وهو الله تعالى، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذي قاله الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ والحنيف: هو الذي ترك الشرك رأسًا وتبرّأ منه وفارق أهله وعاداهم وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ فإسلام الوجه هو: إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق وهو معنى الآية ونحوها إجماعًا. فهذا هو الذي ينفعه قوله: «لا إله إلا الله» ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢]. وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميت أو غائب لا ينفع ولا يضر، كما ترى عليه أكثر الخلق، فهؤلاء وإن قالوها فقد تلّبسوا بما يناقضها؛ فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفيًا وإثباتًا. والجاهل بمعناها - وإن قالها - لا تنفعه لجهله بما وضعت له الوضع العربي الذي أُريد منها من نفي الشرك، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقن له، فإذا انتفى اليقين وقع الشك.

ومما قيدت به في الحديث قوله ﷺ: «غير شاك» فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين لقوله: «صدقًا من قلبه، خالصًا من قلبه» وكذلك من قالها غير صادق في قوله. فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وكذلك حال المشرك فلا تقبل من مشرك لمنافاة الشرك للإخلاص، ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقة، فإنها دلت على نفي الشرك والبراءة منه والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقة. ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله: «لا إله إلا الله» كما هو حال كثير من عبدة الأوثان يقولون: «لا إله إلا الله» وينكرون ما دلّت عليه من الإخلاص ويعادون أهله وينصرون الشرك وأهله. وقد قال الخليل عليه السلام لأبيه وقومه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] وهي «لا إله إلا الله» وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي وضعت له ودلت عليه، وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له كما تقدم تقريره، وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص كان قوله لهذه الكلمة كذبًا منه بل قد عكس مدلولها فأثبت ما نفته من الشرك ونفى ما أثبتته من الإخلاص.

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة، وسبب ذلك الجهل بمعناها واتباع الهوى فيصدفه عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم.

. . . .

قوله: (ولهما) أي البخاري ومسلم في صحيحيهما بكماله. وهذا طَرَف من حديث طويل أخرجه الشيخان.

وعتبان بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة، ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف، صحابي مشهور، مات في خلافة معاوية.

وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن قتادة قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ - ومعاذٌ رديفه على الرّحْل - قال: «يامعاذ، قال: لبّيك يارسول الله وسَعْديك. قال: يامعاذ، قال: لبيك يارسول الله وسعديك. قال: يامعاذ، قال: لبيك يارسول الله وسعديك - ثلاثًا - قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرَّمه الله تعالى على النار. قال: يارسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذن يَتّكلُوا»، فأخبر بها معاذٌ عند موته تأثُّمًا. وساق بسند آخر: حدثنا معتمر قال: سمعت أبي، قال: سمعت أنسًا قال: ذُكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «من لقيَ الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة. قال: ألا أُبشِّر الناس؟ قال: لا، إني أخاف أن يتكلوا».

قلت: فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص.

قال شيخ الإسلام وغيره - في هذا الحديث ونحوه -: أنها فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله: «خالصًا من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين» فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنة، لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحًا، فإذا مات على تلك الحال نال ذلك فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يَزن شَعيرة، وما يزن خَرْدلة، وما يَزِن ذَرّة» وتواترت بأن كثيرًا ممن يقول: لا إله إلا الله يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرَّم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرِّم على النار من قال لا إله إلا الله، ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليدًا أو عادة، ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه. وغالب من يُفْتَن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث: «سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته»[1] وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم؛ وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ

(١) في حديث البراء بن عازب الذي رواه أصحاب السنن وغيرهم في سؤال القبر.

. . . .

أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف: ٢٣].

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مُصِرًّا على ذنبٍ أصلًا، فإنَّ كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذن لا يبقى في قلبه إرادة لما حرَّم الله؛ ولا كراهة لما أمر الله. وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص؛ وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا تترك له ذنبًا إلا مُحِيَ عنه كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصِرّ على ذنب أصلًا، فيغفر له ويحرم على النار. وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك؛ بهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة[1] فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت سيئاته بحسناته ومات مُصِرًّا على ذلك، فإنه يستوجب النار. وإن قال لا إله إلا الله وَخَلُصَ بها من الشرك الأكبر ولكنه لم يمت على ذلك؛ بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصًا لكنه أتى بذنوب أوهنَت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته ولا يكون مُصِرًّا على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة، فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر؛ فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيُرَجِّح جانب السيئات، فإن السيئات تُضعِفُ الإيمان واليقين، فيضعف قول لا إله إلا الله، فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلِّمُ بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسّن صوته بالآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك بل يقولونها من غير يقين وصدق ويحيون على ذلك، ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة. فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها؛ وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غير الله، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرّفَثَ، ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق؛ فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقه عمله.

---

(١) سيأتي.

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ قال: «قالَ موسَى: يَا رَبِّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وأَدْعُوكَ بِهِ قال: قُلْ يَا موسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. قالَ: يَا ربِّ كُلُّ عِبادِكَ يَقولونَ

قال الحسن: «ليس الإيمان بالتّحلِّي ولا بالتمنّي، ولكن ما وَقَر في القلوب وصدَّقته الأعمال، فمن قال خيرًا وعمل خيرًا قُبل منه، ومن قال خيرًا وعمل شرًّا لم يقبل منه».

وقال بكر بن عبدالله المَزني: «ما سبقهم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ولكن بشيء وَقَر في قلبه».

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها بل اكتسب مع ذلك ذنوبًا، وكان صادقًا في قولها موقنًا بها - لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه - وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مصرًّا على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه: إما ألا يكون مصرًّا على سيئة أصلًا، ويكون توحيده - المتضمن لصدقه ويقينه - رجّح حسناته. والذين يدخلون النار ممن يقولها: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تامين، لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات، فترجحُ سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصًا.

وقد ذكر هذا كثير من العلماء، كابن القيم وابن رجب وغيرهم.

قلت: وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث.

قال: وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس، وفيه تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه أن العمل لا ينفع إلا إذا كان خالصًا لوجه الله تعالى على ما شرعه على لسان رسوله.

تنبيه: قال القرطبي في «تذكرته»: قوله في الحديث: «من إيمان» أي: من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح. فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان، والدليل على أنه أراد بالإيمان ما قلناه - ولم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والإخلاص بقول لا إله إلا الله - ما في الحديث نفسه من قوله: «أخرجوا». ثم بعد ذلك «يقبض سبحانه قبضة فيخرج قومًا لم يعملوا خيرًا قط» يريد بذلك: التوحيد المجرد من الأعمال. اهـ ملخصًا من شرح سنن ابن ماجه.

قال المصنف رحمه الله: (وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يارب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به. قال: قل ياموسى: لا إله إلا الله، قال: كل عبادك يقولون هذا. قال: ياموسى لو أن السمٰوات السبع وعامرهن غيري؛ والأرضين السبع في كفة؛ ولا إله إلَّا الله في كفة؛ مالت بهن لا إله إلَّا الله» رواه ابن

هٰذا. قالَ يَا موسَى لَوْ أَنَّ السَّمَواتِ السَّبْعَ وعامِرَهُنَّ غَيْري والأَرْضينَ السَّبْعَ في كِفَّةٍ ولَا

حبان والحاكم وصححه).

(أبو سعيد): اسمه سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل وأبوه كذلك. استصغر أبو سعيد بأُحد، وشهد ما بعدها. مات بالمدينة سنة ثلاث - أو أربع أو خمس - وستين. وقيل: سنة أربع وسبعين.

قوله: (أذكرك) أي: أثني عليك به (وأدعوك) أي أسألك به.

قوله: (قل ياموسى لا إله إلَّا الله)[1] فيه: أن الذاكر بها يقولها كلها، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على «هو» كما يفعله غلاة جهال المتصوفة، فإن ذلك بدعة وضلال.

قوله: (كل عبادك يقولون هذا) ثبت بخط المصنف بالجمع، والذي في الأصول (يقول) بالإفراد مراعاة للفظة (كل). وهو في المسند من حديث عبدالله بن عمرو وبلفظ الجمع كما ذكره المصنف على معنى (كل) ومعنى قوله: (كل عبادك يقولون هذا) أي: إنما أريد شيئًا تخصني به من بين عموم عبادك؛ وفي رواية - بعد قوله: (كل عبادك يقولون هذا - قل: لا إله إلَّا الله، قال: لا إله إلَّا أنت يارب، إنما أريد شيئًا تخصني به).

ولما كان بالناس - بل بالعالم كله - من الضرورة إلى لا إله إلَّا الله ما لا نهاية له؛ كانت من أكثر الأذكار وجودًا، وأيسرها حصولًا، وأعظمها معنى، والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة.

قوله: (وعامرهن غيري)[2] هو بالنصب عطف على السمٰوات، أي: لو أن السمٰوات السبع ومن فيهن من العُمَّار - غير الله تعالى - والأرضين السبع ومن فيهن وضعوا في كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

---

(١) قال في قرة العيون: فلا، نافية للجنس نفيًا عامًّا إلا ما استثنى، وخبرها محذوف تقديره لا إله حق إلا الله. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠] فإلهيته تعالى هي الحق وكل ما سواه من الآلهة فإلهيته باطلة، كما في هذه الآية ونظائرها. فهذه كلمة عظيمة هي العروة الوثقى وكلمة الإخلاص، وهي التي قامت بها السموات والأرض، وشرعت لتكميلها السنة والفرض، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد. فمن قالها وعمل بها صدقًا وإخلاصًا وقبولًا، ومحبة وانقيادًا أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

(٢) قال في قرة العيون: أي: كل من في السموات والأرض وقوله: (غيري) استثنى ممن في السمٰوات نفسه لأنه العلي الأعلى تعالى وتقدس كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] علو القهر وعلو القدر وعلو الذات. فالثلاثة كلها صفته ودلت على كماله كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الآية [الفرقان: ٥٩]. في سبعة مواضع من كتابه (٧: ٥٤ و١٠: ٣ و١٣: ٢ و٣٢: ٤ و٥٧: ٤) كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤] ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وأمثال هذه الآيات. فمن سلب علو الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة وألحد في أسمائه وصفاته. ومعنى هذه الكلمة: نفي الإلهية عن كل شيء سوى ما استثنى بها وهو الله تعالى.

وفيه النص على أن الأرضين سبع كالسمٰوات لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجحانها إلا في حق من أتى

إِلَهَ إِلَّا اللهُ في كِفَّةٍ لَمالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ: «أن نوحًا عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله؛ فإن السمٰوات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفّة، ولا إله إلا الله في كفة رَجحتْ بهنَّ لا إله إلا الله؛ ولو أن السمٰوات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلْقة مُبْهمة لَقَصمَتْهن لا إله إلا الله».

قوله: (في كِفة) هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أي: كفة الميزان.

قوله: (مالت بهن) أي: رجحت؛ وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله: الذي هو أفضل الأعمال. وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين؛ وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣].

ودل الحديث على أن: «لا إله إلا الله» أفضل الذكر. كحديث عبدالله بن عمرو مرفوعًا:

بقيودها التي قيدت بها في الكتاب والسنة، وقد ذكر الله سبحانه في سورة براءة وغيرها كثيرًا ممن يقولها ولم ينفعهم قولها. كحال أهل الكتاب والمنافقين على كثرتهم وتنوعهم في نفقاتهم فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود.

فمنهم، من يقولها جاهلًا بما وضعت له وبما دلّت عليه من نفي الشرك والبراءة منه والصدق والإخلاص وغيرها؛ كعدم القبول ممن دعا إليها علمًا وعملًا، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه كحال أكثر من يقولها قديمًا وحديثًا، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر.

ومنهم، من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبر أو هوى أو غير ذلك من الأسباب وهي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وأما أهل الإيمان الخُلص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة، واجتمعت لهم قيودها التي قُيدت بها علمًا ويقينًا وصدقًا وإخلاصًا ومحبة وقبولًا وانقيادًا، وعادوا فيه ووالوا فيه وأحبوا فيه وأبغضوا فيه. وقد ذكرهم الله تعالى في مواضع من سورة براءة وغيرها وخصهم بالثناء عليهم، والعفو عنهم وأعد لهم جنته وأنجاهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠] فهؤلاء ومن أتبعهم بإحسان هم أهل «لا إله إلا الله»، وغير هذه من الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة.

فمن تدبر القرآن وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده والعمل بطاعته والهرب من معصيته وإيثار ما يحبه تعالى رغبة وعملًا. وترك ما يكرهه خشية ورجاء، واعتبر الناس بأحوالهم وأقوالهم وأعمالهم ونياتهم وما هم فيه من التفاوت البعيد؛ تبين له خطأ المغرورين. كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني».

وللترمذي - وحسنه - عن أنس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قالَ اللهُ تَعالَى يَا ابْنَ

«خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» رواه أحمد والترمذي، وعنه أيضًا مرفوعًا: «يُصاحُ برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مدّ البصر ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا أظلَمك كتبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يارب. فيقال: ألك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة؛ والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة» رواه الترمذي وحسنه. والنسائي وابن حبان والحاكم. وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في تلخيصه: صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملَين واحدة وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلًّا كل سجل منها مدى البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يُعذَّب، ومعلوم أن كل مُوحِّد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

قوله: (رواه ابن حبان والحاكم) ابن حبان اسمه محمد بن حبان - بكسر المهملة وتشديد الموحدة - ابن أحمد بن حبان بن معاذ، أبو حاتم التميمي البُسْتي الحافظ صاحب التصانيف: كالصحيح، والتاريخ، والضعفاء، والثقات وغير ذلك. قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ، ومن عقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بُسْت - بضم الموحدة وسكون المهملة.

وأما الحاكم، فاسمه محمد بن عبدالله بن محمد النيسابوري، أبو عبد الله الحافظ ويعرف بابن البَيِّع ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنَّف التصانيف، كالمستدرك، وتاريخ نيسابور وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

قال المصنف رحمه الله: (وللترمذي، وحسنه، عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يابن آدم؛ إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة»)[1].

---

(١) في قرة العيون: في هذا الحديث ما يبين معنى: «لا إله إلا الله» التي رجحت بجميع المخلوقات، وجميع السيئات؛ وإن ذلك هو ترك الشرك قليله وكثيره، وذلك يقتضي كمال التوحيد، فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص من العلم واليقين والصدق والإخلاص والمحبة والقبول والانقياد وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

آدَم، لَوْ أَتَيْتَني بِقُرابِ الأَرْضِ خَطايَا، ثُمَّ لَقيْتَنِي لَا تشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَةً»

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذي بتمامه فقال: عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: ياابن آدم؛ إنك ما دعوتني ورَجَوْتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي؛ ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، ياابن آدم، إنك لو أتيتني - الحديث».

الترمذي: اسمه محمد بن عيسى بن سَوْرة - بفتح المهملة - ابن موسى بن الضحاك السلمي أبو عيسى؛ صاحب الجامع، وأحد الحفاظ؛ كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهنّاد والبخاري وخلق. مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

وأنس: هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي؛ خادم رسول الله ﷺ خدمه عشر سنين، وقال له: «اللهم أكثر ماله وولده؛ وأدخله الجنة» مات سنة اثنتين وقيل: ثلاث وتسعين، وقد جاوز المائة.

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذرٍّ بمعناه، وهذا لفظه: «ومَن عمل قُراب الأرض خطيئة، ثم لقيني لا يشرك بي جعلت له مثلها مغفرة» ورواه مسلم، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ.

قوله: (لو أتيتني بِقُراب الأرض) بضم القاف: وقيل بكسرها والضم أشهر وهو ملؤها أو ما يقارب ملأَها.

قوله: (ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا) شرطٌ ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى، وذلك هو القلب السليم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨،٨٩].

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بِقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة - إلى أن قال - فإن كمُل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه؛ وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية، فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله: محبة وتعظيمًا، وإجلالًا ومهابة، وخشية وتوكلًا، وحينئذ تُحرق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زبد البحر. اهـ ملخصًا.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى - في معنى الحديث -: ويُعفى لأهل التوحيد المحض - الذي لم يشوبه بالشرك - ما لا يُعفى لمن ليس كذلك. فلو لقي الموحد - الذي لم يشرك بالله شيئًا البتة - ربّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة؛ ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده. فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه؛ وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب

. . . .

الأرض، فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي. اهـ.

وفي هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعَة كرم الله وجوده ورحمته والرد على الخوارج: الذين يكفّرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين: بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويُخلَّد في النار. والصواب: قول أهل السنة: إنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب، والسنة، وإجماع سلف الأمة. وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أُسريَ برسول الله ﷺ انتُهيَ به إلى سدرة المنتهى؛ فأُعطيَ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات». رواه مسلم.

قال ابن كثير - في تفسيره -: وأخرج الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والنسائي، عن أنس بن مالك قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦] وقال: قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتقىٰ فلا يُجعل معي إله؛ فمن اتقى أن يجعل معي إلهًا كان أهلًا أن أغفر له».

قال المصنف رحمه الله: (تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله: «لا إله إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين».

وفيه أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله» والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخفُّ ميزانُه. وفيه: إثبات الصفات خِلافًا للمعطلة. وفيه: أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله في حديث عتبان: «إن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلَّا الله يبتغي بذلك وجه الله» تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط. اهـ.

❊ ❊ ❊

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول: «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ» وتبيَّن لك خطأ المغرورين.[١]

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.[٢]

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلَّا الله.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممَّن يقولها يَخِفُّ ميزانُه.

العاشرة: النصّ على أن الأرضين سبع كالسمٰوات.

الحادية عشرة: أن لهن عُمَّارًا.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فَإِنَّ اللهَ حَرمَ عَلى النَّارِ مَنْ قالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذٰلِكَ وَجْهَ اللهِ» إنه ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

---

(١) كثير من الناس يخطئون في فهم أحاديث: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة» فيظنون بأن التلفظ بها يكفي وحده للنجاة من النار ودخول الجنة وليس كذلك فإن من يظن ذلك من المغرورين لهم يفهم «لا إله إلا الله» لأنه لم يتدبرها، إذ أن حقيقة معناها: البراءة من كل معبود، والتعهد بتجريد كل أنواع العبادة لله سبحانه وحده، والقيام بها على الوجه الذي يحبه ويرضاه. فمن لم يقم بحقها من العبادة؛ أو قام ببعض أنواع العبادة ثم عبد مع الله غيره من دعاء الأولياء والصالحين والنذر لهم ونحو ذلك فإنه يكون هادمًا لها. فلا تنفعه دعواه ولا تغني عنه شيئًا. ولو كان مجرّد قولها كافيًا لم يقع من المشركين ما وقع من محاربة الرسول ﷺ ومعاداته. قال الله تعالى ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ٩] - وقال - ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦] فمن لم يوف بها ويعمل بمقتضاها لا ينفعه التلفظ. وكل من جعل شيئًا من أنواع العبادة لغير الله فهو إما جاهل بمعناه أو كاذب في ادعائه الإيمان، وأولئك هم المغرورون «الأخسرون أعمالًا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا».

(٢) هو قوله: «يبتغي بها وجه الله» ومن قالها يبتغي بها وجه الله لا بد أن يعمل ويخلص عمله لله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه.
السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.
الثامنة عشرة: معرفة قوله: «عَلى مَا كانَ مِنَ العَمَلِ».
التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.
العشرون: معرفة ذكر الوجه.

* * *

٢ - باب
مَن حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

قوله: (باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب) أي: ولا عذاب.

قلت: تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي(١).

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وُصِفَ إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغايةُ في تحقيق التوحيد:

الأولى: أنه كان أمة؛ أي: قدوةً وإمامًا معلِّمًا للخير، وما ذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللذين تُنال بهما الإمامة في الدين.

الثانية: قوله: ﴿قَانِتًا﴾ قال شيخ الإسلام: القنوت دوام الطاعة. والمصلي إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت. قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] اهـ ملخصًا.

الثالثة: أنه كان حنيفًا. قلت: قال العلَّامة ابن القيم: «الحنيف» المقبل على الله، المعرض عن كل ما سواه. اهـ.

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أي: لصحة إخلاصه وكمال صدقه، وبُعده عن الشرك(٢).

---

(١) في قرة العيون: وتحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخالص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه كما قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] بفتح اللام، وفي قراءة: (المخلصين) بكسرها؛ وهم في صدر هذه الأمة كثيرون، وفي آخرها هم الغرباء؛ وقد قلوا. وهم الأعظمون قدرًا عند الله. وقال تعالى عن خليله عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩] أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي للذي فطر السموات والأرض أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿حَنِيفًا﴾ أي: في حال كوني حنيفًا أي: مائلًا عن الشرك إلى التوحيد. ولهذا قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ونظائر هذه الآية في القرآن كثير، كقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في الآية: يقول تعالى مخبرًا عمن أسلم وجهه لله أي: أخلص له العمل وانقاد لأوامره واتبع شرعه، ولهذا قال ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: في عمله واتباع ما أمر به وترك ما عنه زجر؛ فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك والبراءة منه وممن فعله، كما تقدم في الباب قبل هذا.

(٢) قال العلَّامة ابن القيم - رحمه الله - في مفتاح دار السعادة في الوجه ١٤٧ من فضل العلم: أن الله أثنى على إبراهيم خليله بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ - الآية فهذه أربعة أنواع من الثناء؛ افتتحها بأنه «أمة» وهو القدوة الذي يؤتم به. قال ابن

. . . .

قلت: يوضح هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] أي: على دينه من إخوانه المرسلين، قاله ابن جرير رحمه الله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزر: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ۝ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩] فهذا هو تحقيق التوحيد، وهو البراءةُ من الشرك وأهله واعتزالُهم؛ والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم. فالله المستعان.

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترفين: ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يمينًا ولا شمالًا، كفعل العلماء المفتونين: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ خلافًا لمن كَثّر سوادهم، وزعم أنه من المسلمين. اهـ.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على الإسلام. ولم يك في زمانه أحد على الإسلام غيره.

قلت: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم: من أنه كان إمامًا يُقتدى به في الخير.

قال: وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ وَٱلَّذِينَ

مسعود: «الأمة: المعلم للخير» وهي فُعلة - بضم الفاء - من الائتمام كالقدوة، وهو الذي يقتدى به. والفرق بين «الأمة» و«الإمام» من وجهين:

أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به، سواء كان بقصده وشعوره أو لا، ومنه سمي الطريق إمامًا. كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٨، ٧٩] أي: بطريق واضح لا يخفى على السالك، ولا يسمى الطريق أمة.

الثاني: أي: «الأمة» فيه زيادة معنى، وهو الذي جمع صفات الكمال في العلم والعمل، وهو الذي بقي فيها فردًا وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه؛ وتفرقها أو عدمها في غيره، ولفظ «الأمة» يشعر بهذا المعنى، لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها، وكذلك ضم أوله. فإن الضمة من الواو، ومخرجها فيضم عند النطق بها. وأتى بالتاء الدالة على الوحدة كالغرفة واللقمة. ومنه الحديث: «إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده» فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة. ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم، لأنهم الناس المجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد الثاني: قوله: ﴿قَانِتًا﴾ قال ابن مسعود: «القانت»: المطيع. والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.

الثالث: قوله: «حنيفًا» والحنيف: المقبل على الله. ويلزم من هذا المعنى ميله عما سواه، فالميل لازم معنى الحنيف؛ لا أنه موضوعه لغة.

. . . .

هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[1] [المؤمنون: ٥٧-٥٩].

وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمُها: أنهم بربهم لا يشركون. ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يَقْدحُ في إسلامه: من شرك جَليٍّ أو خفي، نفى ذلك عنهم، وهذا هو تحقيق التوحيد، الذي حَسُنت بهم أعمالهم وكَمُلت ونفعَتْهم.

قلت: قوله: «وحَسُنَت وكَمُلَت» هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر؛ وأما الشرك الأكبر، فلا يقال في تركه ذلك، فتدبر. ولو قال الشارح: صحت لكان أقوم.

قال ابن كثير: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا يعبدون مع الله غيره، بل يوحدونه

الرابع: قوله: «شاكرًا لأنعمه» والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان: الإقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها؛ وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب. فلا يكون العبد شاكرًا إلا بهذه الثلاثة. والمقصود: أنه سبحانه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره؛ فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه. اهـ.

وقال في قرة العيون: قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء: بتبرئته من المشركين ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية. و«الأمة»: هو الإمام الذي يقتدى به. و«القانت»: هو الخاشع المطيع، والحنيف: المنحرف قصدًا عن الشرك إلى التوحيد، ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال مجاهد: كان إبراهيم أمةً أي: مؤمنًا وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار.

قلت: وكلا القولين حق. فقد كان الخليل عليه السلام كذلك. وقول مجاهد - والله أعلم - لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته ونبوته ورسالته عليه السلام، فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤١، ٤٢] وقوله: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤] الآيات فهذا والله أعلم كان في ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام ولم يكن إذ ذاك على وجه الأرض مسلم غيره. وبذلك جاء الحديث.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته وكسر الأصنام، وصبر على ما أصابه في ذات الله. وهذا هو تحقيق التوحيد وهو أساس الدين ورأسه. كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] وأنت تجد أكثر من يقول: «لا إله إلا الله» ويدعي الإسلام يفعل الشرك بالله في عبادته بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم؛ ويحبهم ويواليهم، ويخافهم ويرجوهم، وينكر على من دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة، ويعادي من عمل به وأحبه وأنكر الشرك وأبغضه، وبعضهم لا يعد التوحيد علمًا ولا يلتفت إليه لجهله به وعدم محبته فالله المستعان.

(١) في قرة العيون: قال العماد ابن كثير؛ أي: مع إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، وخائفون وجلون من مكره بهم؛ كما قال الحسن البصري: «المؤمن من جمع إحسانًا وشفقًا، والمنافق من جمع إساءة وأمنا». ﴿وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨] أي: يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية لقوله تعالى عن مريم: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] أي: أيقنت أن ما كان فهو من قدر الله وقضائه، وما شرعه الله إن كان أمرًا فهو ما يحبه الله ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو ما يكرهه ويأباه، وإن كان خبرًا فهو حق.

وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩].

عن حُصَين بن عبد الرحمن قال: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْر فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأى الكَوْكَبَ الَّذي انْقَضَّ البارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنا، ثُمَّ قُلْتُ: ....

ويعلمون أنه: لا إله إلا أحد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا وأنه لا نظير له[١].

قال المصنف: (عن حُصين بن عبدالرحمن قال: كنت عند سَعيد بن جُبير، فقال: «أيُّكم رأى الكوكب الذي انْقضّ البارحة؟ فقلت: أنا. ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدِغتُ. قال: فما صنعتَ؟ قلت: ارتقيتُ. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحُصَيْب أنه قال: «لا رُقْية إلا من عينٍ أو حُمَة» قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَت عليّ الأمم، فرأيت النبيّ ومعه الرّهْطُ، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد. إذ رُفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»، ثم نَهضَ فدخل منزله؛ فخاض الناسُ في أولئك. فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ؛ وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء؛ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه؛ فقال: «هم الذين لا يَسْتَرْقُون ولا يَكْتَوون ولا يَتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكّاشة بن مِحصَن فقال: يارسول الله؛ ادْعُ الله أن يجعلني منهم، قال: «أنت منهم»؛ ثم قام رجل آخر فقال: ادْعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «سبقك بها عُكّاشة»).

هكذا أورده المصنف غير مَعزُوٍّ، وقد رواه البخاري مختصرًا ومطولًا، ومسلم، واللفظ له، والترمذي والنسائي.

قوله: (عن حصين بن عبدالرحمن) هو السلمي[٢]، أبو الهذيل الكوفي. ثقة، مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

وسعيد بن جبير: هو الإمام الفقيه من جلّة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة. وهو كوفي مولًى لبني أسَد، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين ولم يكمل الخمسين.

---

(١) في قرة العيون: فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد، ومعرفته على الحقيقة، ومحبته، وقبوله، والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦] وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه. وبالله التوفيق.

(٢) في قرة العيون: الحارثي، من تابعي التابعين. عن الشعبي.

أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، ولٰكِنِّي لُدِغْتُ، قالَ: فَما صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قالَ: فَما حَمَلَكَ عَلى ذٰلِكَ. قُلْتُ: حَديثٌ حَدَّثَناهُ الشَّعْبِيّ، قالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنا عَنْ

قوله: (انقض) هو بالقاف والضاد المعجمة أي: سقط. «والبارحة» هي أقرب ليلة مضت قال أبو العباس ثعلب: يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة، وكذا قال غيره، وهي مشتقة من بَرِح: إذا زال.

قوله: (أما إني لم أكن في صلاة) قال في مغني اللبيب: «أما» بالفتح والتخفيف، على وجهين: أحدهما: أن تكون حرف استفتاح بمنزلة «ألا» فإذا وقعت «أنّ» بعدها كُسِرَت. الثاني: أن تكون بمعنى حقًّا، أو أحق. وقال آخرون: هي كلمتان الهمزة للاستفهام و«ما» اسم بمعنى شيء، أي: أذلك الشيء حق، فالمعنى: أحق هذا؟ وهو الصواب. و«ما» نصب على الظرفية، وهذه تفتح «أنّ» بعدها. انتهى.

والأنسب هنا هو الوجه الأول، والقائل هو حصين؛ خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلي، فنفى عن نفسه إيهام العبادة، وهذا يدل على فضل السلف وحرصهم على الإخلاص وبعدهم عن الرياء والتزين بما ليس فيهم.

قوله: (ولكني لدغت) بضم أوله وكسر ثانيه، قال أهل اللغة: يقال لدغته العقرب وذوات السموم، إذا أصابته بسمها، وذلك بأن تأبره بشوْكتها.

قوله: (قلت: ارتقيت) لفظ مسلم: «استرقيت» أي: طلب من يرقاني.

قوله: (فما حملك على ذلك؟) فيه طلب الحجة على صحة المذهب.

قوله: (حديث حدثناه الشعبي) اسمه: عامر بن شُراحيل الهمداني، ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم[1] مات سنة ثلاث ومائة.

قوله: (عن بريدة) بضم أوله وفتح ثانيه، تصغير بردة. (ابن الحصيب) - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمي، صحابي شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد.

قوله: (لا رقية إلا من عين أو حمة) وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه مرفوعًا. ورواه أحمد وأبو داود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعًا قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.

(والعين) هي إصابة العائن غيره بعينه. (والحمة) - بضم المهملة وتخفيف الميم - سم العقرب وشبهها. قال الخطابي: ومعنى الحديث: لارقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة. وقد رَقي النبي ﷺ ورُقِي.

---

(١) روى عن عمر وعلي وابن مسعود ولم يسمع منهم، وعن أبي هريرة وعائشة وجرير وابن عباس وخلق. قال الشعبي: ما كتبت سوداء في بيضاء. يعني أنه كان معتنيًا بالحفظ.

بُرَيْدَةَ بْنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قالَ: «لا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أو حُمَةٍ» قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ومَعَهُ الرَّهْطَ، والنَّبِيَّ ومَعَهُ الرَّجُلُ والرَّجُلانِ، والنَّبِيَّ ولَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ.

إِذْ رفعَ لِي سَوادٌ عَظيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هٰذا موسَى وَقَوْمهُ، فَنَظَرْتُ

قوله: (قد أحسن من انتهى إلى ما سمع) أي: أخذ بما بلغه من العلم وعمل به فقد أحسن بخلاف من يعمل بجهل، أو لا يعمل بما يعلم فإنه مسيء آثم. وفيه فضيلة علم السلف، وحسن أدبهم[١].

قوله: (ولكن حدثنا ابن عباس) هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب، ابنُ عم النبي ﷺ، دعا له فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»[٢] فكان كذلك، مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف رحمه الله: وفيه عمق علم السلف لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

قوله: (عُرضت عليّ الأمم) وفي الترمذي والنسائي من رواية عبثَر بن القاسم عن حصين ابن عبدالرحمن: «أن ذلك كان ليلة الإسراء» قال الحافظ: فإن كان ذلك محفوظًا كان فيه لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه وقع بالمدينة أيضًا قلت: وفي هذا نظر[٣].

قوله: (فرأيت النبي ومعه الرهط) والذي في صحيح مسلم «الرُّهيط» بالتصغير لا غير؛ وهم الجماعة دون العشرة، قاله النووي.

قوله: (والنبي ومعه الرجل والرجلان؛ والنبي ليس معه أحد) فيه الرد على من احتج بالكثرة[٤].

---

(١) في قرة العيون: فيه حسن الأدب مع العلم وأهله، وأن من فعل شيئًا سئل عن مستنده في فعله هل كان مقتديًا أم لا؟ ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله، ولهذا ذكر ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم. فتفطن لهذا.

(٢) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه.

(٣) في قرة العيون: فالله أعلم متى عرضت، وعرضها أن الله تبارك وتعالى أراه مثالها إذا جاءت الأنبياء ومن تبعهم. فمن نجا بالإيمان بالله وما بعث به أنبياءه ورسله من دينه الذي شرعه لهم وهو عبادته وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه، والأخذ بما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه كما قال تعالى عن نوح: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢، ٣] فعبادته وتوحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، وطاعة رسوله. هذا هو الدين، ألا يعبد إلا الله، وألا يعبد الله إلا بما شرع؛ فعلًا وتركًا، وأن يقدم طاعة رسوله على ما يحبه ويهواه.

(٤) في قرة العيون: أي: يبعث في قومه فلا يتبعه منهم أحد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١٠، ١١] وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل والأكثرون غلبت عليهم الطبائع البشرية فعصوا الرسل فهلكوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ وقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير، والناجحون -

فَإِذا سَوادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هٰذِهِ أُمَّتكَ ومَعَهُمْ سَبْعونَ أَلْفًا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسابٍ ولَا عَذابٍ».

ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسولَ الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئًا، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا

قوله: (إذ رفع لي سواد عظيم) المراد هنا: الشخص الذي يُرى من بعيد.

قوله: (فظننت أنهم أمتي) لأن الأشخاص التي تُرى في الأفق لا يُدرك منها إلا الصورة. وفي صحيح مسلم: «ولكن انظر إلى الأفق» ولم يذكره المصنف، فلعله سقط في الأصل الذي نقل الحديث منه. والله أعلم.

قوله: (فقيل له: هذا موسى وقومه) أي: موسى بن عمران، كليم الرحمن، وقومه: أتباعه على دينه من بني إسرائيل[١].

قوله: (فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب) أي لتحقيقهم التوحيد، وفي رواية ابن فضيل «ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفًا» وفي حديث أبي هريرة في الصحيحين «أنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر» وروى الإمام أحمد والبيهقي في حديث أبي هريرة «فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفًا» قال الحافظ: وسنده جيد[٢].

قوله: (ثم نهض) أي: قام. قوله: (فخاض الناس في أولئك) خاض: بالخاء والضاد المعجمتين. وفي هذا إباحة المناظرة والمباحثة في نصوص الشرع، على وجه الاستفادة وبيان

وإن كانوا أقل القليل – فهم السواد الأعظم، فإنهم الأعظمون قدرًا عند الله. وإن قلُّوا. فليحذر المسلم أن يغتر بالكثرة وقد اغتر بهم كثيرون حتى بعض من يدعي العلم. اعتقدوا في دينهم ما يعتقده الجهال الضُّلَّال ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله.

(١) في قرة العيون: فيه فضيلة اتباع موسى من بني إسرائيل ممن آمن منهم بالرسل والكتب التي أنزلها الله: التوراة، والإنجيل والزبور والفرقان وغيرها. وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود، وهذا الحديث يدل على أن التابع لموسى عليه السلام كثيرون جدًّا، وقد قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] أي: في زمانهم. وذلك أن في زمانهم وقبله ممن كفر بالله خلقا لا يحصيهم إلا الله؛ كحزب جالوت وبختنصر وأمثالهم؛ ففضل الله بني إسرائيل بالإيمان فصاروا أفضل أهل زمانهم. وحدث فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم في دينهم، وقد ذكره الله تعالى محتجًّا به على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ. فتدبر ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف.

(٢) في قرة العيون: فيه فضيلة هذه الأمة وأنهم أكثر الأمم تابعًا لنبيهم ﷺ وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم فملأوا القرى والأمصار والقفار، وكثر فيهم العلم، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضّلة؛ وقد قلوا في آخر الزمان. قال شيخنا رحمه الله تعالى في مسائله: وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية، فالكمية: كثرة العدد، والكيفية: فضيلتهم في صفاتهم.

يَسْترقون: ولا يكتوون ....

الحق، وفيه: عُمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل. وفيه: حرصهم على الخير. ذكره المصنف[(١)].

قوله: (فقال هم الذين لا يسترْقون) هكذا ثبت في الصحيحين وهو كذلك في حديث ابن مسعود في مسند أحمد. وفي رواية لمسلم: «ولا يرقون» قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الزيادة وهم من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «لا يرقون» وقد قال النبي ﷺ وقد سئل عن الرُّقىٰ: «من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»[(٢)]:

وقال: «لا بأس بالرُّقىٰ ما لم تكن شركًا»[(٣)] قال: وأيضًا، فقد رقى جبريل النبي ﷺ ورقى النبي ﷺ أصحابه[(٤)] قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن. قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفًا بتمام التوكل؛ فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم. وكذا قال ابن القيم[(٥)].

قوله: (ولا يكتوون) أي: لا يسألون غيرهم أن يكويهم كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم؛ استسلامًا للقضاء، وتلذذًا بالبلاء.

قلت: والظاهر أن قوله: «لا يكتوون» أعم من أن يسألوا ذلك أو يُفعل ذلك باختيارهم. أما الكي في نفسه فجائز، كما في الصحيح عن جابر بن عبد الله: «أن النبي ﷺ بعث إلى أُبي ابن كعب طبيبًا فقطع له عِرقًا وكواه».

وفي صحيح البخاري - عن أنس -: «أنه كوي من ذات الجنب[(٦)] والنبي ﷺ حي» وروى الترمذي وغيره - عن أنس -: «أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة»[(٧)].

---

(١) في قرة العيون: وفيه أيضًا فضل الصحابة رضي الله عنهم في مذاكرتهم العلم، وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم ﷺ حرصًا على العمل به، وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل، لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم، لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه، بل يقال: لعل الحكم كذا وكذا كقول الصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث.

(٢) رواه مسلم والإمام أحمد وابن ماجه عن جابر رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم وأبو داود عن عوف بن مالك.

(٤) رقى جبريلُ النبي ﷺ من السحر؛ كما في البخاري من حديث عائشة. وقد ثبت في البخاري وغيره رقى كثيرة من قول النبيﷺ عن عائشة وأنس وابن مسعود وغيرهم.

(٥) في قرة العيون: فتركوا الشرك رأسًا، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي وإن كان يراد للشفاء، والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله؛ وتفويضهم أمورهم إليه، وألا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه. فلا يرغبون إلا إلى ربهم، ولا يرهبون إلا منه، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم. قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

(٦) قال في النهاية. ذات الجنب: الدمل الكبيرة التي تظهر في باطن الجنب وينفجر إلى داخل، وقلما يسلم صاحبها اهـ. ولعلها: السل والله أعلم.

(٧) قال في النهاية، الشوكة: حمرة تعلو الوجه والجسد.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعًا: «الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيّة نار، وأنا أنهي أمتي عن الكي» وفي لفظ «وما أحب أن أكتوي».

قال ابن القيم رحمه الله: قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع أحدها: فِعله والثاني: عدم محبته والثالث: الثناء على من تركه والرابع: النهي عنه، ولا تعارُض بينها بحمد الله، فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة.

قوله: (ولا يتطيرون) أي: لا يتشاءمون بالطيور ونحوها. وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها.

قوله: (وعلى ربهم يتوكلون) ذكر الأصلَ الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله، وصدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه؛ الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يمثر كل مقام شريف: من المحبة والرجاء والخوف، والرضا به ربًّا وإلهًا، والرضا بقضائه.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلًا، فإن مباشرة الأسباب - في الجملة - أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه؛ بل نفس التوكل: مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٦٥] أي: كافيه. وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها؛ توكلًا على الله تعالى، كالاكتواء والاسترقاء، فترْكهم له لكونه سببًا مكروهًا، لا سيما والمريض يتشبث - فيما يظنه سببًا لشفائه - بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب والتداوي - على وجه لا كراهة فيه - فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعًا، لما في الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعًا «ما أنزل الله من داء لا أنزل له شفاء، عَلِمه مَن علمه، وجهله من جهله» وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب؛ فقالوا: يارسول الله أنتداوى؟ قال: «نعم. ياعباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد قالوا: وما هو؟ قال: الهرم» رواه أحمد.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات؛ وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي؛ وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، والحر والبرد: بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدرًا وشرعًا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل؛ كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن ترْكها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته

فقام عُكّاشة بن محصن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: أنت منهم ثم قام رجلٌ آخر فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال: سبقك بها عكّاشة».

اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه؛ ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلًا، ولا توكله عجزًا.

وقد اختلف العلماء في التداوي؛ هل هو مباح، وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟.

فالمشهور عن أحمد: الأول لهذا الحديث وما في معناه، والمشهور عند الشافعية الثاني، حتى ذكر النووي - في شرح مسلم -: أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف، واختاره الوزير أبو المظفر قال: ومذهب أبي حنيفة: أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب. قال: ومذهب مالك: أنه يستوفي فعله وتركه فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه.

وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

فقوله: (فقام عكاشة بن محصن) هو بضم العين وتشديد الكاف. ومحصن بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين، ابن حُرثان - بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة - الأسدي: من بني أسد بن خزيمة. كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال، هاجر وشهد بدرًا وقاتل فيها، واستشهد في قتال الردَّة مع خالد بن الوليد بيد طُليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفُرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص، واستشهد في وقعة الجسر المشهورة.

قوله: (فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال أنت منهم) وللبخاري في رواية: «فقال اللهم اجعله منهم» وفيه: طلب الدعاء من الفاضل[١].

قوله: (ثم قام رجل آخر) ذكره مبهمًا ولا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه[٢].

---

(١) في قرة العيون: فيه أن شفاعة الحي لمن سأله الدعاء إنما كانت بدعائه، وبعد الموت، قد تعذَّر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة، فمن سأل ميتًا أو غائبًا فقد سأله ما لا يقدر عليه إلا الله، وكل من سأل أحدًا ما لا يقدر عليه إلا الله فقد جعله ندًّا لله كما كان المشركون كذلك، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] إنه ربكم وخالقكم ومن قبلكم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة فلا ترغبوا عنه إلى غيره، بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليل أو أكثر.

وقوله: أنت منهم، لما كان يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده كما في الحديث: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم».

(٢) في قرة العيون: والظاهر أنه أراد صلوات الله وسلامه عليه سد الذريعة لئلا يتتابع الناس بسؤال ذلك فيسأله من ليس أهلًا له. وذلك منه ﷺ تعريض كما لا يخفى.

فيه مسائل:

الأولى: معرفةُ مراتبِ الناسِ في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كونُ ترك الرُّقيةِ والْكيِّ من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عُمْقُ عِلم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمِّية والْكيْفيّة.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرضُ الأمم عليه عليه السلام.

الثانية عشرة: أن كل أُمة تُحشَرُ وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلّةُ من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أنّ من لم يجبْه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدمُ الاغترار بالكثرةِ، وعدم الزُّهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخْصةُ في الرُّقْيةِ من العين والحُمَة.

السابعة عشرة: عمقُ علم السلف لقوله: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالفُ الثاني.

قوله: (فقال: سبقك بها عكاشة) قال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة، فلذلك لم يجبه، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضرًا فيتسلسل الأمر، فسدّ الباب بقوله ذلك. اهـ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.

الثامنة عشرة: بُعد السلفِ عن مَدْح الإنسان بما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «أَنْتَ مِنْهُمْ» عَلَمٌ من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خُلُقِهِ ﷺ.

٣ - باب
الخوف من الشرك

وقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

قوله: (باب الخوف من الشرك)

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه: ﴿لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ أي: لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ أي: من الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهى.

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب، لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه. وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي شأنه عند الله، لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم، وتنقُّص لرب العالمين؛ وصرف خالص حقه لغيره؛ وعدلُ غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]، ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، مناف له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته؛ والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: «ولا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله» رواه مسلم. ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى ومشاركة في خصائص الإلهية: من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء والخوف والرجاء، والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده، فمن علّق ذلك بمخلوق فقد شبّهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، شبيهًا بمن له الحمد كله، وله الخلق كله، وله الملك كله؛ وإليه يرجع الأمر كله، وبيده الخير كله؛ فأزمّة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا مانع لما أعطى ولا مُعطِي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. فأقبح التشبيه: تشبيه العاجز الفقير بالذات: بالقادر الغني الذات. ومن خصائص الإلهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكل والتوبة والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل. كل ذلك يجب عقلًا وشرعًا وفطرةً أن يكون لله وحده؛ ويمتنع عقلًا وشرعًا وفطرة أن يكون لغيره. فمن فعل شيئًا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا مثيل له،

قال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ولا ند له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله. لهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله.

وفي الآية رد على الخوارج المكفرين بالذنوب. وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلدون في النار؛ وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار.

ولا يجوز أن يُحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ على التائب، فإن التائب من الشرك مغفور له كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فهنا عمم وأطلق، لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلّق، لأن المراد به من لم يتب. هذا ملخص قول شيخ الإسلام[١].

قوله: (وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾) [إبراهيم: ٣٥] الصنم ما كان منحوتًا على صورة، والوثن ما كان موضوعًا على غير ذلك. ذكره الطبري عن مجاهد.

قلت: وقد يسمى الصنم وثنًا كما قال الخليل[٢] عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ الآية [العنكبوت: ١٧] ويقال: إن الوثن أعم، وهو قوي، فالأصنام أوثان، كما أن القبور أوثان.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ أي: اجعلني وبني في جانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وجعل بنيه أنبياء، وجنّبهم عبادة الأصنام. وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ فإنه هو الواقع في كل زمان. فإذا عرف الإنسان أن كثيرًا وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال إبراهيم التيمي: من يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يُخلِّصه منه: من العلم بالله وبما

---

(١) في قرة العيون: قال النووي رحمه الله تعالى: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مُصِر عليها ومات على ذلك، فهو تحت المشيئة فإن عُفِيَ عنه دخل الجنة أولًا وإلّا عُذِّب في النار ثم أُخْرِجَ منها وأُدخِلَ الجنةَ. اهـ. قلت: هذا قول أهل السنة والجماعة؛ لا اختلاف بينهم في ذلك. وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك، لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيد، ثم قال: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فخصص وقيد فيما دون الشرك، بهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمل أن يقع فيه فلا يرجى له معه نجاة، إن لم يتب منه قبل الوفاة.

(٢) الخلة: أخص من المحبة، ولذلك اختص الله بها الخليلين: إبراهيم ومحمدًا عليهما من الله أفضل الصلاة والسلام. ويقول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا أحدًا خليلًا لاتخذت أبا بكر ولكن الله اتخذني خليلًا» رواه البخاري.

وفي الحديث: «أَخوفُ ما أَخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقالَ: الرِّياء»

بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به[1].

قال المصنف: (وفي الحديث «أخوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فَسُئِلَ عنه فقال: الرياء») أورد المصنف هذا الحديث مختصرًا غير معزو. وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي. وهذا لفظ أحمد: حدثنا يونس حدثنا ليث عن يزيد - يعني ابن الهاد - عن عمرو عن محمود بن لَبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: الرياء. يقول الله تعالى يوم القيامة، إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟».

قال المنذري: ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ ولم يصح له منه سماع فيما أرى. وذكر ابن أبي حاتم أن البخاري قال: له صحبة، ورجحه ابن عبد البر والحافظ. وقد رواه الطبراني بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج، مات محمود سنة ست وتسعين، وقيل سنة سبع وتسعين وله تسع وتسعون سنة.

قوله: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به؛ ولا شر إلا بيّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه؛

(١) في قرة العيون: فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة واحدة، وابتلاه بكلمات فأتمهن، وقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٧] وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه، وكسر الأصنام واشتد نكيره على أهل الشرك، ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام، لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدايته وتوفيقه، لا بحوله هو وقوته.

فهذا أمر لا يؤمن الوقوع فيه؛ وقد وقع فيه الأذكياء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة فاتخذت الأوثان وعبدت، فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثر الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور؛ وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتخذ ذلك دينًا، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم. فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم، بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عده فذكر عليه السلام السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبله وبعده. فمن تدبر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه والوعيد على فعله، والثواب على تركه. وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه. نسأل الله الثبات على الإسلام والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم؛ وقال تعالى عن عيسى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨] رد أمرهم إلى الله كما رده محمد عليه السلام، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم فلا معارضة؛ وقد بين حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. اهـ.

فإن أكثر الناس يعتقدون أن الأقطاب الأربعة وعلى رأسهم القطب الغوث يتصرفون في الكون بالإحياء والإماتة والرزق والضر والنفع. وإن مجلس أوليائهم تعرض عليه شؤون العالم. اقرأ كتاب الشعراني، و«الإبريز» للدباغ،

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله قال: «مَنْ ماتَ وَهُوَ يَدْعو مِنْ دونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» رواه البخاري

كما قال ﷺ - فيما صح عنه -: «ما بعث الله من نبيٍّ إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم... الحديث» فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟ خصوصًا إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون، وما عرفوا معنى الإلهية التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله[١].

وأخرج أبو يعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «الشرك أخفى من دبيب النمل. قال أبو بكر: يارسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله أو ما دُعِيَ مع الله؟ قال: ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل» الحديث. وفيه: «أن تقول أعطاني الله وفلان، والند: أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان» اهـ من الدُّر.

قال المصنف: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار» رواه البخاري)[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: الند الشبيه، يقال: فلان نِد فلانٍ، ونديده، أي: مثله وشبيهه اهـ.

قال تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: (من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا) أي يجعل لله ندًّا في العبادة، يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار. قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

وكتب التيجانية وغيرها من كتب أولئك الضالين المضلين؛ تجد الشرك الذي ما كان يخطر على بال أبي جهل وإخوانه، لأنهم لم يكونوا بوقاحة هؤلاء وفجورهم.

(١) في قرة العيون: فإذا كان يخافه ﷺ على أصحابه الذين وحدوا الله بالعبادة ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته فهاجروا وجاهدوا من كفر به؛ وعرفوا ما دعاهم إليه نبيهم، وما أنزل الله في كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك؛ فكيف لا يخاف من لا نسبة له إليهم في علم ولا عمل مما هو أكبر من ذلك؟ وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره: «حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان» وقد جرى ما أخبر به ﷺ وعمت به البلوى في أكثر الأقطار حتى اتخذوه دينًا مع ظهور الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] وقال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١] وهذا هو تحقيق التوحيد كما تقدم في الباب قبله. ثم قال تعالى محذرًا عباده من الشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] ومن لم تخوفه هذه الآيات وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدبرها فلا حيلة فيه.

(٢) في قرة العيون: وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك أيضًا والتخويف منه - والند: المثل والشبيه، فمن دعا ميتًا أو غائبًا وأقبل عليه بوجهه وقلبه رغبة إليه ورهبة منه سواء سأله أو لم يسأله فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله، ولهذا حرَّم الله تعالى اتخاذ الشفعاء وأنكره على من فعل ذلك أشد الإنكار لكونه ينافي الإخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه للشفيع في كل ما يخافه العبد ويرجوه ويتقرّب به ويدين به. ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى، وذلك ينافي الإخلاص. ويأتي بيان ذلك في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، ومَنْ لَقِيَهُ يشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

والشرك فاحذره، فشرك ظاهر ذا القِسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيًّـ ـا كان، من حَجَر ومن إنسان
يدعوه، أو يرجوه، ثم يخافه ويحبه كمحبة الديّان

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين:

الأول: أن يجعله لله شريكًا في أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم، وهو شرك أكبر.

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله وشئت ولولا الله وأنت. وكيسير الرياء؛ فقد ثبت: أن النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت؛ قال: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده» رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الأدب المفرد والنسائي وابن ماجه. وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد.

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي، كطلب الشفاعة من الأموات، فإنها ملك لله تعالى وبيده، ليس بيد غيره منها شيء، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة. ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»).

جابر: هو ابن عبدالله بن عمرو بن حَرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السَّلَمي - بفتحتين - صحابي جليل هو وأبوه، ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما[1] مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كُفّ بصره، وله أربع وتسعون [سنة].

قوله: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا) قال القرطبي: أي: لم يتخذ معه شريكًا في الإلهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة. ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة: أن من مات على ذلك فلا بد له من دخول الجنة، وإن أجريت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة. وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد؛ من غير انقطاع عذاب ولا تصرُّم آماد.

وقال النووي: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلَّد فيها، ولا فرق

---

(١) كان عبدالله - والد جابر - من الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة العقبة وجعله النبي ﷺ نقيب بني سلمة. ثم حضر بدرًا. وقُتِل يوم أحد، فأخذ يبكي عليه ولده جابر وأخته فاطمة بنت عمرو فقال رسول الله ﷺ: «تبكيه أو لا تبكينه، لا زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه».

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياءَ من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوفُ ما يُخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قُرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعة: أنه مَنْ لقيه لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة. ومن لَقيَه يُشرِك به شيئًا دخل النار، ولو كان من أعبدِ الناسِ.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤالُ الخليل له وَلِبنيه وقايَةَ عبادَةِ الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

العاشرة: فيه تفسير «لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ»، كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سَلِمَ من الشرك.

فيه بين الكتابي: - اليهودي والنصراني - وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق - عند أهل الحق - بين الكافر عنادًا وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حُكم بكفره، بجحده وغير ذلك[1]. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به. لكن إن لم يكن صاحب كبيرة، مات مُصِرًّا عليها، دخل الجنة أولًا، وإن كان صاحب كبيرة مات مُصِرًّا عليها فهو تحت المشيئة. فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولًا، وإلا عُذِّب في النار ثم أُخْرِجَ منها وأُدْخِلَ الجنة.

وقال غيره: اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء؛ واستدعائه إثبات [الرسالة] باللزوم. إذ من كذّب رسل الله فقد كذّب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته. أي: مع سائر الشروط؛ فالمراد: من مات حال كونه مؤمنًا بجميع ما يجب الإيمان به إجمالًا في الإجمالي وتفصيلًا في التفصيلي[2]. انتهى.

* * *

(١) يعني أنهم مستوون في الخلود في النار، ولكنهم متفاوتون في دركاتها. ولا يظلم ربك أحدًا مثقال ذرة.

(٢) يعني خالطت حلاوة هذا الإيمان بشاشة قلبه فأثمرت الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، وإلا فكم من مُدَّعٍ لهذا الإيمان الإجمالي والتفصيلي وهو عري عنه إجمالًا وتفصيلًا.

٤ - باب
الدعاء إلى شهادة لا إله إلا الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قوله: (باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلّا الله)

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد وفضله؛ وما يوجب الخوف من ضده. نبّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة. كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم، كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣] فقال: «هذا حبيب الله، هذا ولي الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله، أجاب الله في دعوته. ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحًا في إجابته وقال: إنني من المسلمين. هذا خليفة الله»(١).

قال رحمه الله: (وقوله ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾) [يوسف: ١٠٨].

قال أبو جعفر بن جرير: يقول تعالى - ذكره لنبيه - محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾: الدعوة التي أدعو إليها؛ والطريقة التي أنا عليها: من الدعاء إلى توحيد الله، وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان. والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِيٓ﴾: طريقتي، ودعوتي. ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ تعالى وحده لا شريك له. ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقين علم مني به. ﴿أَنَا۠﴾ يدعو إليه على بصيرة أيضًا ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ وصدقني وآمن بي ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يقول له - تعالى ذكره -: وقل. تنزيهًا لله تعالى وتعظيمًا له من أن يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به. لست منهم ولا هم مني. انتهى.

قال في شرح المنازل: يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي: البصيرة

---

(١) ذكره العماد ابن كثير في تفسير الآية: ٣٣، من سورة فصلت عن عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري رحمه الله. ويعني الحسن بذلك: أن الصدق في حب الله وعبادته وطاعته يستلزم - ولا بدّ - الدعوة إلى ذلك والجهاد فيه. لأن من أحب الله أحبّ كل ما أحبه الله وكل من أحب الله وكره كل ما كره ومن كره، وأحب أن يكون الناس كلهم معه في حب الله.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ لَما بَعَثَ معاذًا إِلى اليَمَنِ قالَ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ فَليكُنْ أَوَّلَ ما تَدْعوهُمْ إِلَيْهِ شَهادَةَ أَنْ لَا إِلٰه إِلَّا الله».

التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة، وهي أعلى درجات العلماء.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ أي أنا وأتباعي على بصيرة. وقيل ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ عطف على المرفوع في ﴿أَدْعُوٓاْ﴾ أي: أنا أدعو إلى الله على بصيرة؛ ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة. وعلى القولين: فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

قال المصنف رحمه الله: (فيه مسائل: منها التنبيه على الإخلاص، لأن كثيرًا - ولو دعا إلى **الحق** - فهو يدعو إلى نفسه، ومنها: أن البصيرة من الفرائض، ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه لله تعالى عن المسبة. ومنها: أن مِن قُبح الشرك كونَه مَسبةً لله تعالى. ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لا يصير منهم، ولو لم يشرك) اهـ.

وقال العلَّامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِۖ﴾ الآية [النحل: ١٢٥]: ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو؛ إنه: إما أن يكون طالبًا للحق مُحِبًّا له، مُؤثِرًا له على غيره إذا عرفه. فهذا يُدعَى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال، وإما أن يكون مشتغلًا بضد **الحق**، لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون مُعَاندًا معارضًا، فهذا يُجادَل بالتي هي أحسن، فإن رجع وإلا انتُقلَ معه إلى الجدال إن أمكن. انتهى.

قال: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ لما بعث مُعَاذًا إلى اليمن قال: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب. فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله - فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة. فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم. فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتّق دعوة المظلوم. فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه).

قال الحافظ: كان بَعْثُ مُعَاذٍ إلى اليمن سنة عشر، قبل حج النبي ﷺ كما ذكره المصنف - يعني البخاريَّ في أواخر المغازي - وقيل: كان ذلك في آخر سنة تسع عند منصرفه ﷺ من تبوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك. وأخرجه ابن سعد في الطبقات عنه، واتفقوا

وفي رواية «إِلى أَنْ يُوحِّدوا اللهَ - . . . .

على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم توجه إلى الشام فمات بها.

قال شيخ الإسلام: ومن فضائل معاذ رضي الله عنه أنه أتى إلى اليمن مُبلِّغًا عنه ﷺ. ومُفقِّهًا ومعلمًا وحاكِمًا.

قوله: (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب) قال القرطبي: يعني به اليهودَ والنصارى؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب. وإنما نبهه على ذلك ليتهيأ لمناظرتهم.

وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية لجمع همّته عليها.

قوله: (فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله)[1] «شهادة» رفع على أنه اسمُ «يكن» مؤخر. و«أول» خبرها، مقدم. ويجوز العكس.

قوله: (وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله) هذه الرواية ثابتة في كتاب التوحيد من صحيح البخاري. وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى «شهادة أن لا إله إلا الله» فإن معناها توحيد الله بالعبادة ونفي عبادة ما سواه. وفي رواية: «فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله» وذلك هو الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦] والعروة الوثقى هي: لا إله إلا الله وفي رواية للبخاري فقال: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله».

قلت: لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها؛

(١) في قرة العيون: وكانوا يقولونها لكنهم جهلوا معناها الذي دلّت عليه من إخلاص العبادة لله وحده وترك عبادة ما سواه، فكان قولهم: «لا إله إلا الله» لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة كحال أكثر المتأخرين من هذه الأمة، فإنهم كانوا يقولونها مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد؛ فيأتون بما ينافيها فيثبتون ما نفته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقرّ به المشركون؛ فلم يدخلهم في الإسلام كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ - إلى قوله - ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] وقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير. وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم؛ وأقر به أهل الجاهلية الذين بعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم في الإسلام، لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية، وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] فهذا التوحيد هو أصل الإسلام. وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠] وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣] وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب في القرآن كثير. وسنذكر بعض ذلك إن شاء الله في هذا التعليق.

. . . .

أحدها: العلم المنافي للجهل. الثاني: اليقين المنافي للشك. الثالث: القبول المنافي للرد. الرابع: الانقياد المنافي للترك. الخامس: الإخلاص المنافي للشرك. السادس: الصدق المنافي للكذب. السابع: المحبة المنافية لضدها.

وفيه دليل على أن التوحيد - الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه - هو أول واجب. ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [المؤمنون: ٣٢] وقال نوح: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١] وفيه معنى لا إله إلا الله مطابقة[١].

قال شيخ الإسلام: وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة: أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلمًا، والعدو وليًّا، والمباح دمه وماله: معصوم الدم والمال. ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان. قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطنًا وظاهرًا، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء اهـ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفيه: أن الإنسان قد يكون عالمًا[٢] وهو لا يعرف

---

(١) في قرة العيون: وأما قول المتكلمين ومن تبعهم: إن أول واجب: معرفة الله بالنظر والاستدلال فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده، ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: لا تعبدوا إلا الله. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: هذا يحتمل شيئين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرّده بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له. فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى اهـ.

قلت: وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول.

روى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر أنهم قالوا: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السمٰوات والأرض فهذا إيمانهم. وعن عكرمة أيضًا تسألهم من خلق السمٰوات والأرض؟ فيقولون: الله فذلك إيمانهم وهم يعبدون غيره. وتقدم أن «لا إله إلا الله» قد قيدت بالكتاب والسنة بقيود ثقال. منها: العلم واليقين والإخلاص والصدق والمحبة والقبول والانقياد، والكفر بما يعبد من دون الله. فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة؛ وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه؛ والناس متفاوتون في العلم بها والعمل؛ فمنهم من ينفعه قولها ومنهم من لا ينفعه. كما لا يخفى.

(٢) يعني عالمًا بعلوم الدنيا؛ أو عالمًا حافظًا لعلوم الدين ولكنها لا تمس قلبه ولا عقيدته لأنه تعلمها للدنيا وليقال: عالم. فهو محترف العلم؛ وقد يكون بارعًا حاذقًا في هذه الحرفة ولكنه لا ينتفع في نفسه بعلمه، لأن علمه في ناحية وعقيدته ودينه مع

فَإِنْ هُمْ أَطاعوكَ لِذٰلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَواتٍ في كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطاعوكَ لِذٰلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنيائِهِمْ فَتردُّ عَلى فُقَرائِهِم. فَإِنْ هُمْ أَطاعوكَ لِذٰلِكَ فإِيّاك وكَرائِمَ أَمْوالِهِم..............

معنى «لا إله إلا الله» أو يعرفه ولا يعمل به).

قلت: فما أكثر هؤلاء - لا كثّرهم الله تعالى.

قوله: (فإن هم أطاعوا لذلك) أي: شهدوا وانقادوا لذلك. (فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات) فيه: أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين. قال النووي ما معناه: إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام ولا يلزم من ذلك ألا يكونوا مخاطبين بها؛ ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة. والصحيح: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة: المأمور به والمنهي عنه. وهذا قول الأكثرين. اهـ.

قوله: (فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم)[1].

فيه: دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء، وإنما خص النبي ﷺ الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية.

وفيه: أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها: إما بنفسه أو نائبه، فمن امتنع عن أدائها إليه أخذت منه قهرًا.

وفي الحديث: دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد، كما هو مذهب مالك وأحمد.

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غني ولا إلى كافر غير المؤلَّف، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون، كما هو قول الجمهور، لعموم الحديث.

قلت: والفقير إذا أُفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره. كما قرره شيخ الإسلام.

قوله: (وإياك وكرائم أموالهم) بنصب «كرائم» على التحذير، جمع كريمة. قال صاحب المطالع: هي الجامعة للكمال الممكن في حقها: من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف. ذكره النووي.

تقليد العوام والجمهور في ناحية أخرى، وهذا حال أكثر العلماء الرسميين اليوم. أصلحهم الله.

(١) في قرة العيون: فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وحد الله وصلى الصلوات بشروطها وأركانها وواجباتها. والزكاة قرينة الصلوات في كتاب الله تعالى؛ ويدل على هذه الجملة قوله تعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥] فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعي إلى ذلك، لأن ذلك يقتضي الإتيان بها لزومًا. قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ﴾ [التوبة: ٥] قال أنس في الآية: «توبتهم: خلع الأوثان وعبادتهم ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» وعن ابن مسعود مرفوعًا: «أُمِرتُ بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن لم يزكِ فلا صلاةَ له».

واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلوم. فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَها وبَيْنَ اللهِ حِجاب» أخرجاه

قلت: وهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمنًا.

وفيه: أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال. بل يخرج الوسط، فإن طابت نفسه بالكريمة جاز[1].

قوله: (واتق دعوة المظلوم)[2] أي اجعل بينك وبينها وقاية بالعدل وترك الظلم، وهذان الأمران يقيان من رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى.

وفيه تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: (فإنه) أي الشأن (ليس بينها وبين الله حجاب) هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن، أي فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها.

وفي الحديث أيضًا قبول خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به. وبعْث الإمام العمال لجباية الزكاة. وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمرهم بتقوى الله تعالى؛ ويعلمهم؛ وينهاهم عن الظلم ويعرفهم سوء عاقبته. والتنبيه على التعليم بالتدريج. قاله المصنف.

قلت: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصوم والحج، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس: أن بعض الرواة اختصر الحديث وليس كذلك. فإن هذا طعن في الرواة. لأن ذلك إنما يقع في الحديث الواحد؛ مثل حديث وَفْد عبدالقيس[3] حيث ذكر بعضهم الصيام وبعضهم لم يذكره، فأما الحديثان المنفصلان فليس

(١) في قرة العيون: تحذير له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة، وهو أخذها من أوساط المال، لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة. وكل ما زاد على أوساط المال، لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة. وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه. وهذا أصل ينبغي التفطن له.

(٢) في قرة العيون: يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالمًا لمن أخذ ذلك منه؛ ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها.

فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه؛ فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق؛ ولا يحابي بترك شيء منه، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين، والله أعلم.

(٣) روى البخاري ومسلم عن ابن عباس: «أن عبد القيس وفدوا على النبي ﷺ فقال: «ممن القوم؟» فقالوا: من ربيعة. قال: مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى. فقالوا: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر؛ وإنا لا نصل إليك إلا في شهر حرام فمرنا بأمر فصل نأخذ به ونأمر به من وراءنا وندخل به الجنة. فقال: آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تعطوا الخمس من المغنم» الحديث، وكان وفد عبد القيس في سنة تسع(*).

(*) (وكان وفد عبد القيس في سنة تسع) في هذا نظر والأظهر أنهم وفدوا قبل فتح مكة لقولهم: (إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر) ومعلوم أن أهل مكة هم رؤوس كفار مضر وقادتها وقد أسلموا عام الفتح وذلك سنة ثمان، وقد استنبط الحافظ ابن كثير رحمه الله - في تاريخه البداية - هذا المعنى من هذا السياق والله أعلم.

ولهما عن سَهْل بن سَعْدٍ رضي الله عنه «أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قالَ يَوْمَ خَيْبَر: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ ورَسولَهُ ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلى يَدَيْه. فَباتَ النَّاسُ يَدُوكونَ لَيْلَتَهُمْ: أَيُّهُمْ يُعْطاها فَلَمَّا أَصْبَحوا غَدَوْا عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ، كُلُّهُمْ يَرْجو أَنْ

الأمر فيهما كذلك؛ ولكن عن هذا جوابان:

أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتين ثم الصلاة. فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي؛ ولهذا لم يذكر وجوب الحج؛ كعامة الأحاديث، إنما جاء في الأحاديث المتأخرة.

الجواب الثاني: أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه. فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها: كالصلاة والزكاة. ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم: فإما أن يكون قبل فرض الحج؛ وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه. وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائر الفرائض، ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما، لأنهما عبادتان ظاهرتان؛ بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد؛ فإن الإنسان يمكنه ألا ينوي الصوم وأن يأكل سرًّا، كما أن يكتم حدثه وجنابته، وهو يذاكر في الأعمال الظاهرة التي يقاتل الناس عليها ويصيرون مسلمين بفعلها. فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم، وإن كان واجبًا كما في آيتي براءة[1] نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذًا إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم، لأنه تبعٌ وهو باطن، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، ولا يجب في العمر إلا مرة. انتهى بمعناه[2].

قوله: (أخرجاه) أي البخاري ومسلم، وأخرجه أيضًا أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

قال: (ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال يوم خَيْبر: «لأُعطينَّ الرايةَ غدًا رجلًا يحبُّ الله ورسوله، ويُحبُّه اللهُ ورسولُه، يَفتحُ الله على يديه. فباتَ الناس يَدُوكون ليلتهم: أيُّهم يُعطاها. فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ؛ كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه. [قال]: فأرسلوا إليه، فأُتيَ

---

(١) هما قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥]. ومثلها الآية الحادية عشرة، وخاتمتها ﴿فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

(٢) ولعل الصواب ما أجاب به بعض العلماء من اختصار الراوي للحديث. وليس في ذلك طعن في الرواة، لأنهم كانوا يروون الحديث بحسب الظروف والمناسبات. فقد تكون المناسبة مقتضية لبعض الحديث فيقتصر على هذا البعض. وذلك كثير جدًا؛ كما تراه في البخاري وغيره؛ والله أعلم.

يُعْطاها، فَقالَ: أَيْنَ عَلِيّ بْن أَبي طالِب؟ فَقِيل: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْه. قالَ: فَأَرْسلوا إِلَيْه،

به، فبصق في [عينيه] ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وَجَع، فأعطاه الراية، قال: انْفُذْ على رِسلك حتى تنزلَ بساحتهم؛ ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهديَ الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْرِ النّعَم»).

«يدوكون» أي: يخوضون.

قوله: (عن سهل بن سعد) أي: ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي، أبي العباس صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضًا، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: (قال يوم خيبر) وفي الصحيحين عن سَلَمة بن الأكوع قال: كان علي رضي الله عنه قد تخلّف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان أرمد، فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟ فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي ﷺ فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عز وجل في صباحها قال ﷺ: «لأعطين الراية - أو ليأخذن الراية - غدًا رجل يحبه الله ورسوله - أو قال: يحب الله ورسوله - يفتح الله على يديه. فإذا نحن بعليّ وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه».

قوله: (لأعطين الراية) قال الحافظ: في رواية بُريدة: «إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله» وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، ولكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس: «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض». ومثله عند الطبراني عن بريدة. وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد: «مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

قوله (يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله) فيه فضيلة عظيمة لعلي رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصًا بعلي ولا بالأئمة، فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي، يحب الله ورسوله؛ لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحتجُّ به على النواصب الذين لا يتولونه، أو يكفّرونه أو يفسقونه، كالخوارج. لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول في علي مثل ذلك، ولكن هذا باطل، فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافرًا.

وفيه إثبات صفة المحبة [لله] خلافًا للجهمية ومن أخذ عنهم[١].

قوله: (يفتح الله على يديه) صريح في البشارة بحصول الفتح، فهو علم من أعلام النبوة.

---

(١) في قرة العيون: وفيه فضيلة لعلي رضي الله عنه بما خصّه من إعطاء الراية، ودعوته أهل خيبر إلى الإسلام؛ وقتالهم إذا لم يقبلوا. وفيه مشروعية الدعوة إلى الإسلام.

فَأُتِيَ بِهِ: فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ؛ وَدَعا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطاهُ الرَّايَةَ فَقالَ: انْفُذْ عَلى

قوله: (فبات الناس يدوكون ليلتهم) بنصب (ليلتهم) و«يدوكون» قال المصنف: يخوضون. أي: فيمن يدفعها إليه. وفيه حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان.

قوله: (أيهم) هو برفع «أي» على البناء لإضافتها وحذف صدر صلتها.

قوله: (فلما أصبحوا غَدَوْا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها) وفي رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذ».

قال شيخ الإسلام: إن في ذلك شهادة النبي ﷺ لعلي بإيمانه باطنًا وظاهرًا وإثباتًا لموالاته لله تعالى ورسوله ووجوب موالاة المؤمنين له، وإذا شهد النبي ﷺ لمعيّن بشهادة، أو دعا له؛ أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة ومثل ذلك الدعاء، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير ويدعو لخلق كثير؛ وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس[١] وعبدالله بن سلام[٢] وإن كان شهد بالجنة لآخرين؛ والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضُرب في الخمر[٣].

قوله: (فقال: أين علي بن أبي طالب) فيه سؤال الإمام عن رعيته؛ وتفقد أحوالهم.

قوله: (فقيل هو يشتكي عينيه) أي من الرمد، كما في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص فقال: «ادعو لي عليًّا فأُتي به أرمد» الحديث، وفي نسخة صحيحة بخط المصنف: «فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه» مبني للفاعل، وهو ضمير مستتر في الفعل راجع إلى النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون مبنيًّا لما لم يسم فاعله. ولمسلم، من طريق إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: «فأرسلني إلى عليّ فجئت به أقوده أرمد».

قوله: (فبصق) بفتح الصاد، أي تفل.

قوله: (ودعا له فبرأ) هو بفتح الراء والهمزة، أي عوفي في الحال، عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر[٤].

---

(١) قال له النبي ﷺ: «هو من أهل الجنة» في حديث طويل حين جلس في بيته حزينا عند نزول ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢] وكان ثابت رفيع الصوت، فقال: أنا الذي كنت أرفع صوتي - الحديث رواه الإمام أحمد (ج٣ ص ١٣٧) ورواه مسلم في كتاب الإيمان حديث ١٨٧.

(٢) عن سعد بن أبي وقاص قال: «ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام» رواه البخاري في مناقب الأنصار ورواه مسلم والترمذي وابن ماجه.

(٣) روى البخاري عن عمر قال: «كان رجل يسمى عبدالله ويلقب حمارًا؛ وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحد؛ فلعنه بعض الصحابة، فقال ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» الحديث.

(٤) في قرة العيون: وذلك بدعوة النبي ﷺ كما في الحديث فدعا فاستجيب له عليه السلام وفيه علم من أعلام النبوة أيضًا،

رِسْلِكَ حَتّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلى الإِسْلامِ وأَخْبِرْهُمْ بِما يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ حَقِّ اللهِ

وعند الطبراني من حديث علي: «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي ﷺ إليّ الراية» وفيه دليل على الشهادتين.

قوله: (فأعطاه الراية) قال المصنف: فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع؛ ومنعها عمن سعى.

وفيه: أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل.

قوله: (فقال: انفذ على رسلك) بضم الفاء؛ أي امض، و«رسلك» - بكسر الراء وسكون السين - أي على رفقك من غير عجلة، و«ساحتهم»: فِناء أرضهم وهو ما حولها.

وفيه: الأدب عند القتال وترك العجلة والطيش، والأصوات التي لا حاجة إليها.

وفيه: أمر الإمام عمّاله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة؛ كما يشير إليه قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»[1] أي الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ وإن شئت قلت: الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده؛ وإخلاص الطاعة له ولرسوله ﷺ. ومن هنا طابق الحديث الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [عمران: ٦٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له والعبودية له. كذا قال أهل اللغة.

وقال رحمه الله تعالى: ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله هو: الاستسلام له وحده - فأصله في القلب - والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا. ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا؛ وفي الأصل: هو من باب العمل، عمل القلب والجوارح، وأما الإيمان، فأصله: تصديق القلب وإقراره ومعرفته، فهو من باب قول القلب المتضمِّن عمل القلب. انتهى.

فتبين أن أصل الإسلام: هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين، وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله؛ كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣].

وذلك كله بالله ومن الله وحده وهو الذي يملك الضر والنفع؛ والعطاء والمنع، لا إله غيره ولا رب سواه.

(١) في قرة العيون: هذا هو شاهد الترجمة، وهكذا ينبغي لأهل الإسلام أن يكون قصدهم بجهادهم هداية الخلق إلى الإسلام والدخول فيه، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدهم ومرادهم ونيتهم.

تَعالى فيهِ، . . . .

وفيه: مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً؛ لأن النبي ﷺ أغار على بني المصْطَلِق وهم غارُّون[١] وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم.

قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»[٢] أي: في الإسلام إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لا بد لهم من فعلها: كالصلاة والزكاة، كما في حديث أبي هريرة: «فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم، إلَّا بحقها»[٣] ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله مانعي الزكاة: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلَّا بحقها؟ قال

---

(١) الغار: الغافل. وقال البخاري: غزوة بني المصطلق من خزاعة. وهي المريسيع. قال ابن إسحاق: وذلك سنة ست. وقال موسى بن عقبة: سنة أربع. وقال النعمان بن راشد عن الزهري: «أن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وأنعامهم تسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم. وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث» وبنو المصطلق بطن شهير من خزاعة. وسبب غزوهم: أن النبي ﷺ بلغه أن الحارث بن ضرار سيدهم أبا جويرية يجمع الناس ويستعد لقتاله. ففاجأهم رسول الله ﷺ وهم غافلون، وأسر منهم أكثرهم وأسلم الحارث بن ضرار.

(٢) في قرة العيون: فيه مما أمر به وشرعه من حقوق: «لا إله إلا الله» وهذا يدل على أن الأعمال من الإيمان خلافًا للأشاعرة والمرجئة في قولهم: إنه القول، وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق، وتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة – لأن الدين ما أمر الله به فعلًا وما نهى عنه تركًا.

وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدلالتها على فضلهم. وأمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره، وقد خد الأخاديد وأضرمها بالنار وقذف فيها من غلا فيه أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقده هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم، فصار من أشد الصحابة رضي الله عنه بعدًا عن الشرك، وشدة على من أشرك حتى أحرقهم بالنار مثل عبدالله بن سبأ اليهودي وشيعته. والقصة في البخاري. وكذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ما أعطي من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه؛ وهؤلاء أفضل أهل الكرامات فما زادهم ذلك إلا قوة في التوحيد؛ وشدة على أهل الشرك والتنديد، كما جرى لعمر رضي الله عنه في الاستسقاء بالعباس وتعمية قبر دانيال لما وجده الصحابة في بيت مال الهرمزان، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوة في الدعوة إلى التوحيد وشدة على أهل الشرك والإنكار عليهم وجهادهم، ولكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبسوا بالشرك؛ ويظنون أن ذلك كرامات، وهي من مكر الشيطان؛ وإغوائه لمن يعرف الحق من الباطل، وقد قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]. فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبره فإنه الصراط المستقيم ولا يلتفت إلى ما زخرفته الشياطين كما أغتر به من اغتر في هذه الأمة من قبلهم.

وفيه: من أداء الفرائض على الوجه الشرعي والنهي عن تعدي الحدود التي حدها الله بين الحلال والحرام؛ وذلك من الإيمان. فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فإذا أخذ بالإسلام الذي هو التوحيد والإخلاص، وأحل ما أحله الله تعالى وحرم ما حرمه الله تعالى وأمر بذلك وجاهد عليه، فقد قام بما وجب. وبالله التوفيق.

(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

فَوالله لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم». «يَدُوكون» أي يخوضون

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريقُ من اتبع رسول الله ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأنّ كثيرًا لو دعا إلى الحقّ فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرةَ من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حُسْن التوحيد: أنه تنزيه الله تعالى عن المسبّة.

الخامسة: أنَّ مِن قُبح الشرك كونَه مَسبّة لله.

السادسة: وهي من أهمها: إبعادُ المسلم عن المشركين لئلّا يصير منهم، ولو لم يشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أن يُبدأ به قبل كل شيء، حتّى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: «أَنْ يُوَحِّدوا الله» معنى شهادة: أن لا إله إلَّا الله.

العاشرة: أنَّ الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

أبو بكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عَناقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»[(١)].

وفيه: بعثُ الإمام الدعاةَ إلى الله؛ كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون؛ كما في المسند عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته: «ألا إني والله ما أرسل عُمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم؛ ولكن أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم».

قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»، «أن» مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم. وأنْ والفعل بعدها في تأويل مصدر، رفع على الابتداء. والخبر: «خير» و«حمر» - بضم المهملة وسكون الميم - جمع أحمر، و«النعم» - بفتح النون والعين المهملة - أي: خير لك من الإبل الحمر، وهي أنفَسُ أموال العرب.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج.
الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.
الثالثة عشرة: مصرِف الزكاة.
الرابعة عشرة: كشفُ العالم الشبهةَ عن المتعلم.
الخامسة عشرة: النّهي عن كرائم الأموال.
السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.
السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تُحجَب.
الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.
التاسعة عشرة: قوله: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ إِلَخ» علَم من أعلام النبوة.
العشرون: تَفْلُه في عَيْنَيه علم من أعلامها أيضًا.
الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.
الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دَوْكهم تلك الليلة وشُغلهم عن بشارة الفتْح.
الثالثة والعشرون: الإيمانُ بالقَدَر لحصولها لمن لم يَسْعَ ومَنْعِها عمن سعى.
الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رِسْلكَ».
الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.
السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا.
السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب».
الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.
التاسعة والعشرون: ثوابُ من اهتدى على يديه رجلٌ واحد.
الثلاثون: الحَلِفُ على الفُتْيا.

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا؛ إنما هو للتقريب إلى الإفهام، وإلا فذرّة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها.

وفيه: فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يُستحلف.

* * *

٥ - باب

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قوله: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)

قلت: هذا من عطف الدال على المدلول[١].

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى: «لا إله إلا الله» وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وسابقها ولاحقها، وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها، فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة، وفيها: الحجة على من تعلق من الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم، لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الإسراء: ٥٦] أكثر المفسرين على، أنها: نزلت فيمن يعبد المسيح وأُمه، والعُزيرَ والملائكة، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي، كما في الآية من التهديد والوعيد على ذلك. وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد، وينافي شهادة أن لا إله إلا الله، فإن التوحيد ألا يدعى إلا الله وحده. وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له. و«الدعاء مخ العبادة»[٢].

وفي هذه الآية: أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضرر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة. ولو كان المدعو نبيًّا أو ملكًا. وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائنًا من كان، لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان إليها، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[٣] يبين أن هذا سبيل

---

(١) في قرة العيون: لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة، وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث، لما فيها من زيادة البيان وكشف ما أشكل من ذلك، وإقامة الحجة على من غلط في معنى: «لا إله إلا الله» من أهل الجهل والإلحاد.

(٢) رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

(٣) في قرة العيون: أي: أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله، من الملائكة والأنبياء والصالحين: كالمسيح وأمه والعزير، فهؤلاء دينهم التوحيد وهو بخلاف من دعاهم من دون الله ووصفهم بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر، وترك ما نهاهم عنه. وأعظم القرب التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه؛ وهذا الذي يقربهم إلى الله أي عفوه ورضاه ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ فلا يرجون أحدًا سواه ولا يخافون غيره، وذلك هو توحيده لأن ذلك يمنعهم من الشرك، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله والهرب من عقابه، والداعي لهم - والحالة هذه - قد عكس الأمر، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله. ففيه معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ

وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين. قال قتادة: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه وقرأ ابن زيد: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾[1] قال العماد ابن

يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤] وقوله ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]. فيه: الرد على من ادعى: أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام وتبين بهذه الآية: أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم، وأن دعاء الأموات والغائبين، لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وأن ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الإخلاص.

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد، وما ينافيه من الشرك والتنديد، فإنها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزيز، فهم المعنيون بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ثم بين تعالى: أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه في دينه فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ وقدم المعمول لأنه يفيد الحصر، يعني يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره. وأعظم الوسائل إلى الله تعالى التوحيد الذي بعث به الله أنبياءه ورسله؛ وخلق الخلق لأجله. ومن التوسل إليه: التوسل بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الإسراء: ١٨٠] وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات كقوله ﷺ: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»، وقوله: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخاصة التي لم يشبها شرك. فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه، لا بما يكرهه ويأباه من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقوله: ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وقوله في الإنكار على من اتخذ الشفعاء: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس ١٨] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير يأمر عباده بإخلاص العبادة له؛ وينهاهم عن عبادة ما سواه، ويعظم عقوبته كما قد جرى على الأمم المكذبة للرسل فيما جاؤوهم به من التوحيد والنهي عن الشرك. فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم، فإنهم عصوا الرسل فيما أمروهم به من التوحيد وتمسكوا بالشرك وقالوا لنوح: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧] وقالوا لهود: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣] الآيات. وقالوا لصالح: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] وقالوا لشعيب: ﴿أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧].

فتدبر ما قص الله تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل وما أوقع بمن عصاهم. فإن الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك إلى يوم القيامة. وأما ما ورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال: «كان ناس من الأنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم». فإنه لا يخالف ما تقدم لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله وليًّا من الأولين والآخرين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذه الآية: وهذه الأقوال كلها حق فإن الآية تعم من كان معبوده عابدًا لله سواء كان من الملائكة والجن أو من البشر.

(١) يعني أن جميع الصالحين الذين يدعوهم المشركون ويستغيثون بهم إما توسلًا إلى الله ليقضي حوائجهم، وإما استقلالًا بأن يطلبوا منهم قضاء الحاجة معتقدين، بأن الله وهبهم التكوين والتصرف. أولئك الصالحون مشتغلون بأنفسهم يدعون الله لها ويتوسلون إليه بعبادته مخلصين له الدين، خائفين عذابه راجين رحمته، وإذا لم يملكوا لأنفسهم نفعًا ولا دفع ضر، فكيف يملكون لغيرهم ضرًّا أو نفعًا؟

قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

كثير: وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين، وذكره عن عدة من أئمة التفسير.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: في هذه الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء التقرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف. وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين الإسلام كما في المسند عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ: والله يارسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما بعثك به؟ قال: «الإسلام، قال: وما الإسلام؟ قال: أن تُسلم قلبك وأن تُوجّه وجهك إلى الله؛ وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة». وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن مَعدان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن للإسلام صُوًى ومنارًا كمنار الطريق[1]، من ذلك أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨] أي: «لا إله إلّا الله».

فتدبر كيف عبّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه ووُضعت له[2] من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج: كالكواكب والهياكل والأصنام التي صوّرها قوم نوح على صور الصالحين: ودّ وسُوَاع ويَغُوث ونَسْر، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها. ولم يستثن من جميع المعبودات إلّا الذي فطره، وهو الله وحده لا شريك له؛ فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فكل عبادة يقصد بها غير الله: من دعاء وغيره فهي باطلة، وهي الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟

---

(١) الصوى الأعلام المنصوبة من الحجارة في المفازة المجهولة يستدل بها على الطريق، واحدتها صوة - كقوة - أراد أن للإسلام طرائق وأعلامًا يُهتدى بها.

(٢) في قرة العيون: فعبر عن المنفي بها قوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وعبر عما أثبتته بقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فقصر العبادة على الله وحده ونفاها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك. فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه! قال العماد ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي هذه الكلمة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان وهي لا إله إلا الله؛ جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي إليها. قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ يعني: «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [غافر: ٧٣، ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ [١] وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾[٢].

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عَدِيٍّ بن حاتم الطائي فقال: «يارسول الله؛ لسنا نعبدهم، قال: «أليس يُحِلُّون لكم ما حرم الله فتحلونه؛ ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ قال: بلى، قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم»[٣].

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابًا، كما هو الواقع في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة لا إله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة، فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فكل من اتخذ نِدًّا لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه قضاء حاجاته وتفريج كرباته - كحال عُبّاد القبور والطواغيت والأصنام - فلا بد أن يعظِّموهم ويحبوهم لذلك؛ فإنهم أحبوهم مع الله وإن كانوا يحبون الله تعالى[٤]. ويقولون: «لا إله إلا الله»

---

(١) الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العباد. قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى في الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فصار ذلك عبادة لهم، وجعلوا أحبارهم ورهبانهم مشرعين في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله؛ فاتخذوهم بذلك أربابًا، لأن التشريع من خصائص الربوبية كما أن العبادة من مستحقات الربوبية. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

(٢) في قرة العيون: أي اتخذوه ربًّا بعبادتهم له من دون الله وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧] فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى «لا إله إلا الله»، وتبين له التوحيد الذي جحده أكثر من يدعى العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة، وقد عمت البلوى بالجهل بعد القرون الثلاثة لما وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم وبنيت عليها المساجد، وبنيت لهم المشاهد؛ فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة. فبهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر، وعاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والبدعة سنة والسنة بدعة. نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير، وقد قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس» وفي رواية: «يصلحون ما أفسد الناس».

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذي وحسنه وابن جرير مطولًا.

(٤) هم في الواقع ما أحبوا الله حقيقة، لأن حب الله لا يكون إلا عن معرفة بالله؛ بأسمائه وصفاته، ومن أحب الله على الحقيقة لا يمكن أن يتخذ من دونه ندًّا، وليس معنى «كحب الله» أي كحبهم لله، ولكن معناها والله أعلم: يحبونهم حبًّا من جنس الحب الذي لا يكون إلا لله، وهو حب العبادة: غاية الحب في غاية الذل والتعظيم، فهذا هو الحب الذي ينشأ عنه الدعاء واللجأ والضراعة وطلب تفريج الكروب ونحوها، مما يجرده المؤمنون لله وحده وهم أشد حبًّا لله، والمشركون يجردونه

. . . .

ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره. فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه، لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه، وهؤلاء وإن قالوا: «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها، لأن المشرك جاهل بمعناها، ومن جهله بمعناها جعل لله شريكًا في المحبة وغيرها وهذا هو الجهل المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص: ولم يكن صادقًا في قولها، لأنه لم ينف ما نفته من الشرك، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص، وترك اليقين أيضًا، لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شكّ فيه، ولم يقبله وهو الحق. ولم يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث. بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الندّ ومحبته له وعبادته إياه من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأنهم أخلصوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعًا لله، ويكفرون بما عُبد من دون الله. فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله، دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله. وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المرسلين فتدبر.

لأوليائهم أو يشركونهم مع الله؛ ولا يرجون لله وقارًا.

وقال في قرة العيون: الأنداد؛ الأمثال والنظراء؛ كما قال العماد ابن كثير وغيره من المفسرين، فكل من صرف من العبادة شيئًا لغير الله رغبة إليه أو رهبة منه، فقد اتخذه ندًّا لله لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيد المحبوب ألا يتعدد محبوبه أي: مع الله بعبادته له، وتوحيد الحب ألا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سمي عشقًا فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه؛ وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون لله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وألا تكون محبته لغير الله، فلا يحب إلا الله؛ كما في الحديث الصحيح «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يلقى في النار» ومحبة رسوله هي من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها، ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد. ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يقدم على محبة نفسه شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خير بين الكفر وإلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر، كان أحب إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة؛ كما لا مثيل لمن تعلقت به وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا نظير له في محبة مخلوق ولو كان المخلوق من كان، ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان شركًا لا يغفره الله كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ والصحيح أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم؛ كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلًا، كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته. اهـ.

. . . .

قال: وقوله تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ - الآية [الإسراء: ٥٧] يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد[١] للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، ورغبوا إليهم، فإنهم لا يملكون كشف الضر عنكم، أي: بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي: ولا أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر. قال العوفي عن ابن عباس في الآية: «كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيرًا، وهم الذين يدعون، يعني: الملائكة والمسيح وعزيرًا».

وروى البخاري - في الآية - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا». وفي رواية: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم».

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هي الإسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال: «عيسى وأمه وعزير» وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: «هم عيسى وعزير والشمس والقمر» وقال مجاهد: «عيسى وعزير والملائكة».

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء؛ فكل داع دُعاءَ عبادة أو استغاثة لا بد له من ذلك: فإما أن يكون خائفًا وإما أن يكون راجيًا، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى - في هذه الآية لما ذكر أقوال المفسرين -: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تَعمُّ من كان معبوده عابدًا لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى الخبز؟ فيريه رغيفًا. فيقول: هذا. فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع [دون نوع] مع شمول الآية. فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعوًا، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه. فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها

(١) يستعمل المفسرون هذا الخطاب كثيرًا؛ تفسيرًا لخطاب الله. ولكن يلاحظ أن الله لم يخاطب رسوله ولا مرة واحدة بهذا الخطاب: «يا محمد» بل كان خطاب الله: «يأيها النبي، يأيها الرسول» فينبغي أن يكون ذلك كذلك؛ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨].

فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن؛ فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبيّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، ولا يرفعونه بالكلية ولا يُحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل. فكل من دعا ميتًا أو غائبًا من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله اهـ.

وفي هذه الآية رد على من يدعو صالحًا، ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئًا؛ الشرك عبادة الأصنام.

قال: (وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ الآية) قال ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء؛ الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: إنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله»[1] جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: يعني: «لا إله إلا الله» لا يزال في ذريته من يقولها.

وروى ابن جرير عن قتادة: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ قال: كانوا يقولون: الله ربنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] فلم يبرأ من ربه. رواه عبد بن حميد. وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ قال: «الإخلاص والتوحيد لا يزال في ذريته من يعبد الله ويوحده».

قلت: فتبين أن معنى «لا إله إلا الله» توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه.

قال المصنف رحمه الله: (وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاة، هي شهادة أن لا إله إلا الله).

---

(١) فإن «لا إله إلا الله» مطابقة لقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ لأن كلتيهما مركبة من جملتين: نفي؛ وهي: «لا إله» و«إنني براء مما تعبدون» وإثبات: وهي «إلا الله» و«الذي فطرني» فينبغي أن يلاحظ المسلم عند نطقه بكلمة الشهادة ذلك ويحققه علمًا وعملًا.

. . . .

وفي هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية:

وإذا تـولاه امـرؤ دون الـورى طـرًّا تـولاه العـظيم الشـان

قال: (وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾) - الآية [التوبة: ٣١].

الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العُبَّاد. وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعَدِيِّ ابن حاتم، وذلك: أنه لما جاء مسلمًا دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية، قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال: «بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم؛ فذلك عبادتهم إياهم». رواه أحمد، والترمذي وحسنه، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، والطبراني من طُرُق.

قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله؛ والدين ما شرعه الله.

فظهر بهذا، أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ما حرم الله، أو تحريم ما أحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيما لم يأذن به الله، فقد اتخذه ربًّا ومعبودًا وجعله لله شريكًا، وذلك ينافي التوحيد، الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله». فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عبادة لهم، وسماهم أربابًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ﴾ [آل عمران: ٨٠] أي شركاء لله تعالى، في العبادة: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ وهذا هو الشرك. فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ما شرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع ربًّا ومعبودًا؛ كما قال تعالى في آية الأنعام ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة، ويشبه هذه الآية في المعنى، قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [الشورى: ٢١] والله أعلم.

قال شيخ الإسلام في معنى قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا - حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله - يكونون على وجهين:

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعًا لرؤسائهم؛ مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل. فهذا

. . . .

كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإن لم يكونوا يُصلُّون لهم ويسجدون لهم. فكان من اتبع غيره في خلاف الدين - مع علمه أنه خلاف للدين - واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركًا مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله؛ كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص؛ فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «إنما الطاعة في المعروف».

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهدًا - قصده اتباع الرسل لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع - فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه. ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه، وعدل عن قول الرسول؛ فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لا سيما إن اتبع ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول؛ فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه، ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال. وإن كان عاجزًا عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره، وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [المائدة: ٨٣]، وقوله ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩]، وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزًا عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما يقدر عليه مثلُه: من الاجتهاد في التقليد فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ؛ كما في القبلة. وأما من قلد شخصًا دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق؛ فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيبًا لم يكن عمله صالحًا، وإن كان متبوعه مخطئًا كان آثمًا؛ كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال - منعه من عبادة الله وطاعته - صار عبدًا له، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفي الحديث: «إن يسير الرياء شرك» وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب.

وقال أبو جعفر بن جرير في معنى قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [فصلت: ٩]: أي:

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وتجعلون لمن خلق ذلك أندادًا - وهم الأكفاء من الرجال - تطيعونهم في معاصي الله. انتهى.

قلت: كما هو الواقع من كثير من عُبّاد القبور.

قال: (وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾) الآية [البقرة: ١٦٥].

قال العماد ابن كثير رحمه الله: يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أندادًا؛ أي: أمثالًا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له ولا ند له؛ ولا شريك معه. وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله؛ أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ».

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئًا، بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه، ثم توعّد تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعًا، أي إن الحكم لله وحده لا شريك له، فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥] كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [الفجر:٢٥، ٢٦] يقول: لو علموا ما يعانون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال. ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتَبرُّءِ المتبوعين من التابعين، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾ تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة[1]: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص:٢٨] ويقولون:

---

(١) قال العماد ابن كثير في تفسير سورة القصص: وقوله تعالى ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم؛ ثم تبرؤوا من عبادتهم. اهـ. والدعاة إلى الكفر: هم من بني آدم ممن كانوا رؤساء وشيوخًا لأولئك الغاوين، كأصحاب الطرق الصوفية. فإنهم الذين زينوا لمريديهم ومتبوعيهم الشرك والكفر بالله ورسوله. فإن أساس طرقهم الشيطانية: أن يعبد المريد شيخه بأنواع التعظيم والخوف واعتقاد أنه جاسوس قلبه يدخل ويخرج والمريد لا يشعر، وأنه قبل أن يذكر الله يستحضر الشيخ في قلبه. ويعظمونهم بأنواع الطاعة العمياء أحياء وأمواتًا - كما هو مدون في كتبهم - من شروط المريد وما يسمونه العهد الوثيق. وتجد أكثر هذا الكفر والضلال في كتب الشعراني. وأما آيات سورة الأحقاف فإنها صريحة في أن الذين يكفرون بشرك المشركين: هم من عباد الله الصالحين الذين اتخذهم الناس آلهة بعد موتهم، واتخذوا قبورهم أوثانًا، وما

. . . .

﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤١] والجن أيضًا يتبرؤون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] انتهى كلامه.

روى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه بالنداد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦] ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا، فلم يدخلوا في الإسلام، فكيف بمن أحب الند أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب الند وحده؟» اهـ.

ففي الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله في العبادة واتخذه ندًّا من دون الله، وأن ذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله، كما قال تعالى في أولئك: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] المراد بالظلم هنا الشرك. كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] كما تقدم، فمن أحب الله وحده؛ وأحب فيه وله فهو مخلص، ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه: فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة؛ لزم أن يكون محبًّا له؛ ومحبته هي الأصل في ذلك. انتهى.

فكلمة الإخلاص: «لا إله إلا الله» تنفي كل شرك في أي نوع كان من أنواع العبادة، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى. وقد تقدم بيان أن «الإله هو المألوه الذي تؤلهه القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة» فلا إله إلا الله: نفت ذلك كله عن غير الله؛ وأثبتته لله وحده. فهذا هو ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة؛ فلا بد من معرفة معناها واعتقاده، وقبوله، والعمل به باطنًا وظاهرًا والله أعلم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيد المحبوب ألا يتعدد محبوبه؛ أي: مع

كانوا يحبون ذلك ولا يرضون به؛ من أمثال الحسين وإخوته وأبيه وأبنائهم، والإمام الشافعي في مصر، وأبي حنيفة وعبد القادر في بغداد ونحوهم، فإنهم يتبرؤون يوم القيامة من أولئك المشركين.

. . . .

الله تعالى بعبادته له، وتوحيد الحب: ألا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له؛ فهذا الحب - وإن سمي عشقًا - فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلَّا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يحب إلا لله، كما في الحديث الصحيح: «ثلاث من كن فيه» الحديث[1]، ومحبة رسول الله ﷺ هي من محبة الله؛ ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي مُنقصة لمحبة الله مُضعفة لها؛ ويُصَدِّق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه - وهو الكفر - بمنزلة كراهيته لإلقائه في النار أو أشد. ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يُقدِّم على محبة نفسه وحياته شيئًا، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه - بحيث لو خُيِّر بين الكفر وبين إلقائه في النار لاختار أن يُلقى في النار ولا يكفر - كان أحب إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة. كما لا مثل لمن تعلقت به، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد. وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهرًا وباطنًا. وهذا لا نظير له في محبة المخلوق، ولو كان المخلوق من كان. ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركًا شركًا لا يغفره الله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ والصحيح: أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أهل الأنداد لأندادهم؛ كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلًا، كما لا يماثل محبوبهم غيره وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته، ومن ضرب لمحبته الأمثال التي في محبة المخلوق للمخلوق - كالوصل، والهجر والتجني بلا سبب من المحب؛ وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علوًّا كبيرًا - فهو مخطئ أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. انتهى.

[قال:] (وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم ماله ودمه وحسابه على الله») قوله: (وفي الصحيح): أي صحيح مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ فذكره.

وأبو مالك، اسمه سعد بن طارق؛ كوفي ثقة، مات في حدود الأربعين ومائة، وأبوه طارق بن أَشْيَمَ - بالمعجمة والمثناة التحتية وزن أحمر - ابن مسعود الأشجعي، صحابي له

---

(١) رواه البخاري عن أنس بلفظ «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وكَفَرَ بِما يُعْبَدُ مِنْ دونِ اللهِ، حَرُمَ مالُهُ ودَمُهُ، ....

أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه. وفي مسند الإمام أحمد عن أبي مالك قال: وسمعته يقول للقوم: «من وحد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل». ورواه الإمام أحمد من طريق يزيد بن هارون قال: أخبرنا أبو مالك الأشجعي عن أبيه. ورواه أحمد عن عبد الله بن إدريس قال: سمعت أبا مالك قال: قلت لأبي. الحديث. ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر: «لا إله إلا الله».

قوله: (من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله) اعلم أن النبي ﷺ علّق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين:

الأول: قول «لا إله إلا الله»، عن علم ويقين، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث، كما تقدَّم.

الثاني: الكفر بما يعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لا بد من قولها والعمل بها[1].

قلت: وفيه معنى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصمًا للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلّها ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمُنازع) انتهى.

قلت: وهذا هو الشرط المصحح لقوله: «لا إله إلا الله» فلا يصح قولها بدون هذه الخمس - التي ذكرها المصنف رحمه الله - أصلًا. قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقال: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى؛ ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعًا.

---

(١) في قرة العيون: فيه دليل أنه لا يحرم ماله ودمه إلا إذا قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله فدمه وماله حلال لكونه لم ينكر الشرك ويكفر به، ولم ينفه كما نفته لا إله إلا الله، فتأمل هذا الموضوع فإنه عظيم النفع.

. . . .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». وهذان الحديثان تفسير الآيتين: آية الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماء على أن من قال: «لا إله إلا الله» ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها، أنه يُقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات.

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» معلوم أن المراد بهذا أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: «لا إله إلا الله» ثم يُقاتَلون ولا يرفَع عنهم السيف.

وقال القاضي عياض: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: «لا إله إلا الله» تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان، فأما غيرهم ممن يقرُّ بالتوحيد، فلا يُكتفَى في عصمته بقول: «لا إله إلا الله»، إذ كان يقولها في كفره، انتهى ملخصًا.

وقال النووي: لا بد هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء في الرواية: «ويؤمنوا بي وبما جئت به».

وقال شيخ الإسلام - لما سُئِلَ عن قتال التتار فقال -: كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة - من هؤلاء القوم أو غيرهم - فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه، كما قاتل أبو بكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم. قال: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام؛ أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال أو الخمر، أو الميسر أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار؛ أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها. فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء. قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى.

قوله: (وحسابه على الله) أي الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة، فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقًا عذَّبه العذاب الأليم.

وحِسابُهُ عَلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ».

وشرحُ هذه الترجمةِ: ما بعدها من الأبواب.

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير الشهادة. وبيّنها بأمورٍ واضحةٍ.

منها: آيةُ الإسراء بَيَّن فيها الردَّ على المشركين الذين يَدْعون الصالحين ففيها: بيانُ أنَّ هذا هو الشِّركُ الأكبر.

ومنها آيَة براءة، بَيَّن فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دُون الله، وبَيّن أنهم لم يُؤمروا إلا بأَن يَعبدُوا إلهًا واحدًا، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعةُ العلماء والعبّاد في المعصيةِ، لا دُعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ فاستثنى من المعبودين رَبّهُ، وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهرًا والتزام شرائع الإسلام وجب الكفُّ عنه.

قلت: وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول: «لا إله إلا الله» ولا يكفر بما يعبدون من دون الله فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث.

قوله: (وشرحُ هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب)[1] قلت: وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى «لا إله إلا الله». وفيه أيضًا: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، ومما تركه من مضمون «لا إله إلا الله» فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى «لا إله إلا الله» وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحِّد حقًّا، وبمعرفة وسائل الشرك - والنهي عنها لتجتنب - تعرف الغايات التي نهى عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص، بل يقتضيه. وفيه أيضًا من أدلة

(١) في قرة العيون: فقد ذكر فيها رحمه الله تعالى ما يبين التوحيد وما ينافيه، وما يقرب من الشرك، وما يوصل إليه من الوسائل، وبيان ما كان عليه السلف من بعدهم عن الشرك في العبادة وشدة إنكارهم له وجهادهم على ذلك؛ وقد جمع هذا الكتاب على اختصاره من بيان التوحيد ما لا يعذر أحد عن معرفته وطلبه بإقبال وتدبر. وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع، فتدبره تجد ذلك بينًا. وسيأتي التنبيه على ذلك إن شاء الله تعالى.

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحبِّ الله[١]، فدلَّ على أنهم يحبون الله حبًّا عظيمًا ولم يُدْخلهم في الإسلام. فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ أكبر[٢] من حُبِّ الله؟ فكيف بمن لم يُحب إلا النِّدَّ وحده؟ ولم يُحب الله؟.

ومنها: قوله ﷺ: «مَنْ قالَ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وكَفَرَ بِما يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، حَرُمَ مالُهُ ودَمُهُ، وحِسابُهُ على اللهِ» وهذا أعظم ما يبين معنى «لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ». فإنه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصِمًا للدَّم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لَفْظها، بل ولا الإِقرارُ بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يَحرُمُ ماله ودمُه حتى يُضيفَ إلى ذلك الكفْرَ بما يَعْبُدُ من دون الله. فإن شَكَّ أو توقَّفَ لم يَحْرُمْ ماله ودمُه.

فيا لها من مسألة ما أعظَمها وأجَلّها، ويا لَهُ من بيانٍ ما أَوْضَحَهُ وحجّةٍ ما أَقْطَعها للمنازع.

التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالى عمَّا لا يليق بجلاله؛ وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده؛ وأن العبادة لا تصلح إلَّا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلَّا الله.

❊ ❊ ❊

---

(١) الظاهر أن المعنى: أنهم يحبون أندادهم من جنس حب الله الذي هو حب التعظيم والذل والخضوع، لأنه ليس كل حب يكون عبادة حتى يكون فيه تعظيم وخضوع، ولذلك قال: «كحب الله» ولم يقل: كحبهم لله. فهم في الوقت الذي يحبونهم أعظم الحب، يخافونهم أشد الخوف؛ معتقدين أنهم يخلفون عليهم خيرًا مما ينذرونه لهم ويذبحونه لهم من طيب مالهم ويرجون منهم المساعدة والمعونة على كشف الضر ودفع البأساء، ويحذرون انتقامهم بحرق زرعهم وإهلاك أولادهم وأنفسهم، ويروون عن سدنتهم روايات مكذوبة في تأييد دعاويهم تهويلًا عليهم وتمكينًا للضلال والشرك من أنفسهم. فهم لا يرجون لله وقارًا كما يرجون لهم ولا يخشون الله كما يخشونهم. فتجود أنفسهم بسخاء في سبيل التقرب إلى أولئك الموتى من أوليائهم بما لا تجود بعشره في سبيل الله؛ برًّا للوالدين أو صلة للأرحام أو إطعامًا لجار بائس، أو مسكين من أهل قريته. هذا شأن عُبَّاد القبور والموتى اليوم، دقق في أحوالهم وطبقها على آيات المشركين في القرآن تجدهم زادوا على مشركي الجاهلية الأولى. والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(٢) إن من تحقق من محبة مشركي زماننا لآلهتهم التي يسمونها بالأولياء يعلم يقينًا أنهم يحبونها أكثر من محبتهم لله، ويتصدقون لوجوهها بما لا يقدرون أن يتصدقوا بعشره لوجه الله.

٦ - باب
من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما، لرفع البلاء أو دفعه

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

قوله: (باب من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما، لرفع البلاء أو دفعه)

رفْعه: إزالته بعد نزوله. دفعه: منعه قبل نزوله.

قال: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾).

قال ابن كثير: أي: لا تستطيع شيئًا من الأمر ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: الله كافٍ من توكَّل عليه ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ كما قال هود عليه السلام حين قال قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤-٥٦] قال مقاتل في معنى الآية: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا، أي: لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها[(١)].

---

(١) في قرة العيون: فإذا كان آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضر أراده الله بعبده، أو إمساك رحمة أنزلها على عبده فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزومًا لا محيد لهم عنه. وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن حاجه في الله فقال: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فأقام الله تعالى الحجة على المشركين بما يبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك، وهذا في القرآن كثير كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣] وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١-٤٣]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١].

ذكر العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم عن قيس بن الحجاج عن حنش الصنعاني عن ابن عباس مرفوعًا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله؛ وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك؛ ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف ورفعت الأقلام؛ واعمل لله بالشكر في اليقين؛ واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا».

عن عمران بن حُصَين رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأى رَجُلًا في يَدِهِ حَلْقَة مِنْ صُفرٍ، فَقالَ: «ما هٰذِهِ؟ قالَ: مِنَ الواهِنَة..............................

وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا على أنهم يكشفون الضُّرَّ، ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

قلت: فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وأن ذلك شرك بالله. وفي الآية بيان أن الله تعالى وَسَمَ أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة إليه من دون الله، والتوحيد ضد ذلك، وهو: ألا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله. كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة وأئمتها كما تقدم.

قال: (عن عمران بن حصين: أن النبي ﷺ رأى رجلًا في يده حلْقة من صفر فقال: «ما هذه؟ قال: من الواهنة، قال: انزعها فإنها لا تزيدك إلا وَهَنًا؛ فإنك لو مِتّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا» رواه أحمد بسند لا بأس به).

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد حدثنا المبارك عن الحسن قال: أخبرني عمران ابن حصين: أن النبي ﷺ أبصر على عَضُد رجل حلقة - قال: أراها من صفر - فقال: «ويحك ما هذه؟ قال: من الواهنة. قال: أمَا إنها لا تزيدك إلا وهنًا. انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» ورواه ابن حبان في صحيحه فقال: «فإنك إن مت وُكلْتَ إليها» والحاكم، وقال: صحيح الإسناد. وأقره الذهبي. وقال الحاكم: أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران. وقوله في الإسناد: «أخبرني عمران» يدل على ذلك.

قوله: (عن عمران بن حصين) أي: ابن عبيد بن خلف الخزاعي؛ أبو نجيد - بنون وجيم مصغر -. صحابي ابن صحابي. أسلم عام خيبر. ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة.

قوله: (رأى رجلًا) في رواية الحاكم: دخلتُ على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: «ما هذه؟». الحديث. فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث.

قوله: (ما هذه) يُحتمل أن الاستفهام للاستفسار عن سبب لبسها، ويحتمل أن يكون للإنكار، وهو أشهر.

قوله: (من الواهنة) قال أبو السعادات[١]: الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها، فيُرقى منها. وقيل هو مرض يأخذ في العضد، وهي تأخذ الرجال دون النساء[٢]، وإنما

---

(١) هو ابن الأثير، ولد سنة ٥٤٤هـ وتوفي سنة ٦٠٦هـ له عدة تآليف. منها النهاية في غريب الحديث.

(٢) ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهليون اليوم من إلباس أولادهم خلاخيل الحديد وغيره ويعتقدون أن ذلك يحفظهم من

فَقالَ: انْزِعْها فَإِنَّها لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ ما أَفْلَحَت أَبَدًا» رواه أحمد بسند لا بأس به.

نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم، وفيه اعتبار المقاصد[1].

قوله: (انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهنًا) النزع هو الجذب بقوة، أخبر أنها لا تنفعه، بل تضره وتزيده ضعفًا. وكذلك كل أمر نهى عنه فإنه لا ينفع غالبًا، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه.

قوله: (فإنك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا) لأنه شرك، والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: (فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة. وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك).

قوله: (رواه أحمد بسند لا بأس به) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبد الله بن حسان بن عبد الله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنْب بن أفصى بن دُعمى بن جَديلة بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان - الإمام العالم أبو عبدالله الذهلي ثم الشيباني المروزي، ثم البغدادي، إمام أهل عصره وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعًا ومتابعة للسنة، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضيين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشُّه فنفاها، خُرج به من مرو وهو حمل فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهر ربيع الأول، وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك، وهي سنة تسع وسبعين ومائة فسمع من هشيم، وجرير بن عبدالحميد، وسفيان بن عيينة، ومعتمر بن سليمان ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن إدريس الشافعي ويزيد بن هارون وعبدالرزاق وعبدالرحمن بن مهدي، وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد. روى عنه ابناه صالح وعبد الله، والبخاري ومسلم وأبو داود وإبراهيم الحربي وأبو زرعة الرازي وأبو زرعة الدمشقي وعبدالله بن أبي الدنيا وأبو بكر الأثرم وعثمان ابن سعيد الدارمي وأبو القاسم البغوي، وهو آخر من حدَّث عنه، وروى عنه من شيوخه عبدالرحمن بن مهدي والأسود بن عامر؛ ومن أقرانه علي بن المديني ويحيى بن معين، قال

الموت الذي أخذ إخوتهم الذين ماتوا قبلهم، ومنه لبس حلقة الفضة للبركة أو لمنع البواسير، ولبس خواتيم لها فصوص مخصوصة للحفظ من الجن، وغيرها.

(١) في قرة العيون: وإنما نهاه عنها لكونه يظن أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه، فأمر ﷺ بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيده إلا وهنًا؛ فإن المشرك يعامل بنقيض قصده لأنه علق قلبه بما لا ينفعه ولا يدفع عنه، فإذا كان هذا بحلقة صفر فما الظن بما هو أطم وأعظم؟ كما وقع من عبادة القبور والمشاهد والطواغيت وغيرها كما لا يخفى على من له أدنى مسكة من عقل.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَة فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، ومَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَة فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» ....

البخاري: مرض أحمد لليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه، وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. وقال ابنه عبدالله والفضل بن زياد: مات في ثاني عشر ربيع الآخر رحمه الله تعالى.

قوله: (وله عن عقبة بن عامر، مرفوعًا: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له؛ ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية «من تعلق تميمة فقد أشرك»)[1] الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف، ورواه أيضًا أبو يعلي والحاكم، وقال: صحيح الإسناد وأقره الذهبي.

قوله: (وفي رواية) أي من حديث آخر رواه أحمد فقال: حدثنا عبدالصمد بن عبدالوارث حدثنا عبدالعزيز بن مسلم حدثنا يزيد بن أبي منصور عن دجين الحجري عن عقبة ابن عامر الجهني: «أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يارسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: «إن عليه تميمة فأدخل يده فقطعها؛ فبايعه وقال: من تعلق تميمة فقد أشرك» ورواه الحاكم بنحوه. ورواته ثقات.

قوله: (عن عقبة بن عامر) صحابي مشهور فقيه فاضل، ولِّيَ إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين ومات تقريبًا من الستين.

قوله: (من تعلَّق تميمة) أي علَّقها متعلقًا بها قلبه في طلب خير أو دفع شر. قال المنذري: خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات، وهذا جهل وضلالة، إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى.

وقال أبو السعادات: التمائم جمع تميمة وهي خرزات كانت العرب تُعلِّقها على أولادهم يتقون بها العين، في زعمهم، فأبطلها الإسلام.

قوله: (فلا أتمَّ الله له) دعاء عليه.

قوله: (ومن تعلق وَدعة) بفتح الواو وسكون المهملة. قال في مسند الفردوس: شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين.

---

(١) في قرة العيون: وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التمائم شرك لما يقصده من علقها لدفع ما يضره أو جلب ما ينفعه؛ وهذا أيضًا ينافي كمال الإخلاص الذي هو معنى لا إله إلا الله، لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من أحد سوى الله كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥] فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك، وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم، فإذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبوة فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب بعد ما حدث من البدع والشرك؟ كما في الأحاديث الصحيحة تقدمت الإشارة إلى ذلك. وهذا مما يبين معنى لا إله إلا الله أيضًا فإنها نفت كل الشرك قليله وكثيره كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وفي رواية: «مَنْ تَعَلَّقَ تَميمَة فَقَدْ أَشْرَكَ».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة: «أَنَّهُ رَأى رَجُلًا في يَدِهِ خَيْط مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ» وتلا

قوله: (فلا ودع الله له) بتخفيف الدال. أي لا جعله في ودعة وسكون. قال أبو السعادات: وهذا دعاء عليه.

قوله: (وفي رواية: من تعلق تميمة فقد أشرك) قال أبو السعادات: إنما جعلها شركًا لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه.

قال المصنف رحمه الله: (ولابن أبي حاتم عن حذيفة) أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسن بن إبراهيم بن أشكاب حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد بن سلمة عن عاصم الأحول، عن عروة قال: «دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيرًا فقطعه أو انتزعه، ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾».

وابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد، عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس، الرازي التميمي الحنظلي الحافظ، صاحب الجرح والتعديل والتفسير وغيرهما مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وحذيفة هو: ابن اليمان، واسم اليمان: حُسيل - بمهملتين مصغرًا - ويقال حِسْل - بكسر ثم سكون - العبسي - بالموحدة - حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، ويقال له صاحب السر[١] وأبوه أيضًا صحابي، مات حذيفة في أول خلافة علي رضي الله عنه سنة ست وثلاثين.

قوله: (رأى رجلًا في يده خيط من الحمى) أي: عن الحمى. وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى[٢]، وروى وكيع عن حذيفة: «أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده، فإذا فيه خيط فقال: ما هذا؟ قال: شيء رُقي لي فيه، فقطعه وقال: لو

---

(١) لأن النبي ﷺ استصحبه في عودته من غزوة تبوك حين أخذ في طريق العقبة التي كان المنافقون كمنوا عندها لينفروا راحلة رسول الله ﷺ ليقع عنها فيموت، فأطلعه الله على ما بيتوا وأعلمه بأسمائهم، فأعلم رسول الله ﷺ حذيفة بأسمائهم إذ ناداهم بأسمائهم حين حاذاهم، ثم استكتم حذيفة أسماءهم اتقاء الفتنة، ولم يكن عند حذيفة سر في الدين، كما يدعي الضالون من الصوفية. لأن الإسلام علانية لا سر فيه؛ وإنما الأسرار في النصرانية كنائسها وقسسها ورهبانيتها.

(٢) ولا يزال هذا معتقدًا عند أهل الجاهلية الثانية، يتخذون خيوطًا يعقدونها بأيدي من اسمه محمد، وبعض ذلك يعملونه يوم الجمعة، وبعض ذلك يعملونه على مقاس باب الكعبة ثم يعقدونه أربعين عقدة ممن أسماؤهم محمد، ويقرؤون عند كل عقدة قل هو الله أحد، ويزعمون أن هذا الخيط نافع من العقم؛ فلا تلبسه عقيم في زعمهم إلّا وتحمل، وهذا من أعظم الانحطاط إلى أحط دركات البكم والصمم والعمى، بل إلى البهيمية أن يعتقد في خيوط. ومثله اتخاذ سبع من أنواع الحبوب تعلق في كيس مع سرة الطفل وأشباه ذلك كثير فاش فيمن يتسمون بأسماء إسلامية، وهم من أجهل المشركين الشرك الأكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

قوله ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلْقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح فيه شاهد لكلام الصحابة: إن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يُعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر لقوله: «لا تزيدك إلَّا وهنًا».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تَعَلَّقَ[1] شيئًا وُكِلَ إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

مت وهو عليك ما صليتُ عليك» وفيه إنكار مثل هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب: فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله، مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك، مما يعلقه الجهال فهو شركٌ يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل؛ وإن لم يأذن فيه صاحبه.

قوله: (ولا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾) استدل حذيفة رضي الله عنه بالآية على أن هذا شرك . ففيه صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك

---

(١) إنما وكله الله إليه لأنه أعرض عن رحمة ربه واستغنى عن الله وتمسك بالسبب الأضعف بل تمسك بلا شيء، فوكله إلى ما تمسك به فلم ينفعه شيئًا.

(٢) في قرة العيون: فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة فكيف يؤمن أن يقع ما هو أعظم منه؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية مما قد تقدم التنبيه عليه، حتى أن كثيرًا من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على من أنكر الشرك الأكبر فصاروا هم والصحابة رضي الله عنهم في طرفي نقيض، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك؛ وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر ويجعلون النهي عن هذا الشرك بدعة وضلالة؛ وكذلك كانت حالِ الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بعثوا به من توحيد الله تعالى وإخلاص العبادة لله وحده، والنهي عن الشرك به؛ وقد بعث الله تعالى خاتم رسله محمدًا ﷺ بذلك كما بعث به من قبله، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله ﷺ مشركي العرب وغيرهم، فنصر هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصرة؛ وأنكروا التوحيد الذي بعث به غاية الإنكار، فإنه ﷺ لما قال لقريش: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» عرفوا معناها الذي وضعت له وما أريد منها فقالوا: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ الآيات. [ص: ٥] وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥] وفي صحيح البخاري وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ قال له: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة».

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يُتمّ له، ومن تعلق ودعة فلا ودع[1] الله له. أي ترك الله له.

الأكبر، لشمول الآية له، ودخوله في مُسَمَّى الشرك. وتقدَّم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره، في كلام شيخ الإسلام وغيره. والله أعلم. وفي هذه الآثار عن الصحابة: ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كماله.

* * *

(١) ودع: فسره المصنف: بترك: أي: فلا ترك الله له ما يحب وفسره غيره بأنه دعاء عليه ألا يجعله الله في دعة ولا سكون.

٧ - باب
ما جاء في الرقى والتمائم

في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: أَنَّهُ كانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ في بَعْضِ أَسْفارِهِ فَأَرْسَلَ رَسُولًا: «أَنْ لَا يَبْقين في رَقَبَةِ بَعيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ».

قوله: (باب ما جاء في الرقى والتمائم)

أي من النهي، وما ورد عن السلف في ذلك.

قوله: (في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري: أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولًا: «أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت») هذا الحديث في الصحيحين.

قوله: (عن أبي بشير) بفتح أوله وكسر المعجمة، قيل اسمه قيس بن عبيد، قاله ابن سعد. وقال ابن عبدالبر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابي، شهد الخندق ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: (في بعض أسفاره) قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

قوله: (فأرسل رسولًا) هو زيد بن حارثة، روى ذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده قاله الحافظ.

قوله: (أن لا يبقين) بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين، و«قلادة» مرفوع على أنه فاعل. و«الوتر» بفتحتين، واحد أوتار القوس. وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره وقلدوا به الدواب، اعتقادًا منهم أنه يدفع عن الدابة العين(١).

قوله: (أو قلادة إلا قطعت) معناه: أن الراوي شك هل قال شيخه: قلادة من وتر أو قال: قلادة. وأطلق ولم يقيده؟ ويؤيد الأول ما روي عن مالك: أنه سُئِلَ عن القلادة؟ فقال: «ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر» ولأبي داود: «ولا قلادة». بغير شك.

قال البغوي في شرح ألسنة: تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد، على أنه من أجل العين. وذلك أنهم كانوا يشدون تلك الأوتار والتمائم ويعلقون عليها العُوذ،

---

(١) وأصل معنى القلادة: ما يوضع في العنق من الحلي والزينة للنساء؛ والحبل يوضع في عنق الدابة لتقاد به. ومثل ذلك ما يعلقه بعض الناس اليوم على السيارات من صورة قرد ونحوه وما يضعه بعضهم على أبواب البيوت والحوانيت من حدوة حمار أو حصان، وتعليق سنابل من الحنطة أو غير ذلك كله من عمل الجاهلية المنهي عنه أشد النهي وقد يصل إلى الشرك الأكبر عند بعضهم حين يعتقد فيه أنه هو الذي يدفع حقيقة الضر والسوء.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرُّقَى والتَّمائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ» رواه أحمد وأبو داود.

يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئًا.

قال أبو عبيد: كانوا يقلدون الإبل الأوتار؛ لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلامًا لهم بأن الأوتار لا ترد شيئًا. وكذا قال ابن الجوزي وغيره.

قال الحافظ: ويؤيده حديث عقبة بن عامر، رفعه: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له» رواه أبو داود، وهي ما عُلِّق من القلائد خشية العين ونحو ذلك. انتهى.

قال المصنف: (وعن ابن مسعود: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» رواه أحمد وأبو داود).

وفيه قصة، ولفظ أبي داود: عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت: «إن عبدالله رأى في عنقي خيطًا؛ فقال: ما هذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذه ثم قطعه ثم قال: أنتم آل عبدالله لأغنياء عن الشرك[1] سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك» فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت. فقال عبدالله: إنما ذلك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا كف عنها. إنما كان يكفيك، أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: «أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقمًا» ورواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

قوله: (إن الرقى) قال المصنف: (وهي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركًا هي التي يستعان فيها بغير الله، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته؛ والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن جائز أو مستحب.

قوله: (فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة) كما تقدم ذلك في (باب من حقق التوحيد). وكذا رخص في الرقى من غيرها؛ كما في صحيح مسلم عن عوف بن مالك: كنا نرقى في الجاهلية؛ فقلنا: يارسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «أعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا» وفي الباب أحاديث كثيرة.

---

(١) من أول الحديث إلى هنا ليس في سنن أبي داود في باب تعليق التمائم. وهو عند ابن ماجه بلفظ: «كانت عجوز تدخل علينا من الحمرة، وكان لنا سرير طويل القوائم وكان عبدالله إذا دخل تنحنح وصوت، فدخل يومًا، فلما سمعت صوته احتجبت منه؛ فجاء فجلس إلى جانبي فمسني فوجد مس خيط؛ فقال: ما هذا؟ فقلت: رقي لي فيه من الحمى؛ فجذبه فقطعه فرمى به، ثم قال: لقد أصبح آل عبدالله أغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ.. إلخ».

«التَّمائِمُ»: شيء يُعلق على الأولاد عن العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرَخّص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

قال الخطابي: وكان عليه السلام قد رَقى ورُقي، وأمر بها وأجازها؛ فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفرًا أو قولًا يدخله الشرك.

قلت: من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها؛ وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم. وبنحو هذا ذكر الخطابي.

وقال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقى به فضلًا عن أن يدعو به، ولو عُرف معناه: لأنه يُكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخَّص لمن لا يُحسن العربية؛ فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعارًا فليس من دين الإسلام[١].

وقال السيوطي: قد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: أن يكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

قوله: (والتمائم) قال المصنف: (شيء يعلق على الأولاد عن العين) وقال الخلخالي: التمائم جمع تميمة وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام؛ لدفع العين، هذا منهي عنه. لأنه لا دافع إلا الله، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته.

قال المصنف: (لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف. وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه. منهم ابن مسعود).

اعلم أن العلماء - من الصحابة والتابعين فمن بعدهم - اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته، فقالت طائفة يجوز ذلك، وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص[٢] وهو ظاهر ما روي عن عائشة. وبه قال أبو جعفر الباقر وأحمد في رواية. وحملوا

---

(١) وذلك مثل قول أرباب الطرق الصوفية في أورادهم «كركدن كرددن دهده، أصباءوات أهيا شراهيا جلجلوت» وأمثالها مما يقولون عنه أنه ذكر الله، فهذا كله ليس من دين الإسلام في شيء، لأن الإسلام عربي مبين، وهذا غيره يدل على أن أصل هذه الطرق الصوفية خدعة يهودية هندية فارسية يونانية، كادوا بها للمسلمين ففرقوهم شيعًا وأحزابًا وملأوا قلوبهم من الشرك في الإلهية والشرك في الربوبية، فوصلوا من ذلك إلى ما يريدون من تقويض الدولة الإسلامية.

(٢) الرواية بذلك ضعيفة. ولا تدل على هذا. لأن فيها أن ابن عمرو كان يحفظه أولاده الكبار. ويكتبه في ألواح ويعلقه في عنق الصغار فالظاهر أنه كان يعلقه في اللوح ليحفظه الصغير لا على أنه تميمة والتميمة تكتب في ورقة لا في لوح. وبدليل تحفيظه الكبار. وكيفما كان فهو عمل فردي من عبدالله بن عمرو لا يترك به حديث رسول الله ﷺ وعمل كبار الصحابة الذين لم يعملوا مثل عبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

. . . .

الحديث على التمائم التي فيها شرك.

وقالت طائفة: لا يجوز ذلك، وبه قال ابن مسعود وابن عباس. وهو ظاهر قول حذيفة، وعقبة بن عامر وابن عكيم، وبه قال جماعة من التابعين، منهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم بها المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه(١).

قلت: هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل:

الأول: عمومُ النهي ولا مخصِّص للعموم. والثاني: سدُّ الذريعة، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك. الثالث: أنه إذا عُلق فلا بد أن يمتهنه المُعلِّق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك(٢).

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضي الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك غربة الإسلام، خصوصًا إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة: من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي حق الله تعالى إليها من دونه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

(١) في قرة العيون: والمقصود بيان أن هذه الأمور الشركية وإن خفيت فقد نهى عنها رسول الله ﷺ وأصحابه لكمال علمهم بما دلّت عليه «لا إله إلا الله» من نفي الشرك قليله وكثيره لتعلق القلب بغير الله في دفع الضر أو جلب نفع؛ وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعاف مضاعفة، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك كما تقدم بيانه، وفيه ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من التحذير من الشرك والتغليظ في إنكاره وإن كان من الشرك الأصغر فهو أكبر من الكبائر.

(٢) ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله ومناقضة لما جاءت به(*) ومحادة لله ولرسوله، فإن الله أنزل القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان وشفاء لما في الصدور ولا يزيد الظالمين إلا خسارًا. وإنه لتذكرة للمتقين. وإنه لحسرة على الكافرين. وإنه لحق اليقين. ولم ينزل القرآن ليُتخذ حجبًا وتمائم. ولا ليتلاعب به المتأكلون به الذين يشترون به ثمنًا قليلًا. والذين يقرؤونه على المقابر وأمثال ذلك مما ذهب بحرمة القرآن وجرأ الرؤساء على ترك الحكم به.

(*) قوله: (ولأن فعل ذلك استهزاء أشد استهزاء بآيات الله، ومناقضة لما جاءت به) إلخ. أقول هذه فيه نظر، والصواب أن تعليق التمائم ليس من الاستهزاء بالدين بل من الشرك الأصغر، ومن التشبه بالجاهلية، وقد يكون شركًا أكبر على حسب ما يقوم بقلب صاحب التعليق من اعتقاد النفع فيها، وأنها تنفع وتضر دون الله عزّ وجلّ، وما أشبه هذا الاعتقاد أما إذا اعتقد أنها سبب للسلامة من العين أو الجن ونحو ذلك فهذا من الشرك الأصغر، لأن الله سبحانه لم يجعلها سببًا، بل نهى عنها وحذر وبين أنها شرك على لسان رسوله ﷺ. وما ذاك إلا لما يقوم بقلب صاحبها من الالتفات إليها والتعلق بها ولو كان تعليقها استهزاء بآيات الله سبحانه لكن ذلك كفرًا وردة عن الإسلام كما قال الله عز وجل ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٦٥، ٦٦]، ولا نعلم أحدًا من أهل العلم قال إن تعليق التمائم استهزاء بآيات الله ولأن الواقع من المعلقين يخالف ذلك فإنهم إنما يعلقون التمائم من القرآن والسنة رجاء نفعها وبركتها، لا لقصد الاستهزاء بها، وهذا بين واضح لمن تأمل. والله المستعان.

و«الرُّقَى»: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخَّصَ فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة.

[يونس: ١٠٦، ١٠٧] ونظائرها في القرآن أكثر من أن تحصر.

قوله: (التولة) قال المصنف: (هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته). وبهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث. كما في صحيح ابن حبان والحاكم: «قالوا: ياأبا عبد الرحمن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء يصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن».

قال الحافظ: التولة - بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففًا - شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر[١]. والله أعلم.

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى.

قال المصنف: (وعن عبدالله بن عكيم مرفوعًا: «من تعلق شيئًا وُكِلَ إليه» رواه أحمد والترمذي). ورواه أبو داود والحاكم. وعبدالله بن عكيم: هو بضم المهملة مصغرًا؛ ويكنى أبا معبد؛ الجهني الكوفي. قال البخاري: أدرك زمن النبي ﷺ ولا يعرف له سماع صحيح وكذا قال أبو حاتم. قال الخطيب: سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة، وذكر ابن سعد عن غيره أنه مات في ولاية الحجاج.

قوله (من تعلق شيئًا وكل إليه) التعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما[٢] «وكل إليه» أي وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ إليه، وفوض أمره إليه، كفاه وقرب إليه كل بعيد ويسّر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك: وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب. قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشام بن القاسم: حدثنا أبو سعيد المؤدب: حدثنا من سمع

---

(١) وإن زعم الذين يصنعونها للنساء أنهم مسلمون ومتدينون، وأن ما يكتبونه من القرآن وأسماء الله، فإنهم يفعلون ذلك تضليلًا بالقرآن وإلحادًا فيه، لأنهم يكتبونه على طريقة اليهود حروفًا مقطّعة وبمداد خاص؛ ويمزجونه بأدعية جاهلية وبخطوط يزعمونها على صورة خاتم سليمان الذي كان فيه سر ملكه - كما يزعم اليهود الذين يعتقدون كفر سليمان - وأنه كان يسخر الجن بالسحر لا بمعجزة من الله. وعلى هذه العقيدة اليهودية الدجالون الذين يكتبون التمائم والتولات، ويزعمون أن للحروف والأسماء خدامًا يقومون بما يطلب منهم من الأعمال السحرية ويتخذون أنواعًا من البخور والأدوات المخصوصة التي يوحي بها شياطينهم. وكل ذلك من الكفر العظيم.

(٢) في قرة العيون: التعلق يكون بالقلب وينشأ عنه القول والفعل. وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله وهو ينافي قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١٢] فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد؛ وإن كان من الشرك الأكبر كعبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك فهو كفر بالله، وخروج عن دين الإسلام، ولا يصح معه قول ولا عمل.

و«التِّوَلَة»: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وعن عبدالله بن عُكَيم مرفوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ» رواه أحمد والترمذي

وروى الإمام أحمد عن رُويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ «يا رُويفع، لَعَلَّ الحَياةَ سَتطولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا أَو اسْتَنْجَى بِرَجيع دابَّةٍ أو

عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت فقلت: حدثني حديثًا أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: ياداود؛ أمَا وعزتي وعظمتي، لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي - أعرف ذلك من نيته - فتكيده السمٰوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن مخرجًا. أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأيّ أوديتها هلك».

قال المصنف: (وروى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يارويفع؛ لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وترًا أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمدًا بريء منه).

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة. وفيه قصة اختصرها المصنف. وهذا لفظ الحسن: حدثنا ابن لهيعة: حدثنا عياش ابن عباس عن شُييم بن بيتان قال: حدثنا رويفع بن ثابت قال: «كان أحدنا في زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش وللآخر القدح. ثم قال لي رسول ﷺ. الحديث». ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان حدثني الفضل حدثنا عياش بن عباس أن شُييم بن بيتان أخبره، أنه سمع شيبان القتباني. الحديث[1]. ابن لهيعة فيه مقال. وفي الإسناد الثاني شيبان القتباني، قيل فيه: مجهول. وبقية رجالهما ثقات.

قوله: (لعل الحياة ستطول بك) فيه علم من أعلام النبوة، فإن رويفعًا طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميرًا عليها، وهو من الأنصار. وقيل مات سنة ثلاث وخمسين.

قوله: (فأخبر الناس) دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصًا برويفع، بل كل

---

(١) الحديث رواه أبو داود في باب ما ينهى عنه أو يستنجى به، حدثنا يزيد بن خالد بن عبدالله بن موهب الهمداني، أخبرنا المفضل - يعني ابن فضالة المصري - عن عياش بن عباس القتباني - بكسر القاف - أن شييم بن بيتان أخبره عن شيبان القتباني: أن مسلمة ابن مخلد استعمل رويفع بن ثابت على أسفل الأرض قال شيبان: فسرنا معه - إلخ. ثم ساق له سندًا آخر، حدثنا يزيد بن خالد، حدثنا مفضل عن عياش: أن شييم بن بيتان أخبره بهذا الحديث أيضًا عن أبي سالم الجيشاني عن عبدالله بن عمرو. اهـ. وليس في أحدهما ابن لهيعة وقال المنذري: ورواه النسائي.

عَظْمٍ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

وعن سعيد بن جُبير قال: «مَنْ قَطَعَ تَميمَة مِنْ إِنْسانٍ كانَ كعِدْلِ رَقَبَة» رواه وكيع.

وله عن إبراهيم قال: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمائِمَ كُلَّها، مِنَ القُرْآنِ وغَيْرِ القُرْآنِ».

من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبو زُرعة في شرح سنن أبي داود.

قوله: (أن من عقد لحيته) بكسر اللام لا غير؛ والجمع لحًى، بالكسر والضم. قاله الجوهري.

قال الخطابي: أما نهيه عن عقد اللحية فيُفسَّر على وجهين: أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم؛ وذلك من زي بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قال أبو السعادات: تكبرًا وعجبًا. ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث وقال أبو زرعة بن العراقي: والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع وفيه: «أن من عقد لحيته في الصلاة»(١).

قوله: (أو تقلد وترًا) أي جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته وفي رواية محمد بن الربيع «أو تقلد وترًا - يريد تميمة».

فإذا كان هذا فيمن تقلد وترًا فكيف بمن تعلق بالأموات، وسألهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات، الذي جاء النهي عنه وتغليظه في الآيات المحكمات؟

قوله: (أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمدًا بريء منه) قال النووي: أي بريء من فعله، وهذا خلاف الظاهر. والنووي كثيرًا ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها فيغفر الله تعالى له. [بل هو بريء من الفاعل، وفعله].

وفي صحيح مسلم، عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «لا تستنجوا بالروث ولا العظام فإنه زادُ إخوانكم من الجن» وعليه لا يجزي الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد، لما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ نهى أن يُستنجى بعظم أو روث، وقال: إنهما لا يطهران».

قوله: (وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواه وكيع) هذا عند أهل العلم له حكم الرفع، لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي ويكون هذا مرسلًا لأن

---

(١) في قرّة العيون: قلت ويشبه هذا ما يفعله كثير من فتل أطراف الشارب فيترك أطرافه لذلك وهي بعضه، وفي حديث زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يأخذ من شاربه فليس منا» رواه أحمد والنسائي والترمذي وقال: صحيح، وفي الصحيح: «خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى». وذلك يدل على الوجوب، وذكر ابن حزم الإجماع على أنه فرض فيتعين النهي عنه لذلك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانية: تفسير التولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على مَن تعلق وترا.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبدالله.

سعيدًا تابعي[1]. وفيه فضل قطع التمائم لأنها شرك. ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي، ثقة إمام، صاحب تصانيف منها الجامع وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

قوله: (وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن) وإبراهيم هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكنى أبا عمران ثقة من كبار الفقهاء. قال المِزي: دخل على عائشة، ولم يثبت له سماع منها. مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: (كانوا يكرهون التمائم). إلى آخره، مراده بذلك أصحاب عبد الله بن مسعود، كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خُثيم، وسويد بن غفلة وغيرهم، وهم من سادات التابعين وهذه الصيغة يستعلمها إبراهيم في حكاية أقوالهم كما بين ذلك الحفاظ العراقي وغيره.

❊ ❊ ❊

(١) في قرة العيون: فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التمائم والترغيب في قطعها وأن ذلك مما يجب؛ وفيه مع ما تقدم أنه شرك، وبيان حال السلف رضي الله عنهم من تعظيم الشرك قليله وكثيره والنهي عنه، فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة صار إنكار هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب إلى العلم كما لا يخفى.

٨ - باب
من تبرّك بشجرة أو حجر ونحوهما

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠].

قوله: (باب من تبرك بشجرة أو حجر ونحوهما) كبقعة وقبر ونحو ذلك، أي فهو مشرك.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾) الآيات [النجم:١٩، ٢٠] وكانت اللات لثقيف، والعُزى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال. وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة.

فأما (اللات) فقرأ الجمهور: بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس، وابن الزبير، ومجاهد، وحميد، وأبو صالح، ورُوَيس بتشديد التاء.

فعلى الأولى قال الأعمش: سموا اللات، من الإله؛ والعزى، من العزيز. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات، مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا قال: وكذا العزّى، من العزيز.

وقال ابن كثير: اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف، له أستار وسدنة. وحولها فناء معظم عند أهل الطائف - وهم ثقيف ومن تبعها - يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش؛ قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار.

وعلى الثانية قال ابن عباس: «كان رجلًا يلُتّ السويق للحاج؛ فلما مات عكفوا على قبره» ذكره البخاري. قال ابن عباس: «كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلوه عليها؛ فلما مات ذلك الرجل، عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظامًا لصاحب السويق»[١] وعن مجاهد نحوه وقال: «فلما مات عبدوه» رواه سعيد بن منصور. وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «أنهم عبدوه» وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم.

قلت: لا منافاة بين القولين. فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهًا وتعظيمًا.

ولمثل هذا بُنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثانًا، وفيه بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام.

---

(١) وفي النهاية: السلاء السمن. وفي فتح الباري: ج ٨ ص ٤٣٣. وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أبي الجوزاء عن ابن عباس - ولفظه فيه زيادة - «كان يلت السويق على الحجر، فلا يشرب منه أحد إلا سمن، فعبدوه» واختلف في اسم هذا الرجل فعن مجاهد: «كان رجلًا في الجاهلية على صخرة بالطائف وعليها له غنم فكان يسلؤ من رِسلها. ويأخذ من زبيب الطائف والأقط فيجعل منه حيسًا ويطعم من يمر به من الناس. فلما مات عبدوه. وزعم بعض الناس أنه عامر بن الظرب». اهـ مختصرًا.

. . . .

وأما «العزى» فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة - بين مكة والطائف - كانت قريش يعظمونها. كما قال أبو سفيان يوم أحد: «لنا العزّى ولا عزّى لكم». فقال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال: لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزّى، وكانت على ثلاث سَمُرات - فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره. فقال: «ارجع فإنك لم تصنع شيئًا»، فرجع خالد، فلما أبصرته السَّدَنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون: يا عزّى يا عزّى، فأتاها خالد فإذا امرأة عريانة ناشرةٌ شعرَها تحفن التراب على رأسها: فعمها بالسيف فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره. فقال: «تلك العزّى» قلت: وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفي المشاهد.

وأما «مَناة» فكانت بالمشلّل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج. وأصل اشتقاقها: من اسم الله المنان، وقيل: لكثرة ما يُمنَى - أي يُراق - عندها من الدماء للتبرك بها.

قال البخاري رحمه الله، في حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها: «إنها صنم بين مكة والمدينة» قال ابن هشام: «فبعث رسول الله ﷺ عليًا فهدمها عام الفتح» فمعنى الآية كما قال القرطبي: أن فيها حذفًا تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة؛ أنفعت أو ضرت، حتى تكون شركاء لله تعالى؟

وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ قال ابن كثير: تجعلون له ولدًا وتجعلون ولده أنثى وتختارون لأنفسكم الذكور؟ قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي جور وباطلة. فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا فتنزهون أنفسكم عن الإناث وتجعلونهن لله تعالى، وقوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي: من تلقاء أنفسكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ليس لهم مستند إلا حسنُ ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم[1] ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وإلا حظُّ

---

(١) الظن هنا: ظن المشركين بأوليائهم أنها تسمع الدعاء وتجيب، فإنهم ليس لهم علم بذلك لا من طريق حواسهم، ولا من خبر صادق؛ وإنما هو مما يشيعه السدنة ترويجًا لتجارتهم الخاسرة. ويزيد الجاهلين تعلقًا بأوليائهم من دون الله، ما تهوى أنفسهم من قضاء حاجتهم بغير الأسباب الكونية؛ فهم يعظمون أولئك الموتى لهوى أنفسهم وقضاء وطرهم لا حبًّا في الإيمان والمؤمنين. ولذلك تراهم يتنقلون من ميت إلى آخر؛ إذا لم يجدوا مسألتهم قضيت عند الأول. وهكذا ترى السدنة إذا انتقلوا من وظيفة عند هذا الولي الذي كان في نظرهم كبيرًا أصبح الولي الذي انتقلوا عند قبره أعظم بركة وأكثر كرامات، والله يقول: إن هؤلاء جميعًا لا يتبعون إلا هوى أنفسهم وهم كاذبون أعظم الكذب في دعواهم حب الأولياء الصالحين.

عن أبي واقد الليثي قال: «خَرَجْنا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلى حُنَيْن ونَحْنُ حُدَثاءُ عَهْدٍ بِكفر،

أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين. قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ قال ابن كثير: ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له. اهـ.

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عُبّاد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها: بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها، والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها، ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك. فالتبرك بقبور الصالحين - كاللات - وبالأشجار [والأحجار] - كالعزّى ومناة(١) - من ضمنِ فعلِ أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك؛ على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك. فالله المستعان.

قوله: (عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سِدْرَة يعكُفون عندها وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا يا رسول الله: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر إنها السنن! قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]: لتركبنَّ سنن من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه).

أبو واقد اسمه الحارث بن عوف، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة قاله الترمذي. وقد رواه أحمد وأبو يعلى وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه.

قوله: (عن أبي واقد) قد تقدم ذكر اسمه في قول الترمذي وهو صحابي مشهور مات سنة ثمان وستين وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (خرجنا مع رسول الله ﷺ يوم حُنين) وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألف ونيف حتى إذا كنا بين حنين والطائف» - الحديث.

قوله: (ونحن حدثاء عهد بكفر) أي قريبٌ عهدنا بالكفر، ففيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة. ذكره المصنف رحمه الله.

(١) ما كانوا يتبركون بالعزى ومناة على أنها أحجار مجرّدة، وإنما كانوا يعتقدون فيها البركة من العزى التي كانت امرأة يزعمون أنها ولية ودفنت عند هذه الشجيرات. وكذلك مناة. ولذلك سموا الأشجار: العزى والحجر: مناة؛ كما يسمي الناس اليوم النحاس الذي يقام على القبر حسينًا وزينب وغيرهما من الصالحين، فهم يتبركون بها على هذه العقيدة الجاهلية.

ولِلْمُشْرِكينَ سِدْرَة يَعْكِفونَ عِنْدَها. ويَنوطونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقالُ لَها: ذاتُ أَنْواط، فَمَرَرْنا بِسِدْرَةٍ؛ فَقُلْنا: يا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنا ذاتَ أَنْواط كَما لَهُمْ ذاتُ أَنْواط. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللهُ أَكْبَر، إِنَّها السَّنَن. قُلْتُمْ، والَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَما قالَتْ بَنُو إِسْرائيل لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل

قوله: (وللمشركين سدرة يعكفون عندها) العكوف هو الإقامة على الشيء في المكان، ومنه قول الخليل عليه السلام ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركًا بها وتعظيمًا لها(١) وفي حديث عمرو: «كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط وكانت تعبد من دون الله».

قوله: (وينوطون بها أسلحتهم) أي يعلقونها عليها للبركة.

قلت: ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عُبدت الأشجار ونحوها.

قوله: (فقلنا: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط) قال أبو السعادات: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط وهو مصدر سُمّيَ بها المنوط. ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجل قدرًا من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

قوله: (فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر) وفي رواية: (سبحان الله) والمراد: تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان، مما لا يجوز أن يطلب أو يُقصَدُ به غير الله، وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب تعظيمًا لله وتنزيهًا له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هَضْم للربوبية أو الإلهية.

قوله: (إنها السنن) بضم السين أي الطرق.

قوله: (قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة) شبه مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل، بجامع أن كلًّا طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان. فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة.

ففيه الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يستحسن شيئًا يظن أنه يقربه إلى الله، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه، ولا يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور، ومن الغلو فيها وصرف جل العبادة لها، ويحسبون أنهم على شيء وهو الذنب الذي لا يغفره الله.

قال الحافظ أبو محمد عبدالرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بابن أبي شامة في كتاب البدع والحوادث: ومن هذا القسم أيضًا ما قد عَمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة،

---

(١) كما يعكف اليوم عباد القبور عندها، ويجاورون، معتقدين أن لهم بذلك الزلفى والقربى ويعتقد الجاهلون لهم ذلك فيعاونونهم بالنذور لتلك القبور والصدقات قربة لأولئك الموتى. وكل ذلك من الشرك الأكبر.

لَنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. لَتَرْكَبن سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم»

تخليق الحيطان والعُمُد وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد؛ يحكي لهم حاك: أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يَعْظُمَ وقْعُ تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي: من عيون وشجر وحائط وحجر، وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة: كعوينة الحمَّى خارج باب تُوما، والعمود المخلَّق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة، خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق سهَّل الله قطعها واجتثاثَها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث(١). انتهى.

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ما ذكره أبو شامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر؛ أي: تقبل العبادة من دون الله؛ فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، وسيأتي ما يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد».

وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسنًا وطلبوه من النبي ﷺ حتى بيّن لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف:١٣٨] فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة؟! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلهية والربوبية، فأكثروا فعله واتخذوه قربة.

وفيها: أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط. فالمشرك مشرك وإن سمى شركه ما سماه. كمن يسمى دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيمًا ومحبة، فإن ذلك هو الشرك؛ وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك.

---

(١) وفي مصر كذلك من هذه القبور المنامية ونحوها كقبر الحسين وزينب رضي الله عنهما؛ وكثير مما يسمى بالأربعين؛ بناء على عقيدة أخبث من عقيدة أهل الجاهلية الأولى، وهي عقيدة أن الولي يتشكل في أربعين جسمًا، وزعم الدبّاغ مبالغة في الوقاحة والضلال: أنه يكون للولي ثلاثمائة وستون جسمًا. وكم في غير مصر من هذه المواضع الشركية من قبور وأشجار وأحجار، عجل الله بتطهير البلاد منها كما طُهِّر الحجاز بيد جلالة الملك عبد العزيز آل سعود، مد الله في حياته ووفق أبناءه للقيام بمثل عمله الصالح وأعلى بهم منار الإسلام.

رواه الترمذي وصححه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا(١).

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

قوله: (لتركُبن سُنن من كان قبلكم) بضم الموحدة وضم السين أي: طرقهم ومناهجهم وقد يجوز فتح السين على الإفراد أي طريقهم. وهذا خبر صحيح. والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له.

وفيه عَلم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ.

وفي الحديث: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دلّ الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التنبيه على مسائل القبر، أما: من ربك؟ فواضح. وأما: من نبيك؟ فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما: ما دينك؟ فمن قولهم: اجعل لنا إلهًا إلخ. وفيه: أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافًا لمن ادعى خلاف ذلك، وفيه الغضب عند التعليم، وإن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه قاله لنا لنحذره) قاله المصنف رحمه الله.

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين فممنوع من وجوه:

منها: أن السابقين الأولين من الصحابة ومَن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي ﷺ، لا في حياته ولا بعد موته. ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، وأفضل الصحابة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة؛ وما فعله

---

(١) يعني أنهم لم يطلبوا منه أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه من دون الله، لأنهم كانوا أجل وأعقل من ذلك، وإنما طلبوا شجرة يأذن لهم النبي فيها فيتبركون بها ويعلقون عليها أسلحتهم دون أن يصلوا أو يتصدقوا لها؛ فبين لهم أن ما طلبوا من التبرك - ولو لم يكن صلاة ولا صيامًا ولا صدقة - هو الشرك بعينه. وفيه إبطال لشبهة مشركي هذا الزمان وزعمهم أن ما يفعلونه تبرك وتعظيم لا بأس به.

(٢) أي: اليهود والنصارى، وقد وقع كما أخبر به ﷺ في هذه الأمة، فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا، كما هو في الأحاديث الصحيحة كحديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: يارسول الله، اليهود والنصارى. قال: فمن؟» وهو في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ وفي رواية «ومن الناس إلا أولئك؟»

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم في الأمر بل رد عليهم بقوله: «اللهُ أَكْبَرُ، إِنَّها السَّنَن؛ لتتبعن سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم» فغلّظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طَلِبتهم كطَلِبة بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾.

التاسعة: أن نفْيَ هذا من معنى: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» مع دِقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفُتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدّوا بهذا.[1]

الثانية عشرة: قولهم: «ونَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكفر» فيه أن غيرهم لا يجعل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خِلَافًا لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إِنَّها السَّنَن».

الثامنة عشرة: أن هذا عَلم من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن ما ذمّ الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقرّر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما «مَنْ رَبّكَ»؟ فواضح. وأما «مَنْ نَبِيّكَ» فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما «ما دينُكَ»؟ فمن قولهم «اجْعَلْ لَنا» إلى آخره.

الحادية والعشرون: أن سُنة أهل الكتاب مذمومة كسنّة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة؛ لقولهم: ونحن حدثاء عهد بكفر.

أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين هم الأسوة. فلا يجوز أن يُقَاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الأمة، وللنبي ﷺ في حال الحياة خصائص كثيرة لا يَصلُحُ أن يشاركه فيها غيره.

ومنها: أن في المنع عن ذلك سدًّا لذريعة الشرك كما لا يخفى.

---

(١) ليس ما طلبوه من الشرك الأصغر؛ ولو كان منه لما جعله النبي ﷺ نظير قول بني إسرائيل: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ وأقسم على ذلك، بل هو من الشرك الأكبر كما أن ما طلبه بنو إسرائيل من الأكبر. وإنما لم يكفروا بطلبهم لأنهم حدثاء عهد بالإسلام، ولأنهم لم يفعلوا ما طلبوه ولم يقدموا عليه بل سألوا النبي ﷺ فتأمل.

٩ - باب
ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قوله: (باب ما جاء في الذبح لغير الله) أي: من الوعيد وأنه شرك بالله

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي[1] وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾) الآية [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قال ابن كثير: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته، لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى. قال مجاهد: النُّسُك: الذبح في الحج والعمرة. وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي. وكذا قال الضحاك. وقال غيره: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: وما آتيه في حياتي، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح. ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: خالصًا لوجهه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ﴾: الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: من هذه الأمة لأن إسلام كل نبي متقدم.

قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله، كانت دعوتُهم إلى الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وذكر آيات في هذا المعنى.

ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن الله تعالى تعبّد عباده أن يتقربوا إليه بالنسك، كما تعبّدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد

---

(١) في قرة العيون: يشمل الفرائض والنوافل، والصلوات كلُّها عبادةٌ، وقد اشتملت على نوعي الدعاء، دعاء المسألة ودعاء العبادة: فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة، وما كان فيها من الحمد والثناء والتسبيح والركوع والسجود وغير ذلك من الأركان والواجبات فهو دعاء عبادة، وهذا هو التحقيق في تسميتها صلاة، لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغة وشرعا(*) قرره شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالى.

(*) وهي مأخوذة من «الصلة» لأنها الصلة والمنحة التي وصل الله بها حبيبه محمدًا ﷺ ومنحه إياها في ليلة الوصل الأعظم: ليلة المعراج. وهي أقوى صلة بين العبد وبين ربه، لأنه فيها يناجي ربه كما في الأحاديث، ومن ثم كانت قرة عين رسول الله ﷺ وكانت مفزعة عند كل أمر يهمه. وكانت الفارق بين المسلم والكافر. فمن تركها فلا حظ له في الإيمان بالله وحبه. ولا صلة بينه وبين ربه مهما حاول.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

عن علي رضي الله عنه قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمات: «لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنارَ الأَرْضِ» رواه مسلم.

جعلوا لله شريكًا في عبادته، وهو ظاهر في قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ نفي أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح[1].

قوله: (﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين وهما: الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَته، عكسَ حال أهل الكِبْر والنُّفرة، وأهل الغِنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر، ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ الآية، والنسك: الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه. فإنهما أجلّ ما يُتقرَّب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر. وأجلُّ العبادات البدنية: الصلاة، وأجل العبادات المالية: النحرُ. وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها - كما عرفه أرباب القلوب الحية - وما يجتمع له في النحر - إذا قارنه الإيمان والإخلاص - من قوة اليقين وحسن الظن: أمر عجيب، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة، كثير النحر. اهـ.

قلت: وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيرًا، فمن ذلك: الدعاء والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجود والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالى، والإقبال عليه بالقلب؛ وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة، وكل هذه الأمور من أنواع العبادة التي لا يجوز أن يُصرف منها شيء لغير الله: وكذلك النسك يتضمن أمورًا من العبادة، كما تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

قوله: (وعن علي بن أبي طالب قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله؛ ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى مُحدِثًا، ولعن الله من غيّر منار الأرض» رواه مسلم) من طرق وفيه قصة.

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبي طفيل قال: «قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسرّه إليك رسول الله ﷺ فقال: ما أسّر إليّ شيئًا كتمه الناس؛ ولكن سمعته يقول: لعن الله من ذبح لغير

---

(١) في قرة العيون: والمقصود أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائنًا من كان، فمن صرف منها شيئًا لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. والقرآن كله في تقرير هذا التوحيد في عبادته وبيانه ونفي الشرك والبراءة منه.

. . . .

الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيّر تُخُوم الأرض»، يعني: المنار.

وعلي بن أبي طالب: هو الإمام أمير المؤمنين أبو الحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ وزوج ابنته فاطمة الزهراء؛ كان من أسبق السابقين الأولين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه، قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين.

قوله: (لعن الله) اللعن: البعدُ عن مظانِّ الرحمة ومواطنها، قيل: واللعين والملعون من حَقّت عليه اللعنة؛ أو دُعِيَ عليه بها. قال أبو السعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه: إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلِّي سبحانه على من استحق الصلاة من عباده. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٣،٤٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب:٦١] والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبَلغه رسولَه محمدًا ﷺ، وجبريل سمعه منه كما سيأتي في الصلاة إن شاء الله تعالى، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم. فالله تعالى هو المصلِّي وهو المثيب، كما دل على ذلك الكتاب والسنة؛ وعليه سلف الأمة. قال الإمام أحمد رحمه الله: «لم يزل الله متكلمًا إذا شاء».

قوله: (من ذبح لغير الله) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾[1]

---

(١) وفي سورة المائدة الآية الثالثة. وسورة الأنعام الآية (١٤٥) وسورة النحل الآية (١١٥) ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ وأصل الإهلال: رفع الصوت والإعلام، فالمقصود بما أهل به لغير الله: ما أعلن عنه أنه منذور به لغير الله. سواء كان هذا الإهلال والإعلام قبل الذبح كأن يقال: هذه شاة السيدة فلانة والسيد فلان؛ فيعرف الناس ذلك، وأنها مهل بها لغير الله ولو سمى الذابح بسم الله. فإن هذه التسمية اللفظية لاغية. والعبرة بالإهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله. وكذلك أيضًا ما سمى من الطعام أو الشراب أو غيره نذرًا وقربة لغير الله. فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت (*) باسمها وعلى بركتها هو مما أُهلّ به لغير الله.

(*) قوله (وكذلك أيضًا ما يسمى من الطعام والشراب أو غيره نذرًا وقربة لغير الله، فكل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند هذه القبور والطواغيت) الخ. أقول هذا المقام فيه تفصيل فإن كان المراد من ذلك من أن هذا الشرك لكونه عبادة لغير الله وتقربًا إليه فهذا صحيح. لأنه لا يجوز لأحد أن يعبد غير الله بشيء من العبادات لا نبيًّا ولا غيره، ولا ريب أن تقديم الطعام والشراب والنقود وغير ذلك للأموات من الأنبياء والأولياء أو غيرهم أو للأصنام ونحوها رغبة ورهبة، داخل في عبادة غير الله لأن العبادة لله هي ما أمر الله به ورسوله. أما إن كان مراد الشيخ حامد أن النقود والطعام والشراب والحيوانات الحية

. . . .

[البقرة: ١٧٣] ظاهره: أنه مَا ذُبح لغير الله، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا.

وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لفظ به أو لم يلفظ. وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه النصراني للحم وقال فيه: باسم المسيح أو نحوه. كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزُّهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله. وعلى هذا: فلو ذُبِحَ لغير الله متقربًا إليه لحرم[(١)]، وإن قال فيه: باسم الله؛ كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك[(٢)] وإن كان هؤلاء مرتدين، لا تُبَاحُ ذبيحتهم بحال. لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، الأول: أنه مما أُهلّ به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مرتد. ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهلون بمكة وغيرها من الذبح للجن[(٣)]، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن. اهـ.

قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا دارًا أو بنوها أو استخرجوا عينًا ذبحوا ذبيحة خوفًا أن تصيبهم الجن؛ فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزي: أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه، أفتى أهل بُخارَى بتحريمه؛ لأنه مما أُهل به لغير الله.

التي قدمها مُلّاكها للأنبياء والأولياء وغيرهم يحرم أخذها والانتفاع بها فذلك غير صحيح، لأنها أموال ينتفع بها قد رغب عنها أهلها، وليست في حكم الميتة فوجب أن تكون مباحة لمن أخذها، كسائر الأموال التي تركها أهلها لمن أرادها، كالذي يتركه الزراع وجذاذ النخل من السنابل والتمر للفقراء، ويدل على ذلك أن النبي ﷺ أخذ الأموال التي في خزائن اللات، وقضى منها دين عروة بن مسعود الثقفي، ولم يرَ تقديمها للّات مانعًا من أخذها عند القدرة عليها. ولكن يجب على من رأى من يفعل ذلك من الجهلة والمشركين أن ينكر عليه ويبين له أن ذلك من الشرك حتى لا يظن أن سكوته عن الإنكار أو أخذه لها - إن أخذ منها شيئًا - دليل على جوازها وإباحة التقرّب بها إلى غير الله سبحانه، ولأن الشرك أعظم المنكرات فوجب إنكاره على من فعله.

لكن إذا كان الطعام مصنوعًا من لحوم ذبائح المشركين أو شحمها أو مرقها فإنه حرام، لأن ذبيحتهم في حكم الميتة فتحرم وينجس بها ما خالطته من الطعام، بخلاف الخبز ونحوه ما لم يخالطه شيء من ذبائح المشركين فإنه حِلٌّ لمن أخذه، وهكذا النقود ونحوها كما تقدم والله أعلم.

(١) بل يكون هذا الذبح شركًا أكبر. و: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

(٢) وهم الذين يكتبون الحجب والتمائم والتعاويذ ونحوها، فإنهم يتحرون بها يوم السبت في ساعة كذا أو غيره من الأيام والساعات، ويذبحون ويبخرون عند نزول الكوكب الفلاني في منزلة كذا. ونحو هذا، وهم في البلاد الإسلامية كثير - لا كثرهم الله - ويعتقد العامة فيهم الصلاح والتقوى، مع أنهم مشركون مرتدون مفسدون للعقول بدجلهم بهذه التمائم والحجب ومتخذون آيات الله هزوًا، ومتقربون بهذه المناسك لغير الله، فيا لله ما أشد غربة الإسلام! وإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٣) وغير مكة. باسم الزار وإخراج الجن المتلبس بالإنس. ويدقون لذلك الطبول.

وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ في ذُباب، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ في ذُباب، قالوا: وَكَيْفَ ذلَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قالَ: مَرَّ رَجُلانِ عَلى قَوْمٍ لَهُمْ

قوله: (لعن الله من لعن والديه) يعني أباه وأمه وإن عَلَيا. وفي الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شَتْم الرجل والديه، قالوا: يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: نعم يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه، ويَسُبُّ أمّه فيسب أمّه».

قوله: (لعن الله من آوى محدثًا) أي منعه من أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه. و«آوى» بفتح الهمز ممدودة أي ضمَّه إليه وحماه.

قال أبو السعادات: أويت إلى المنزل، وأويت غيري؛ وآويته. وأنكر بعضهم المقصور المتعدي.

وأما «محدِثا» فقال أبو السعادات: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: مَنْ نصر جانيًا وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقْتص منه. وبالفتح: هو الأمر المبتدَع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه؛ فإنه إذا رضي بالبدعة وأقرَّ فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم.

قوله: (ولعن الله من غيّر منار الأرض) بفتح الميم علامات حدودها.

قال أبو السعادات في النهاية - في مادة «تخم» -: ملعون من غيّر تخوم الأرض أي: معالمها وحدودها، واحدها: تُخْم. قيل: أراد حدود الحرم خاصة وقيل: هو عام في جميع الأرض، وأراد المعالم التي يُهتدى بها في الطريق. وقيل: هو أن يَدخل الرجل في ملك غيره فيقتطعه ظلمًا، قال: ويروى «تَخوم» بفتح التاء على الإفراد وجمعه تُخُم بضم التاء والخاء. اهـ.

وتغييرها: أن يقدمها أو يؤخرها، فيكون هذا من ظلم الأرض الذي قال فيه النبي ﷺ: «من ظَلَم شبرًا من الأرض طُوّقه يوم القيامة من سبع أرضين»[1] ففيه جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين.

وأما لعن الفاسق المعين ففيه قولان: أحدهما: أنه جائز. اختاره ابن الجوزي وغيره. والثاني: لا يجوز، اختاره أبو بكر عبدالعزيز وشيخ الإسلام.

قوله: (وعن طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب، قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: مَرَّ رجلان على قوم لهم

---

(١) رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم عن عائشة، وعن سعيد بن زيد رضي الله عنهما.

صَنَمٌ، لَا يَجوزُهُ أَحَدٌ حَتّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقالوا لِأَحَدِهِما: قَرِّبْ. قالَ: لَيْسَ عِنْدي شَيْءٌ أُقَرِّبُ. قالوا لَهُ: قَرِّبْ ولَوْ ذُبابًا، فَقَرَّبَ ذُبابًا، فَخَلُّوا سَبيلَهُ، فَدَخَلَ النّارَ. وقالوا للآخَرِ: قَرِّبْ، فَقالَ: ما كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دونَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ. فَضَرَبوا عُنُقَهُ

صنم لا يجاوزه أحد حتى يقرِّب له شيئًا. قالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندي شيء أُقرِّب. قالوا: قرِّب ولو ذبابًا. فقرَّب ذبابًا. فخلّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، قال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئًا من دون الله عز وجل، فضربوا عنقه، فدخل الجنة» رواه أحمد).

قال ابن القيم رحمه الله: قال الإمام أحمد رحمه الله[١]: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل رجل الجنة في ذباب» الحديث.

وطارق بن شهاب: هو البجَلي الأحمسي، أبو عبدالله. رأى النبيَّ ﷺ وهو رجل. قال البَغَوي: نزل الكوفة. وقال أبو داود: رأى النبيَّ ﷺ ولم يسمع منه شيئًا. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه فروايته عنه مرسلُ صحابيٍّ وهو مقبول على الراجح؛ وكانت وفاته - على ما جزم به ابن حبان - سنة ثلاث وثمانين.

قوله: (دخل الجنة رجل في ذباب) أي: من أجله.

قوله: (قالوا: وكيف ذلك يارسول الله) كأنهم تقالّوا ذلك، وتعجبوا منه، فبين لهم النبي ﷺ ما صَيّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيمًا، يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.

قوله: (فقال: مرَّ رجلان على قوم لهم صنم) الصنم[٢] ما كان منحوتًا على صورة، ويطلق عليه الوثن كما مر.

قوله: (لا يجاوزه) أي: لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئًا وإن قلّ.

قوله: (قالوا له قرب ولو ذبابًا فقرب ذبابًا فخلوا سبيله، فدخل النار) في هذا بيان عظمة الشرك، ولو في شيء قليل، وأنه يوجب النار[٣]. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ

---

(١) الحديث في كتاب الزهد ص ١٥ س١٨، وفي الحلية ج١ ص ٢٠٣ موقوفًا فيهما كليهما على سليمان - في الزهد - وعلى سلمان - في الحلية -. وهو خطأ في الحلية؛ لأن الحافظ ابن حجر قال في تعجيل المنفعة: سليمان بن ميسرة الأحمسي عن طارق بن شهاب، وعنه الأعمش وحبيب بن أبي ثابت، وثقه ابن معين. وقال ابن حبان في ثقات التابعين: روى عن طارق بن شهاب وله صحبة؛ وقال ابن خلفون في الثقات: وثقة العجلي ويحيى والنسائي. اهـ.

(٢) قال في النهاية: كل ما عبد من دون الله بل كل ما يشغل عن الله يقال له: صنم.

(٣) في قرة العيون: لأنه قصد غير الله بقلبه أو انقاد بعمله فوجبت له النار، ففيه معنى حديث مسلم الذي تقدم في باب الخوف من الشرك عن جابر مرفوعًا: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به دخل النار» فإذا كان هذا فيمن

فَدَخَلَ الجَنَّةَ» رواه أحمد.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَـرْ﴾

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعة: لعن من لعن والديه ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوى محدثًا، وهو الرجلُ يُحدِّث شيئًا يجب فيه حق الله، فيلتجئ إلى من يجيره مِن ذلك.

السادسة: لعن من غيّر منار الأرض، وهي المراسيم التي تُفَرِّق بين حقك وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفي هذا الحديث: التحذير من الوقوع في الشرك؛ وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار.

وفيه: أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداء، وإنما فعله تخلصًا من شر أهل الصنم.

وفيه: أن ذلك الرجل كان مسلمًا قبل ذلك، وإلا فلو لم يكن مسلمًا لم يقل دخل النار في ذباب.

وفيه: أن عمل القلب هو المقصود حتى عند عَبَدة الأوثان، ذكره المصنف بمعناه.

قوله: (وقالوا للآخر: قرِّب. قال: ما كنت لأقرِّب لأحد شيئًا دون الله عز وجل) ففيه بيان فضيلة التوحيد والإخلاص[١].

قرب للصنم ذبابًا فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله، من ميت أو غائب، أو طاغوت أو مشهد أو شجر، أو حجر أو غير ذلك؟ وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يعدون ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شرعت فيه، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله؛ وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه.

(١) في قرّة العيون: ففيه معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الإيمان ونفرتهم عنه وصلابتهم في الإخلاص، كما في حديث أنس الذي في البخاري وغيره الآتي إن شاء الله تعالى: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» وفيه: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

وفيه: تفاوت الناس في الإيمان لأن هذا الرجل الذي قرب الذباب لم يكن له عمل يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم، كما هو ظاهر الحديث والله أعلم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلُّصًا من شرهم[1]

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر ذلك على القتل، ولم يوافقهم على طَلِبتهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: إنَّ الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافرًا لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إلى أَحَدِكُمْ مِنْ شِراكِ نَعْلِهِ، والنَّارُ مثلُ ذٰلِكَ».

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم، حتى عند عبدة الأوثان.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر).

* * *

(١) الظاهر أنه لم يكن متخلصًا وإلا لم يدخل النار: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

١٠ - باب
لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قوله: (باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى)[(١)]

«لا» نافية ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر، قوله: (وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾) الآية [التوبة: ١٠٨] قال المفسِّرون إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار، والأمة تبع له في ذلك، ثم إنه تعالى حثّه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أُسِّس - من أول يوم بني - على التقوى وهي: طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعًا لكلمة المؤمنين، ومعقلًا ومنزلًا للإسلام وأهله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة في مسجد قباء كعمرة» وفي الصحيح: «أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكبًا وماشيًا» وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة؛ وعطية، والشعبي، والحسن وغيرهم.

قلت: ويؤيده قوله في الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾.

وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ لحديث أبي سعيد قال: «تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم، فقال رجل: هو مسجد قُباء. وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: هو مسجدي هذا» رواه مسلم، وهو قول عمر وابنه وزيد ابن ثابت وغيرهم.

قال ابن كثير: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى، وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧] فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة. وكان الذين بنوه جاؤوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يُصَلِّي فيه، وأنهم إنما

---

(١) في قرة العيون: أشار رحمه الله تعالى إلى ما كان الناس يفعلونه في نجد وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد: من ذبحهم للجنّ لطلب الشفاء منهم لمرضاهم، ويتخذون للذبح لهم مكانًا مخصوصًا في دورهم. فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الإسلامية. فللّهِ الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد بطلعة الداعي إلى توحيد رب العالمين.

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: «نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبَوانَة، فَسَأَلَ

بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية، فقال: «إنا على سفَر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله» فلما قفل عليه السلام راجعًا إلى المدينة؛ ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة[1].

وجه مناسبة الآية للترجمة: أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله، كما أن المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك، فلا تجوز الصلاة فيه لله. وهذا قياس صحيح يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي.

قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الأنصاري: «أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء فقال: إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟ فقالوا: والله يارسول الله ما نعلم شيئًا إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا» وفي رواية عن جابر وأنس: «هو ذاك فعليكموه» رواه ابن ماجه وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم.

قوله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ قال أبو العالية: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب، وفيه إثبات صفة المحبة؛ خلافًا للأشاعرة ونحوهم.

قوله: (عن ثابت بن الضحاك قال: «نذر رجل[2] أن ينحر إبلًا ببُوانة، فسأل النبيَّ ﷺ فقال: هل كان فيها وَثَن من أوثان الجاهلية يُعْبَد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أَوْفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما).

قوله: (عن ثابت بن الضحاك) أي: ابن خليفة الأَشْهَلي؛ صحابي مشهور، روى عنه أبو قِلابة وغيره. مات سنة أربع وستين.

قوله: (ببُوانة) بضم الباء وقيل بفتحها. قال البَغَوي: موضع في أسفل مكة دون يَلَمْلَم.

---

(١) كان أبو عامر الفاسق الخزرجي قد ذهب إلى هرقل بعد غزوة أحد، يستعديه على رسول الله ﷺ فوعده هرقل ومناه؛ فأرسل جماعة من قومه من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم: أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عمَّا هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدًا له إذا قدم عليهم، فبنوا هذا المسجد؛ والذي هدمه بأمر النبي ﷺ وحرقه مالك بن الدخشم أخو بني سالم بن عوف ومعن بن عدي أو أخوه عامر بن عدي.

(٢) روى أبو داود بعد هذا الحديث عن سارة بنت مقسم الثقفي أنها قالت: سمعت ميمونة بنت كردم قالت: «خرجت مع أبي في حجة فرأيت رسول الله ﷺ وسمعت الناس يقولون: رسول الله؛ فجعلت أبده بصري، فدنا إليه أبي وهو على ناقة، ومعه دِرَّة كدرة الكتاب؛ فسمعت الأعراب والناس يقولون: الطَّبْطَبِيّة الطبطبية. فدنا إليه أبي فأخذ بقدمه، قالت: فأقرَّ له ووقف فاستمع منه؛ فقال: يا رسول الله، إني نذرت إن ولد لي ولد ذكر أن أنحر على رأس بوانة في عقبة من الثنايا عدة من الغنم - قال: لا أعلم إلا أنها قالت: خمسين - فقال رسول الله ﷺ: هل بها من الأوثان شيء؟ قال: لا. قال: فأوف بما نذرت لله». الحديث.

النَّبِيُّ ﷺ، فَقالَ: هَلْ كانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثانِ الجاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟ قالوا: لَا. قالَ: فَهَلْ كانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيادِهِمْ؟ قالوا: لَا. فَقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا وَفاءَ لِنَذْرٍ في مَعْصِيَةِ اللهِ، ولَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ» رواه أبو داود وإسناده على شرطهما.

قال أبو السعادات: هضبة من وراء يَنْبُع.

قوله: (فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد) فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله. قاله المصنف رحمه الله.

قوله: (فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟) قال شيخ الإسلام رحمه الله[١]: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد، إما بعود السنة أو الأسبوع أو الشهر أو نحو ذلك[٢] والمراد به هنا الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، فالعيد يجمع أمورًا منها: يوم عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماع فيه، ومنها: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات، وقد يختصُّ العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا، وكل من هذه الأمور قد يُسَمَّى عيدًا. فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيدًا» والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس: «شهدت العيد مع رسول الله ﷺ» والمكان كقول النبي ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدًا» وقد يكون لفظ العيد اسمًا لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب، كقول النبي ﷺ: «دعهما ياأبا بكر فإن لكل قوم عيدًا» انتهى[٣].

---

(١) في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم.

(٢) وهي التي يسميها الناس اليوم الموالد والذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء؛ وهي نوع من العبادة لهم؛ ولذلك لا يذكر الناس ويعرفون إلَّا من أقيمت له هذه الذكريات، ولو كان أجهل خلق الله وأفسقهم. فكلما كسدت سوق طاغوت من هؤلاء قامت السدنة بهذا العيد لتُحْيِيَ في نفوس العامة عبادته وتَكْثُر الهدايا والقرابينُ باسمه. وقد امتلأت البلاد الإسلامية بهذه الذكريات، وعمّت بها المصيبة وعادت بها الجاهلية إلى بلاد الإسلام، ولا حول ولا قوّة إلا بالله. ولم ينج منها إلا نجد والحجاز - فيما نعلم - بفضل الله ثم بفضل آل سعود الذين قاموا بحماية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (*).

(*) قوله: (وهي نوع من العبادة لهم) الخ. أقول هذا فيه إجمال، والصواب التفصيل بأن يقال: من أقام المولد لقصد التقرب إلى صاحبه ورجاء نفعه وبركته، أو لكي يدفع عن مقيم المولد بعض الضرر ونحو ذلك، فهذا تعتبر إقامته المولد عبادة لصاحبه فإن دعاه مع ذلك أو استغاث به أو نذر له أو ذبح له أو فعل معه شيئًا من بقية أنواع العبادة صار ذلك شركًا إلى شرك، وهذا هو الذي يفعله الكثيرون ممن يقيم الموالد للنبي ﷺ، أو للحسين رضي الله عنه أو للبدوي أو غيرهم. أما من أقام المولد لقصد التقرب إلى الله سبحانه ظنًّا منه أن ذلك من العبادات التي يحبها الله، فهذا لا يكون عابدًا لصاحب المولد إذا لم يقع منه شيء من الشرك في احتفال المولد، ولكنه قد أتى بدعة لم يشرعها الله سبحانه، ولا رسوله ﷺ، ولا فعله السلف الصالح رضي الله عنهم ولو كان قصده حسنًا، لأن العبادات توقيفية لا يجوز الإتيان بشيء منها إلا بتشريع من الله ورسوله ﷺ، ولقد عظمت المصيبة بهذه الموالد وحصل بها من الشرك والفساد ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يُصْلِحَ أحوال المسلمين ويمنحهم الفقه في الدِّين ويوفقهم لاتباع السنة وترك البدعة إنه سميع قريب.

(٣) في قرة العيون: وقد أحدث هؤلاء المشركون أعيادًا عند القبور التي تعبد من دون الله ويسمونها عيدًا كمولد البدوي بمصر

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض. وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

قال المصنف: (وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله).

قلت: وفيه سد الذريعة وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: (فأوف بنذرك) هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله - أي في محل أعيادهم - معصية، لأن قوله: «فأوف بنذرك» تعقيب للوصف بالحكم بالفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم. فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين. فلما قالوا: «لا» قال: «أوف بنذرك» وهذا يقتضي أن كون البقعة مكانًا لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم: مانع من الذبح بها ولو نذره. قاله شيخ الإسلام.

وقوله: (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله) دليل على أن هذا نذر معصية، لو قد وجد في المكان بعض الموانع. وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء.

واختلفوا هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد. أحدهما: يجب وهو المذهب. وروى عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه؛ لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين» رواه أحمد وأهل السنن[١]، واحتج به أحمد وإسحاق. والثاني: لا كفارة عليه. ورُوِيَ ذلك عن مسروق

وغيره بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة. قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه استفصال المفتي والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله.

قلت: وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلًّا للعبادة لكونها صارت محلًّا لما حرم الله من الشرك والمعاصي، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادة لله فلا نفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتخذت محلًّا لما يسخط الله تعالى، فبهذا صار الحديث شاهدًا للترجمة والمصنف - رحمه الله تعالى - لم يُرِدْ التخصيص بالذبح وإنما ذكر الذبح كالمثال. وقد استشكل جعل محل اللات بالطائف مسجدًا.

والجواب والله أعلم: أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تفتتن به قلوب الجهال فيرجع إلى جعله وثنا. كما كان يفعل فيه أولًا فجعله مسجدًا والحالة هذه ينسى فيها ما كان يفعل فيه ويذهب به أثر الشرك بالكلية، فاختص هذا المحل لهذه العلة وهي قوة المعارض والله أعلم.

(١) قال الترمذي: هذا حديث لا يصح. لأن الزهري لم يسمع هذا الحديث من أبي سلمة وقال غيره: لم يسمعه الزهري من أبي سلمة وإنما سمعه من سليمان بن أرقم وسليمان متروك. وقال مثل هذا أبو داود بعد إخراجه إياه.

السادسة: المنع منه، إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.

السابعة: المنع منه، إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

والشعبي والشافعي، لحديث الباب، ولم يذكر فيه كفارة. وجوابه: أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم. والمطلق يحمل على المقيد.

قوله: (ولا فيما لا يملك ابن آدم) قال في شرح المصابيح: يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله عليّ أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك. فأما إذا التزم في الذمة شيئًا؛ بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله علي أن أعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شُفي مريضه ثبت ذلك في ذمته.

قوله: (رواه أبو داود وإسناده على شرطهما) أي البخاري ومسلم.

وأبو داود: اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد، ومصنف السنن والمراسيل وغيرهما. ثقة إمام حافظ من كبار العلماء. مات سنة خمس وسبعين ومائتين. رحمه الله تعالى.

* * *

١١ - باب
من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وقوله ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قوله: (باب: من الشرك النذر لغير الله تعالى)

أي لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله، فيكون النذر لغير الله تعالى شركًا في العبادة.

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر ومَدْح من فعل ذلك طاعةً لله ووفاءً بما تقرب به إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات، من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك: مجازاتُه على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه. اهـ.

إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عباد القبور، تقربًا بها إليهم ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب. كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما ما نُذر لغير الله: كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوقات، فإن كليهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قال النبي ﷺ: «من حلف وقال في حلفه: واللات والعزّى فليقل لا إله إلا الله»(١).

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دُهْنًا يتنوّر به - ويقول: إنها تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين -: وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به وكذلك إذا نذر مالًا للسّدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة. فإن فيهم شبهًا من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدُّون عن سبيل الله، والمجاورون هناك فيهم شبه من

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾؟ والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد في الهند[١] والمجاورين عندها[٢].

وقال الرافعي في شرح المنهاج: وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حَلّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين فإن قصد الناذر بذلك - وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة - تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها أو نسبت إليها، أو بنيت على اسمه فهذا النذر باطل غير منعقد؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء ويُستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء - حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لمَّا قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح - وينذرون لبعض القبور السُّرج والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض؛ أو قدوم غائب أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقًا. ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء: فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركًا وتعظيمًا، ظانًّا أن ذلك قُرْبَة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا.

قال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهَد، كأن يكون للإنسان غائبٌ أو مريض أو له حاجة؛ فيأتي إلى [قبر] بعض الصلحاء

---

(١) في القاموس: البُد - بضم الباء - الصنم، معربُ بُت والجمع بددة - كقردة - وأبداد كخرج وأخراج وهو اسم لصنم من أصنام الهنود.

(٢) في قرة العيون: وذلك لأن الناذر لله وحده علَّق رغبته به وحده لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع: فتوحيد القصد هو توحيد العبادة - ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله - والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركًا بالله لالتفاته إلى غيره تعالى فيما يرغب فيه أو يرهب فقد جعله شريكًا لله في العبادة فيكون قد أثبت ما نفته (لا إله إلا الله): من إلهية غير الله، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص، وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رحمه الله تعالى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفته: «لا إله إلَّا الله» فعكس مدلولها، فأثبت ما نفته ونفى ما أثبتته من التوحيد، وهذا معنى قول شيخنا. وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب. فكل شرك وقع أو قد يقع، فهو ينافي كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد.

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ، فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ».

ويجعل على رأسه سترة؛ ويقول: ياسيدي فلان؛ إن رد الله غائبي أو عوفي مريضي، أو قضيتَ حاجتي فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا؛ أو من الشمع والزيت كذا. فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه؛ منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة والعبادة لا تكون لمخلوق، ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك، ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله، واعتقاد ذلك كفر - إلى أن قال -: إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليها: فحرام بإجماع المسلمين.

نقله عنه ابن نجيم في البحر الرائق، ونقله المُرشديُّ في تذكرته وغيرُهما عنه وزاد: قد ابتلى الناس بهذا لا سيما في مولد البدوي[1].

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله؛ فيكون باطلًا. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ الأنعام: ١٢١] ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام ١٦٢، ١٦٣] والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره.

قوله: (وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»).

قوله: (في الصحيح) أي صحيح البخاري.

قوله: (عن عائشة) هي أم المؤمنين؛ زوج النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع سنين، ودخل بها وهي ابنة تسع[2]. وهي أفقه النساء مطلقًا، وهي أفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة ففيها خلاف[3]. ماتت سنة سبع وخمسين على

---

(١) أحمد البدوي بطنطا لا يعرف له تاريخ صحيح، واضطربت الأقوال فيه؛ والمشهور أنه كان جاسوسًا لدولة الملثمين. وكان داهية في المكر والخديعة. وقبره أكبر الأصنام في الديار المصرية؛ مثل هبل الأكبر أو اللات في الجاهلية. يؤتى عنده من أنواع الشرك الأكبر، وتقدم له من النذور، ويجعل له الفلاحون النصف والربع في أنعامهم وزروعهم، بل وأولادهم، فيأتي الرجل بنصف مهر ابنته ويضعه في الصندوق قائلًا: هذا نصيبك يا بدوي، ويقام له كل عام ثلاثة موالد يشد الرحال إليها الناس من أقصى القطر المصري؛ ويجتمع في المولد أكثر من ثلاثمائة ألف حاج إلى هذا الصنم الأكبر، عجَّل الله بهدمه وحرقه هو وغيره من كل صنم في مصر وغيرها.

(٢) عقد عليها قبل الهجرة بسنة. وبنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر تقريبًا.

(٣) في قرة العيون: بل لا يقال: خديجة أفضل، ولا عائشة أفضل. والتحقيق أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة من سبقها إلى الإيمان بالنبي ﷺ وتأييده في تلك الحال التي بُدِئ بالوحي فيها كما في صحيح البخاري وغيره، فما زالت كذلك حتى توفيت رضي الله عنها قبل الهجرة، ولعائشة من العلم بالأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة لعلمها

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة لله فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الصحيح رضي الله عنها.

قوله: (من نذر أن يطيع الله فليطعه) أي: فليفعل ما نذره من طاعة الله. وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه، كأن شفى الله مريضي فعليَّ أن أتصدّق بكذا ونحو ذلك وجب عليه، إن حصل له ما علّق نذره على حصوله. وحكي عن أبي حنيفة: أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم، وأما ما ليس كذلك كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به.

قوله: (ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) زاد الطحاوي «وليكفر عن يمينه» وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

قال الحافظ: اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا: هل ينعقد موجبًا للكفارة أم لا؟ - وتقدم - وقد يستدل بالحديث على صحة النذر في المباح؛ كما هو مذهب أحمد وغيره، يؤيده ما رواه أبو داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأحمد والترمذي عن بريدة: «أن امرأة قالت: يارسول الله إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّف، فقال: أوفي بنذركِ» وأما نذر اللّجاج والغضب فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة يمين، لحديث عمران بن حصين مرفوعًا: «لا نذر في غضب، وكفارته كفارة يمين» رواه سعيد بن منصور وأحمد والنسائي، فإن نذر مكروهًا كالطلاق استحب أن يكفِّر ولا يفعله.

* * *

بأحوال النبي ﷺ ونزول القرآن وبيان الحلال والحرام، وكان الصحابة رضي الله عنهم بعد وفاته ﷺ يرجعون إليها فيما أُشْكِل عليهم من أحوال النبي ﷺ وحديثه صلوات الله وسلامه عليه ورضي عن أصحابه وأزواجه.

١٢ - باب
من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قوله: (باب من الشرك الاستعاذة بغير الله)

«الاستعاذة»: الالتجاء والاعتصام، ولهذا يسمى المستعاذ به: معاذًا وملجأ فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه، إلى ربه ومالكه؛ واعتصم واستجار به والتجأ إليه؛ وهذا تمثيل، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله؛ والاعتصام به، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه؛ والتذلل له، أمر لا تحيط به العبارة. قاله ابن القيم رحمه الله.

وقال ابن كثير: الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر. والعياذ يكون لدفع الشر. واللياذ لطلب الخير. انتهى.

قلت: وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فما كان عبادة لله فصرْفُه لغير الله شرك في العبادة، فمن صرف شيئًا من هذه العبادات لغير الله جعله شريكًا لله في عبادته ونازع الرب في إلهيته كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابدًا لغير الله، ولا فرق، كما سيأتي تقريره قريبًا إن شاء الله تعالى.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾)[1] [الجن: ٦].

قال ابن كثير: أي: كنا نرى أن لنا فضلًا على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا، أي: إذا نزلوا واديًا أو مكانًا متوحشًا من البراري وغيرها، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم. كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا، أي: خوفًا وإرهابًا وذعرًا، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم - إلى أن قال - قال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم «رهقًا» أي: خوفًا. وقال العوفي عن ابن

---

(١) في قرة العيون: قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رجال من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية فيقول: أعوذ بعزيز هذا الوادي فزادهم ذلك إثمًا، وقال بعضهم: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بالجن - باستعاذتهم بعزيزهم جراءة - عليهم وازدادوا هم بذلك إثمًا. وقال مجاهد: فازداد الكفار طغيانًا، وقال ابن زيد: وزادهم الجن خوفًا.

وعن خَولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقالَ: أَعوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَّامّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يضرهُ شَيْءٌ حَتّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذٰلِكَ» رواه مسلم.

عباس «فزادوهم رهقًا» أي: إثمًا، وكذا قال قتادة. اهـ.

وذاك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بواد قفر وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه؛ يريد كبير الجن، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال مُلا علي قاري الحنفي: لا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك - وذكر الآية - وقال: قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيّبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصًا.

قال المصنف: (وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك).

قوله: (وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلًا فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق، لم يضرّه شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» رواه مسلم).

هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال إنها هي الواهبة[١] وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مظْعون.

قال ابن عبدالبر: وكانت صالحة فاضلة.

قوله: (أعوذ بكلمات الله التامات) شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلًا عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

قال القرطبي: قيل: معناه الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه الشافية الكافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن. فإن الله أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤ ويونس: ٥٧ والإسراء: ٨٢] وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى. ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته: أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه؛ ويحضر ذلك في قلبه؛ فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

---

(١) التي وهبت نفسها للنبي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك الحديث. لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة. قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع لا يدل على أنه ليس من الشرك.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويذ التي لا يعرف معناها خشية أن يكون فيها شرك.

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب فقد عبده، وإن لم يسمّ ذلك عبادة ويسميه استخدامًا. وصَدَقَ، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خَدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان؛ لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به اهـ.

قوله: (من شر ما خلق) قال ابن القيم رحمه الله: أي من كل شر في أيّ مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسيًّا كان أو جنيًّا، أو هامة[1] أو دابة، أو ريحًا أو صاعقة، أو أيّ نوع كان، من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة.

و«ما» ههنا موصولة وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدي الوصفي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله، فإن الجنة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يُفضِي إليه.

قوله: (لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك) قال القرطبي: هذا خبر صحيح وقول صادق علمنا صدقه دليلًا وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهديّة ليلًا، فتفكرت في نفسي فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات.

---

(١) الهامة: ما كان أهل الجاهلية يتوهمونه طائرًا أو شبهه تتصور فيه روح المقتول لا تزال تنادي على قبره بالأخذ بثأره. وهي خرافة من خرافاتهم أبطلها الإسلام، وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر».

١٣ - باب
من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعوه غيره

قوله: (باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره)

قال شيخ الإسلام رحمه الله: الاستغاثة هي طلب الغَوْث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار: طلب النصر. والاستعانة: طلب العون.

وقال غيره: الفرق بين الاستغاثة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة، لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطفُ الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص. فبينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها في مادة؛ فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاء استغاثة.

وقوله: (أو يدعو غيره) اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة؛ ودعاء مسألة؛ ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحدًا من دونه ممن لا يملك ضرًّا ولا نفعًا؛ كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦] وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكل دعاءِ عبادةٍ مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاءِ مسألة متضمن لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٤٠، ٤١] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] وأمثال هذا في القرآن - في دعاء المسألة - أكثر من أن يحصر، وهو يتضمن دعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات؛ وكذلك الذاكر لله والتالي لكتابه ونحوه، طالب من الله في المعنى، فيكون داعيًا عابدًا.

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة؛ كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد قال تعالى عن خليله: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

. . . .

وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ٥ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩] فصار الدعاء من أنواع العبادة، فإن قوله: ﴿ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ : كقول زكريا: ﴿إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه كقوله: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ٥ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٥، ٥٦] وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة؛ فإن الداعي يرغب إلى المدعو ويخضع له ويتذلل.

وضابط هذا: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به ففِعْله لله عبادة؛ فإذا صرف من تلك العبادة شيئًا لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ [الزمر: ١٤] وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في الرسالة السنية: فإذا كان على عهد النبي ﷺ - ممن انتسب إلى الإسلام - من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضًا من الإسلام لأسباب منها: الغُلُو في بعض المشايخ؛ بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: ياسيدي فلان، انصرني أو أغثني، أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قُتل. فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل؛ وأنزل الكتب، ليُعبد وحده لا شريك له، ولا يُدعَى معه إله آخر. والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل: المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق، أو تُنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم؛ يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [يونس: ١٨] فبعث الله سبحانه رسله تنهى عن أن يُدْعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. اهـ.

وقال أيضًا: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم كفرَ إجماعًا.

نقله عنه صاحب الفروع وصاحب الإنصاف وصاحب الإقناع وغيرهم. وذكره شيخ الإسلام ونقلتُه عنه في الرد على ابن جِرْجيس في مسألة الوسائط.

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه - يعني الشرك - طلبُ الحوائج من الموتى؛ والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم. فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

. . . .

وقال الحافظ محمد بن عبدالهادي رحمه الله في رده على السبكي في قوله: «إن المبالغة في تعظيمه - أي: الرسول ﷺ - واجبة».

إن أُريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيمًا، حتى الحجَّ إلى قبره والسجودَ له، والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع؛ وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرِّج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء؛ ويدخل الجنة من يشاء فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين.

وفي الفتاوى البَزّازية - من كتب الحنفية -: قال علماؤنا: «من قال: أرواح المشائخ حاضرة تعلم يكفر».

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله - في كتابه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة -: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يَدّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات، وبهممهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات؛ مستدلين أن ذلك منهم كرامات وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة؛ وأربعون وأربعة، والقطب: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور، قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأمة وما اجتمعت عليه الأمة وفي التنزيل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ثم قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات؛ فيردُّه قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ﴾ [النمل: ٦٠] ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٩] ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء ما، بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفًا وملكًا، وإماتة وخلقًا. وتمدّح الربُّ تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؟ [فاطر: ٣] ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ○ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] وذكر آياتٍ في هذا المعنى.

ثم قال: فقوله في الآيات كلها «من دونه» أي من غيره. فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته؛

. . . .

من وَلِيٍّ وشيطان تستمده، فإنَّ من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمدُّ غيره؟! - إلى أن قال -: إن هذا لقولٌ وخيم، وشرك عظيم - إلى أن قال -: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨] وفي الحديث «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث» الحديث[1] فجميع ذلك وما هو نحوه دال على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسَكَة وأن أعمالهم منقطعة عن زيادة ونقصان، فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلًا عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره؟! فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة!!: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدٍّي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم ابنة عمران، وأُسيد بن حضير، وأبي مسلم الخولاني.

قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢] ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤] وذكر آيات في هذا المعنى، ثم قال: فإنه جل ذكره قرر: أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير. فهو المتفرد بذلك، فإذا تعين هو - جل ذكره - خرج غيره: من مَلَك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يالَزيدٍ، يالَلمسلمين، بحسَب الأفعال الظاهرة. وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد: كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه، فمن خصائص الله لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثيرَ منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم. فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير الله -

(١) رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

من نبيٍّ أو وليٍّ أو روح أو غير ذلك - في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيرًا فقد وقع في وادي جهل خطير فهو على شفا حفرة من السعير وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاشا لله أن تكون أولياء الله بهذه المثابة، فهذا ظن أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر - من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه: أشرك مع الله، إذ لا قادر على الدفع غيره ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ما قالوا: إن منهم أبدالًا ونقباء، وأوتادًا ونجباء، وسبعين وسبعة وأربعين وأربعة، والقطب: هو الغوث للناس. فهذا من موضوعات إفكهم، كما ذكره القاضي المحدث في سراج المريدين؛ وابن الجوزي، وابن تيمية. انتهى باختصار.

والمقصود أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمَّت بها البلوى واعتقدها أهل الأهواء. فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب. والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل. ومن قال قولًا بلا برهان فقوله ظاهر البطلان؛ مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان المتمسكون بمحكم القرآن؛ المستجيبون لداعي الحق والإيمان. والله المستعان؛ وعليه التكلان.

قال: (وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦] قال ابن عطية: معناه قيل لي: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ فهو عطف على ﴿أَقِمْ﴾ وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ. إذا كانت هكذا فأحرى أن يحذر من ذلك غيره. والخطاب خرج مخرج الخصوص وهو عام للأمة.

قال أبو جعفر بن جرير في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: «ولا تدع يامحمد من دون معبودك وخالقك شيئًا لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا» يعني بذلك: الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدها راجيًا نفعها أو خائفًا ضرَّها فإنها لا تنفع ولا تضر. فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: من المشركين بالله الظالم لنفسه[1].

قلت: وهذه الآية لها نظائر كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾

---

(١) فالظلم في هذه الآية هو الشرك كما قال تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] بل هو أظلم الظلم كما في الحديث عن ابن مسعود: «أظلم الظلم أن تجعل لله ندًا وهو خلقك» لأنه اغتصاب حق الربوبية من العبادة والدعاء والنذر ونحوه وصرفه للعبد الذي لا يستحقه.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

[الشعراء: ٢١٣] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [القصص: ٨٨] ففي هذه الآيات بيان: أن كل مدعو يكون إلهًا، والإلهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره. ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التغابن: ١٣] كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والدين: كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة. وفسره ابن جرير في تفسيره بالدعاء - وهو فرد من أفراد العبادة - على عادة السلف في التفسير؛ يفسرون الآية ببعض أفراد معناها. فمن صرف منها شيئًا لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك فقد اتخذه معبودًا وجعله شريكًا لله في الإلهية التي لا يستحقها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] فتبين بهذه الآية ونحوها أن دعوة غير الله كفر وشرك وضلال.

وقوله: (﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾)[1] فإنه المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون كل ما سواه. فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده، المعبود وحده، فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢] فهذا ما أخبرَ به الله تعالى في كتابه من تفرده بالإلٰهية والربوبية، ونصبَ الأدلةَ على ذلك. فاعتقد عُبّاد القبور والمشاهد نقيضَ ما أخبر به الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره، بسؤالهم والالتجاء إليهم بالرغبة والرهبة

---

(١) في قرة العيون: هذا في حق المستغيث أخبر الله تعالى: أنه هو الذي يتفضل على من سأله ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئًا من فضل الله عليه. فهو المعطي والمانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس. وفيه: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك» فمن تدبر هذه الآية وما في معناها علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم، والشرك الذي لا يغفر، وأنهم قد أثبتوا ما نفته: «لا إله إلا الله» من الشرك في الإلهية؛ ونفوا ما أثبتته من الإخلاص كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] والدين هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه، ونهى عنه وحرمه. وأعظم ما أمر به التوحيد والإخلاص؛ وألّا يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذي خلقه لعبادته، وأرسل بذلك رسله، وأنزل به كتبه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ﴾ [النساء: ١٦٥] وأعظم ما نهى عنه: الشرك به في ربوبيته وإلهيته.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

والتضرع، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته وإلهيته. وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله، وكانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك؛ لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك، فجعلوا لهم نصيبًا من التصرف والتدبير، وجعلوهم معاذًا لهم، وملاذًا في الرغبات والرهبات: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقوله: (﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾) أي لمن تاب إليه.

قال: (وقوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾) يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق منه وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقًا من السمٰوات والأرض شيئًا. فتقديم الظرف يفيد الاختصاص وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص، فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ أي: فاطلبوا. ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: لا عند غيره، لأنه المالك له؛ وغيره لا يملك شيئًا من ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي: على ما أنعم عليكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله.

قال (وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

نفى سبحانه أن يكون أحد أضلّ ممن يدعو غيره، وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة، والآية تعم كل من يُدْعَى من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦]، وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه. ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ فتناولت الآية كل داع وكل مدعو من دون الله[1].

---

(١) في قرة العيون: وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميت أو غائب، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقًا من طاغوت ووثن، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران. ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾ كما قال في آية

. . . .

قال أبو جعفر ابن جرير في قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يقول تعالى ذكره: وإذا جُمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداء، لأنهم يتبرأون منهم ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرناهم ولا شعرنا بعبادتهم إيانا. تبرأنا إليك منهم يا ربنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨].

قال ابن جرير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الملائكة والإنس والجن[(١)] وساق بسنده عن مجاهد قال: عيسى وعزير والملائكة، ثم قال: يقول تعالى ذكره[(٢)]: قالت الملائكة - الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله - وعيسى: تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ نواليهم ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١] انتهى.

قلت: وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومَن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم: الصلاة لغةً

يونس: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩] ثم قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده، فيتبرأ منه ومن عبادته وينكر ذلك عليه أشد الإنكار؛ وقد صار المدعو للداعي عدوًّا؛ ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فدلت أيضًا على أن دعاء غير الله عبادة له، وأن الداعي له في غاية الضلال.

وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما عم وطم، حتى أظهر الله من يبينه بعد أن كان مجهولًا عند الخاصة والعامة إلا من شاء الله تعالى؛ وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان؛ لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دعوهم إلى توحيد الله جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

ويشبه هذه الآية في المعنى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤] أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله وأنه لا يغفره لمن لقيه به.

فتدبر هذه الآيات وما في معناها كقوله: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى.

(١) سياق ابن جرير هكذا؛ يقول تعالى ذكره: ويوم نحشر هؤلاء المكذبين بالساعة العابدين الأوثان وما يعبدون من دون الله من الملائكة والإنس والجن.

(٢) أي: عند تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

. . . .

الدعاء، وقد قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ الآيتين، وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] وقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ الآية [فصلت: ٤٩]. وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٩].

وفي حديث أنس مرفوعًا: «الدعاء مُخُّ العبادة» وفي الحديث الصحيح: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة». وفي آخر: «من لم يسأل الله يغضب عليه» وحديث: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء». رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه. وقوله: «الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السماوات والأرض» رواه الحاكم وصححه. وقوله: «سلوا الله كل شيء حتى الشِّسع إذا انقطع» الحديث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (أفضل العبادة الدعاء) وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ الآية [غافر: ٦٠]. رواه ابن المنذر والحاكم وصححه. وحديث: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان» الحديث. وحديث: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد» وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر، في الدعاء الذي هو السؤال والطلب، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفًا وخلفًا.

وأما ما تقدَّم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلَّامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة ودعاء عبادة. وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر. فذلك باعتبار كون الذاكر والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك وغيره طالبًا في المعنى. فيدخل في مسمى الدعاء بهذا الاعتبار، وقد شرع الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصحُّ الصلاة إلا به؛ كما في الفاتحة وبين السجدتين وفي التشهد، وذلك عبادة كالركوع والسجود. فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد.

ومما يبين هذا المقام ويزيده إيضاحًا. قول العلَّامة ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]: وهذا الدعاء، المشهور، أنه دعاء المسألة. قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول مرة: «ياالله» ومرة «يارحمن» فظن المشركون أنه يدعو إلهين فأنزل الله هذه الآية. ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقيل: إن الدعاء هنا بمعنى التسمية، والمعنى: أيّ اسم سميتموه به، من أسماء الله تعالى، إما «الله» وإما «الرحمن» فله الأسماء الحسنى. وهذا من لوازم المعنى في الآية. وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطّرد في القرآن. وهو دعاء السؤال

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢].

ودعاء الثناء.

ثم قال: إذا عرف هذا فقوله ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه. قال الحسن: «بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفًا. ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء ولم يسمع لهم صوت إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم». وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فُسِّرت الآية قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني؛ وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعًا. وهذا يأتي في مسألة الصلاة وإنها [هل] نقلت عن مسماها في اللغة وصارت حقيقة شرعية، [أو] استعملت في هذه العبادة مجازًا للعلاقة بينهما وبين المسمى اللغوي [أو] هي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط؟ فعلى ما قررناه: لا حاجة إلى شيء من ذلك؛ فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء: إما دعاء عبادة وثناء؛ أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع. اهـ ملخصًا من البدائع.

قال: (وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢] بين تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف السوء إلا الله وحده[1]. فذكر ذلك سبحانه محتجًا عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ يعني يفعل ذلك. فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده. وهذا أصح ما فسرت به الآية كسابقتها من قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ○ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦٠، ٦١] - ولاحقتها إلى قوله - ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ○ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٣، ٦٤].

---

(١) في قرة العيون: وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم في جاهليتهم كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا في شدة.

وروى الطبراني بإسناده: «أَنَّهُ كانَ في زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنافِقٌ يُؤْذِي المُؤْمِنينَ، فَقالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مَنْ هٰذا المُنافِقُ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّهُ لَا يُسْتَغاثُ بِي، وَإِنَّما يُسْتَغاثُ بِاللهِ».

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه: من قَصْر العبادة جميعها عليه، كما في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

قال أبو جعفر بن جرير: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ - إلى قوله - ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير، أم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازلَ به، عنه؟ وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم. وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم هذه النعم؟ وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول: تذكرًا قليلًا - من عظمة الله وأياديه عندكم - تذكرون، وتعتبرون حجج الله عليكم يسيرًا. فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته. اهـ.

قوله: (وروى الطبراني: «أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين. فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله»).

الطبراني: هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللَّخْمي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الدَّبْري وخلق كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: (أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين) لم أقف على اسم هذا المنافق.

قلت: هو عبدالله بن أُبي كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته.

قوله: (فقال بعضهم) أي الصحابة رضي الله عنهم؛ هو أبو بكر رضي الله عنه.

قوله: (قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق) لأنه ﷺ يقدر على كف أذاه[1].

---

(١) في قرة العيون: فلعله أراد: أن النبي ﷺ كان يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق، وفي السنة ما يدل على ذلك، كما فعل مع ابن أبي وغيره. وقيل: إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق فيكون نهيه ﷺ عن الاستغاثة به حماية لجناب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك - كنظائره مما للمستغاث به قدرة عليه مما كان يستعمل لغة وشرعًا - مخافة أن يقع من أمته استغاثة بمن لا يضر ولا ينفع ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين، والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك. وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمت به البلوى - كما تقدم ذكره - حتى إنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه؛ كما أشركوهم معه في ألوهيته وعبوديته؛ والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها. والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العامّ على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاء لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفرًا.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.(١)

قوله: (إنه لا يستغاث بي؛ وإنما يستغاث بالله) فيه النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه، كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته، حماية لجناب التوحيد، وسدًّا لذرائع الشرك وأدبًا وتواضعًا لربه، وتحذيرًا للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال، فإذا كان فيما يقدر عليه ﷺ في حياته، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته ويطلب منه أمورًا لا يقدر عليها إلا الله عز وجل؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء - كالبوصيري (٢) والبُرَعي وغيرهم - من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء الذي له الخلق والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره ولا رب سواه. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] في مواضع من القرآن ﴿قُلْ إِنِّى

---

(١) يعني: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

(٢) مثل قوله في البردة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حدوث الحادث العمم

ويزعمون أن البوصيري أعظم من مدح النبي ﷺ، ويذكرونه أكثر مما يذكرون حسان بن ثابت وغيره من الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم في زعمهم لم يبلغوا من الغلو والإطراء ما بلغ البوصيري، وهذا هو الغلو الذي جر إلى الشرك والكفر برسول الله ﷺ كما كفرت النصارى بعيسى ابن مريم عليه السلام من طريق هذا الغلو. وقد حذرنا الله منه في كتابه الكريم بقوله: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١] وحذرنا النبي ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فأنا عبدالله ورسوله» ﷺ، وإنما تعظيمه ﷺ وحبه باتباع سنته وإقامة ملته ودفع كل ما يلصقه الجاهلون بها من الخرافات، فقد ترك أكثر الناس هذا وشغلوا بهذا الغلو والإطراء الذي أوقعهم في هذا الشرك العظيم.

ونحمد الله أن عافانا بفضله وجعلنا مؤمنين برسول الله ﷺ معظمين له، ومحبين بما يحبه الله ورسوله لنا، على مثل ما كان عليه الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وقد عظمت المصيبة بهذا الشرك حتى اتخذ أعداء الرسول - الزاعمون جهلًا وكذبًا حبه - هذه البردة وردًا كالقرآن أو أعظم من القرآن؛ وكتبوها مجودة بماء الذهب كما كتبوا القرآن، وربما اشتدت عنايتهم بها أكثر من القرآن، فلا حول ولا قوّة إلا بالله.

(٣) يعني: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فبالجمع بين الآيتين يظهر أنه لا يقدر أحد من المدعوين أن يجيب الداعي إلا الله.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تُطْلَب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضلَّ ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.[١]

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو الداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: أن هذه هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.[٢]

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عَبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حِمى التوحيد والتأدب مع الله.

لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١]. فأعرض هؤلاء عن القرآن واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات، وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير، فاعتقدوا الشرك بالله دينًا، والهدى ضلالًا، فإنا لله وإنا إليه راجعون. فما أعظمها من مصيبة! عمت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد وبدَّعوا أهل التجريد؛ فالله المستعان.

* * *

---

(١) يعني أن المدعو غافل عن دعاء بما هو مشغول في قبره من نعيم؛ إن كان من المؤمنين الصالحين، كالحسن وأبيه رضي الله عنهما، أو من عذاب أليم، كالتيجاني المشرك الخبيث وابن عربي الحاتمي أكبر الدعاة إلى وحدة الوجود؛ وابن الفارض وأشباههم ممن اتخذه وليًّا معبودًا لعظم ما بنى عليه من القبة؛ أو بالظنون وأتباع الأهواء؛ وهم كثير جدًّا، بل أكثر أولئك الطواغيت منهم؛ ومن أرباب الطرق الدجالين.

(٢) في سورة يونس الآية: ٤٩: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾

١٤ - باب

قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[1] [الأعراف: ١٩١، ١٩٢].

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ أي: في العبادة. قال المفسرون: في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئًا وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكًا للخالق في العبادة التي خلقهم لها؛ وبيّن أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه؟ وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كل مخلوق حتى الملائكة والأنبياء والصالحين. وأشرف الخلق محمد ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول: «اللهم أنت عضُدي ونصيري، بك أُحول وبك أصول، وبك أُقاتل» وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ [الجن: ٢١-٢٣].

فكفى بهذه الآيات برهانًا على بطلان دعوة غير الله، كائنًا من كان، فإن كان نبيًّا أو صالحًا فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضاء به ربًّا ومعبودًا، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبودًا مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠] فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده؛ ونهاهم أن يعبدوا معه غيره، وهذا هو دينه

---

(١) في قرّة العيون: وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء في العبادة، لأنهم مخلوقون فلا يصلح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده، وأخبر أنهم مع ذلك لا يستطيعون لهم نصرًا، أي لمن سألهم النصرة ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فإذا كان المدعو لا يقدر على أن ينصر نفسه فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى.
فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين، وهو: كونهم عبيدًا لمن خلقهم لعبادته والعبد لا يكون معبودًا.
الدليل الثاني: أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم. فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه؛ ورضيه لعباده؛ وهو دين الإسلام، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام قال: «يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة؛ وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان» الحديث.

وقول الله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١) يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه - من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها - بما يدل على عجزهم وضعفهم وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو؛ وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته فكيف إذا عُدمت بالكلية؟ فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وعطاء والحسن وقتادة: «القطمير: اللفافة التي تكون على نواة التمر» كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣] وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣] ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم ما بين ميت، وغائب عنهم، مشتغل بما خلق له، مسخر بما أمر به كالملائكة، ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لأن ذلك ليس لهم؛ فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم، لا استقلالًا ولا واسطة، كما تقدم بعض أدلة ذلك وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فتبين بهذا، أن دعوة غير الله شرك(٢). وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ

---

(١) في قرة العيون: يخبر الخبير أن الملك له وحده والملوك وجميع الخلق تحت تصرفه وتدبيره، ولهذا قال ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يرغب في طلب نفع أو دفع ضر إلى أحد سواه تعالى وتقدس، بل يجب إخلاص الدعاء له الذي هو من أعظم أنواع العبادة؛ وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئًا وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم. ولو فُرِضَ أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي ينكرونه ويتبرؤون ممن فعله معهم فهذا الذي أخبر به الخبير: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ وأخبر أن ذلك الدعاء شرك به، وأنه لا يغفره لمن لقيه به، فأهل الشرك ما صدَّقوا الخبير ولا أطاعوه فيما حكمَ به وشرعَ، بل قالوا: إن الميت يسمع؛ ومع سماعه ينفع، فتركوا الإسلام والإيمان رأسًا كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة.

(٢) وتبين أنهم كانوا يدعون عبادًا صالحين يتبرؤون من الشرك الذي هو دعاء غير الله ويتبرؤون من أولئك المشركين الزاعمين حب أولئك الصالحين وأنهم محسوبون عليهم.

. . . .

ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ قال ابن كثير: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

قال: وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها، قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى، فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

قلت: والمشركون لم يُسلِّموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها[1]، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير: من أن كل معبود يعادي عابده يوم القيامة ويتبرأ منه؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠] أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ قال: يقول ذلك كل شيء كان يُعبد من دون الله.

فالكيِّس يستقبل هذه الآيات - التي هي الحجة والنور والبرهان - بالإيمان والقبول والعمل، فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعًا ولا دفعًا، فضلًا عن غيره.

قوله: (وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه قال: «شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحُدٍ وكُسرت رَباعيته. فقال: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾) [آل عمران: ١٢٨].

قوله: (في الصحيح) أي: الصحيحين. علَّقه البخاري، قال: وقال حميد وثابت عن أنس، ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس، ووصله مسلم عن ثابت عن أنس، وقال ابن إسحاق في المغازي: حدثنا حميد الطويل عن أنس قال: «كُسِرَت رباعية النبي ﷺ يوم أُحد وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟» فأنزل الله الآية.

قوله: (شج النبي ﷺ) قال أبو السعادات: الشج في الرأس خاصة في الأصل؛ وهو أن

---

(١) يعني: قالوا ذلك بلسان حالهم، لأنهم أصرّوا على دعائهم والاستغاثة بهم بعد أن وبخهم الله، بأن الذي يُستَغاث به ويدعى لا بد أن يكون سميعًا بصيرًا بيده الخير. والذي يدل على أنهم لم يكونوا يقولون ذلك بصريح القول: ما حكى الله من جواب قوم إبراهيم وأبيه لما سألهم: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣] فإنهم أعرضوا عن الجواب الصريح عن السؤال. وقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ فجوابهم هذا حيدة عن الجواب المطابق للسؤال.

وفي الصحيح عن أنس قال: «شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُد وكُسِرَتْ رباعِيَّتُهُ، فَقالَ: كَيْفَ يفْلحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» [آل عمران: ١٢٨].

يضربه بشيء فيجرحه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء، وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عُتْبة بن أبي وَقّاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته السفلى[(١)] وأن عبدالله بن شهاب الزهري هو الذي شَجّه في وجهه، وأن عبدالله بن قِمئَة جرحه في وَجنْته، فدخلت حلقتان من حِلَق المِغْفَر في وجنته[(٢)] وأن مالك بن سنان مصّ الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده. فقال له: «لن تمسَّك النار».

قال القرطبي: والرباعية - بفتح الراء وتخفيف الياء - وهي كل سن بعد ثنية.

قال النووي رحمه الله: وللإنسان أربع رباعيات.

قال الحافظ: والمراد أنها كسرت، فذهب منها فلقة ولم تقلع من أصلها.

قال النووي: وفي هذا: وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب، ولتعرف الأمم ما أصابهم ويأتسوا بهم.

قال القاضي: وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المعجزات، ويُلبِّس الشيطان من أمرهم ما لبَّسه على النصارى وغيرهم. انتهى.

قلت: يعني من الغلو، والعبادة.

قوله: (يوم أُحد) هو شرقي المدينة، قال ﷺ: «أُحد جبل يحبنا ونحبه»[(٣)] وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة، فأضيفت إليه.

قوله: (كيف يفلح قوم شجّوا نبيهم) زاد مسلم: «كسروا رباعيته وأدموا وجهه».

قوله: فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[(٤)] قال ابن عطية: كأن النبي ﷺ لحقه في تلك

---

(١) روى ابن إسحاق من حديث سعد بن أبي وقاص قال: «فما حرصت على قتل رجل قط حرصي على قتل أخي عتبة لما صنع برسول الله ﷺ يوم أحد»

(٢) في الطبراني من حديث أبي أمامة قال: «رمى عبدالله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أحد فشج وجهه وكسرت رباعيته فقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: ما لك أقمأك الله، فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة».

(٣) رواه البخاري في الصحيح عن أنس.

(٤) في قرة العيون: وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] والآيات في هذا المعنى كثيرة، والمقصود أن الذي له الأمر كله والملك كله لا يستحق غيره شيئًا من العبادة، ولهذا المعنى قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] فالذي ليس له من الأمر شيء وهو خيرة الله من خلقه ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله وهو الله تعالى، فهذا دينه ﷺ الذي بُعِثَ به وأمر أن يبلغه أمته ويدعوهم إليه كما تقدَّم في باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإياك أن تتبع سبيلًا غير سبيل المؤمنين الذي شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به.

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ - إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكوعِ في الرَّكْعَةِ الأخيرَةِ مِنَ الفَجْرِ -: اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وفُلَانًا، بَعْدَ ما يَقولُ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، رَبَّنَا ولَكَ الحَمْدُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾» الآية.

الحال يأس من فلاح كفار قريش؛ فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك، ودُم على الدعاء لربك.

وقال ابن إسحاق: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

قوله: (وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد. فأنزل الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ وفي رواية: «يدعو على صفوان بن أُمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام» فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾).

قوله: (وفيه) أي: في صحيح البخاري، ورواه النسائي.

قوله: (عن ابن عمر) هو عبدالله بن عمر بن الخطاب، صحابي جليل، شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح، مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها أو في أول التي تليها.

قوله: (إنه سمع رسول الله ﷺ) هذا القنوت على هؤلاء بعد ما شُجَّ وكُسِرَت رباعيته يوم أُحد.

قوله: (اللهم العن فلانًا وفلانًا) قال أبو السعادات: أصل اللعن الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق السب والدعاء. وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: (فلانًا وفلانًا) يعني صفوان بن أُمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، كما بيّنه في الرواية الآتية.

وفيه: جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة، وأن ذلك لا يضر في الصلاة.

قوله: (بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده) قال أبو السعادات: أي أجاب حمده وتقبله. وقال السهيلي: مفعول «سمع» محذوف، لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها. فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه: «سمع الله لمن حمده» باللام المتضمنة معنى: استجاب له. ولا حذف وإنما هو مضمَّن.

قوله: (ربنا ولك الحمد) في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو. قال ابن دقيق العيد: كأن إثباتها دال على معنى زائد؛ لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

وفي رواية: يدعو على صَفوان بن أُمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضد الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له. كما أن الذم يكون على مساوئه مع البغض له.

وكذا قال ابن القيم: وفرق بينه وبين المدح: بأن الإخبار عن محاسن الغير: إما أن يكون إخبارًا مجردًا عن حب وإرادة، أو يكون مقرونًا بحبه وإرادته. فإن كان الأول: فهو المدح؛ وإن كان الثاني فهو: الحمد. فالحمد إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه؛ ولهذا كان خبرًا يتضمن الإنشاء بخلاف المدح، فإنه خبر مجرد. فالقائل إذا قال: «الحمد لله» أو قال: «ربنا ولك الحمد» تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى، باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يُحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

وفيه: التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد، وخالف في ذلك مالك وأبو حنيفة، وقالا: يقتصر على «سمع الله لمن حمده».

قوله: «وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام».

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أُحد: هم، وأبو سفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيهم بل أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم. وفي هذا كله معنى شهادة أن لا إله إلا الله، الذي له الأمر كله، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضلُّ من يشاء بعدله وحكمته.

وفي هذا من الحجج والبراهين: ما يبين بطلان ما يعتقده عُبَّاد القبور، في الأولياء والصالحين - بل في الطواغيت - من أنهم ينفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم. فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب. وذلك عدله سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة.

قوله: (وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: «يامعشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئًا، ياعباس بن عبدالمطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا، ياصفية عمة رسول الله، لا أغني عنك من الله شيئًا، يافاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئًا»).

قوله: (وفيه) أي وفي صحيح البخاري.

قوله: (عن أبي هريرة) اختلف في اسمه. وصحح النووي أن اسمه عبد الرحمن بن

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] فَقالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَها - اشْتَروا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغني عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبّاسَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغْني عَنْكَ مِنَ اللهِ

صخر، كما رواه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة قال: «كان اسمي في الجاهلية عبد شمس ابن صخر فسمِّيت في الإسلام عبدالرحمن» وروى الدُّولابي بإسناده عن أبي هريرة: «أن النبي ﷺ سمّاه عبدالله» وهو دَوْسِيٌّ، من فضلاء الصحابة وحفاظهم، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره[1] مات سنة سبع - أو ثمان أو تسع - وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله: (قام رسول الله ﷺ) في الصحيح من رواية ابن عباس: «صعد رسول الله ﷺ على الصفا».

قوله: (حين أنزل عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ عشيرة الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته؛ لأنهم أحق الناس ببرِّك وإحسانك الديني والدنيوي؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦] وقد أمره الله تعالى أيضًا بالنذارة العامة، كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦] ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

قوله: (يامعشر قريش) المعشر: الجماعة.

قوله: (أو كلمة نحوها) هو بنصب «كلمة»، عطفًا على ما قبله.

قوله: (اشتروا أنفسكم) أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهى عنه، فإن ذلك هو الذي ينجي من عذاب الله لا الاعتماد على الأنساب والأحساب، فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب.

قوله: (لا أُغني عنكم من الله شيئًا)[2] فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين،

(١) روى البخاري في أول البيوع عن سعيد بن المسيب وأبي سلمة بن عبدالرحمن: أن أبا هريرة قال: «إنكم تقولون: إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ﷺ بمثل حديث أبي هريرة؟ وإن إخوتي من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله على ملء بطني؛ فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وكان يشغل إخواني من الأنصار عمل أموالهم. وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصفة أي حين ينسون. وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه: إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعى ما أقول. فبسطتُ نمرة علي حتى إذا قضى رسول الله ﷺ مقالته جمعتها إلى صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء».

(٢) في قرة العيون: هذا هو معنى ما تقدم من أنه تعالى هو المتصرف في خلقه بما شاء مما اقتضته حكمته في خلقه وعلمه بهم، والعبد لا يعلم إلا ما علمه الله، ولا ينجو أحد من عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة له وحده والبراءة من عبادة ما سواه كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] والنبي ﷺ في هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا، وبلغهم وأعذر إليهم. فأنذر قريشًا ببطونها وقبائل العرب في مواسمها؛ وأنذر عمه وعمته وابنته وهم أقرب الناس إليه، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به. وسائر شرائع الإسلام وعبادته.

شَيْئًا، يَا صَفِيَّةَ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، لَا أُغْني عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدٍ، سلِينِي مِنْ مالِي ما شِئْتِ لَا أُغْني عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الذي حرمه الله تعالى، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فأبطل الله ذلك ونزّه نفسه عن هذا الشرك، وسيأتي تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى. وفي صحيح البخاري: «يابني عبد مناف لا أُغني عنكم من الله شيئًا».

قوله: (ياعباس بن عبدالمطلب) بنصب «بن» ويجوز في «عباس» الرفع والنصب. وكذا في قوله: «ياصفية عمة رسول الله، ويافاطمة بنت محمد».

قوله: (سليني من مالي ما شئت)[1] بيّن رسول الله ﷺ أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح.

وفيه: أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا. وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى؛ فإن ما عند الله لا يُنال إلا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به، فإذا كان لا ينفع ابنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك، فغيرهم أولى وأحرى.

وفي قصة عمه أبي طالب معتبر.

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فضلًا عن غيرهم - يتبين لك أنهم ليسوا على شيء: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] أظهر لهم الشيطان الشرك في قالب محبة الصالحين، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. ولا ريب أن محبة الصالحين إنما

---

(١) في قرة العيون: لأن هذا هو الذي يقدر عليه ﷺ، وما كان أمره إلى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه كما في هذا الحديث، ولما مات أبو طالب وكان يحوط رسول الله ﷺ ويحميه ولم ينكر ملة عبدالمطلب من الشرك بالله وقال ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة أن لا إله إلا الله، فلم ينفعه حمايته النبي ﷺ من أن يكون من المشركين ولا الاعتراف بأن النبي ﷺ على الحق بدون البراءة من الشرك، لأنه لم يبرأ من ملة أبيه، فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعة أو غيرها شرك بالله يكون عليه وبالًا في الدنيا والآخرة، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] والآيات في هذا المعنى كثيرة وكذلك الأحاديث والله أعلم. وسيأتي في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين[1].

الثانية: قصة أُحد.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين وخلفه سادات الأولياء يؤمّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله. ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ فتاب عليهم فآمنوا.

تحصل بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين، لا باتخاذهم أندادًا من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكًا بالله، وعبادة لغير الله، وعداوة لله ورسله والصالحين من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

قال العلّامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية - بعد كلام سبق -: ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أُمر به وهو محض التوحيد فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم؛ وأن الله عز وجل المنفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم. اهـ.

قلت: ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله من توحيده الذي هو دينهم الذي اتفقوا عليه، ودعوا الناس إليه؛ وفارقوهم فيه إلا من آمن؛ فكيف يقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقّصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية، وتنقّص

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ وقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ لأنه إذا كان النبي ﷺ وهو سيد ولد آدم لا يغني عن قرابته شيئًا. فغيره أولى أن يعجز عن ضر أو نفع لنفسه أو لغيره.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المعيّن في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أُنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

الثانية عشرة: جِده ﷺ بحيث فعل ما نُسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لَا أُغْني عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا» حتى قال: «يَا فاطِمَةَ بِنْت مُحَمَّد لَا أُغْني عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا» فإذا صرَّح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئًا عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم تبين له التوحيد وغربة الدين.

للإلهية وسوء ظن برب العالمين؟!

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرؤوا من كل مشرك ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

* * *

١٥ - باب

قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣].

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾)(١).

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي زال الفزع عنها؛ قاله ابن عباس وابن عمر وأبو عبدالرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم.

وقال ابن جرير(٢): قال بعضهم: الذين فُزِّع عن قلوبهم: الملائكةُ قالوا: وإنما فزّع عن قلوبهم، من غَشْية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي.

وقال ابن عطية: في الكلام حذف يدل عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم، بل عَبَدةٌ مسلمون لله أبدًا؛ يعني منقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم، والمراد:

---

(١) في قرة العيون: وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمور أربعة:

(الأول) أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله، والذي لا يملك مثقال ذرة في السمٰوات ولا في الأرض لا ينفع ولا يضر، فالله تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرّف فيهم وحده.

(الثاني) قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي في السمٰوات والأرض، أي وما لهم شرك مثقال ذرة من السموات والأرض.

(الثالث) قوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ والظهير المعين؛ فليس لله معين من خلقه، بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم، وضرورتهم إلى ربهم فيما قل وكثر من أمور دنياهم وأخراهم.

(الرابع) قوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه. وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعًا من دونه حرم من شفاعة الشفعاء، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] لأن اتخاذ الشفعاء شرك لقوله تعالى في حقهم: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ والمشرك منفية الشفاعة في حقه كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨] وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤] وذلك أن متخذ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه ويرجوه ويخافه ويحبه لما يؤلمه منه وهذه من أنواع العبادة التي لا يصرف منها شيء لغير الله وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص.

(٢) ذكره عن ابن مسعود من عدة طرق، وساق بسنده حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري الآتي بعد صفحة. وقد قال البخاري في تفسير سورة الحجر عن علي بن عبدالله قلت لسفيان: إن إنسانًا روى عنك عن عمرو عن أبي هريرة أنه قرأ «فرغ» بضم الفاء والراء المثقلة المهملة وبالغين المعجمة فقال سفيان: هكذا قرأ عمرو ويعني ابن دينار. فلا أدري سمعه هكذا أم لا؟ قال الحافظ: وهذه القراءة رويت عن الحسن وقتادة ومجاهد. والقراءة المشهورة بالزين والعين المهملة. وقرأهما ابن عامر مبنيًا للفاعل. ومعناه بالزاي والعين المهملة أدهش الفزع عنهم. ومعنى التي بالراء والغين المعجمة: ذهب عن قلوبهم ما حل فيها.

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذا قَضَى اللهُ الأَمْرَ في السَّماءِ ضَرَبَت المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِها خُضْعانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَة عَلى صَفْوان يَنْفُذُهُمْ

الملائكة على ما اختاره ابن جرير، وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مِرْية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار.

وقال أبو حيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به سمعت كَجَرِّ سلسلة الحديد على الصَّفوان، فتفزع عند ذلك تعظيمًا وهيبة. قال: وبهذا المعنى - منْ ذِكْر الملائكة في صدر الآية - تَتَّسِق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشارٌ إليهم من أول قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها[1].

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ﴾ ولم يقولوا ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقًا لقالوا: ماذا خلق؟. انتهى من شرح سنن ابن ماجه.

ومثله الحديث: «ماذا قال ربنا ياجبريل» وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ﴾ أي قالوا: قال الله الحق، وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، كما قال عبدالله بن المبارك - لَمّا قيل له: بما نعرف ربنا؟ قال: «بأنه على عرشه بائن من خلقه» تمسكا منه بالقرآن لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] في سبعة مواضع من القرآن (٧: ٥٣) و(١٤: ٢) و(٣٢: ٤) و(٥٧: ٤).

قوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى.

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربَت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صَفوان؛ يَنْفُذهم ذلك، حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقّ وهو العلي الكبير، فيسمعها مُسترِق السمع - ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكَفِّه فحَرفَها وبَدَّدَ بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»).

---

(١) قال أبو حيان: ولهذا اضطرب المفسرون في تفسيرها.

ذٰلِكَ، حَتّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلوبِهِمْ قالوا: ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: الحَقَّ، وهُوَ العَلِيُّ الكَبيرُ، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِق السَّمَعِ - ومُسْتَرِق السَّمْعِ هٰكَذا بَعْضهُ فَوْقَ بَعْض - وَصَفَهُ

قوله: (في الصحيح) أي: صحيح البخاري[1].

قوله: (إذا قضى الأمر في السماء) أي: إذا تكلم بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراده؛ كما صرح به في الحديث الآتي، وكما روى سعيد بن منصور وأبو داود وابن جرير عن ابن مسعود: «إذا قضى الله بالوحي سمع أهل السموات صَلْصَلَة كَجرِّ السلسلة على الصّفوان».

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله. فقالوا: الحق، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقًّا».

قوله: (ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله) أي: لقول الله تعالى. قال الحافظ: خضعانًا بفتحتين من الخضوع. وفي رواية بضم أوله وسكون ثانيه. وهو مصدر بمعنى خاضعين.

قوله: (كأنه سلسلة على صفوان) أي: كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان، وهو الحجر الأملس.

قوله: (ينفذهم ذلك) هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة «ذلك» أي: القول، والضمير في «ينفذهم» للملائكة، أي: ينفذ ذلك القولُ الملائكة أي: يخلص ذلك القول ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه. وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس: «فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا» وعند أبي داود وغيره مرفوعًا: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون حتى يأتيهم جبريل» الحديث.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ تقدم معناه.

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي: قالوا: قال الله الحقّ، فعلموا أن الله لا يقول إلا الحق.

قوله: (فيسمعها مسترق السمع) أي: يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضًا. وفي صحيح البخاري عن عائشة مرفوعًا: «إن الملائكة تنزل في العنان - وهو السحاب - فتذكر الأمر قُضِيَ في السماء، فتسترق الشياطين السمع؛ فتوحيه إلى الكُهّان».

---

(١) رواه في تفسير قوله ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ من سورة الحجر، وفي تفسير سورة سبأ وغير هذين الموضعين: حدثنا علي بن عبدالله حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا عمرة بن دينار عن عكرمة عن أبي هريرة. ورواه مسلم وأبو داود نحو هذا.

سُفْيانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَها وبَدَّدَ بَيْنَ أَصابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فَيُلْقِيها إِلى مَنْ تَحْتَه. ثُمَّ يُلْقيها الآخَرُ إِلى مَنْ تَحْته. حَتّى يُلْقيها عَلى لِسانِ السَّاحِرِ أَوْ الكاهِنِ، فَرُبَّما أَدْرَكَهُ الشِّهاب قَبْلَ أَنْ يُلْقيها، ورُبَّما أَلْقاها قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَها مائَة كِذْبَة. فَقالَ: أَلَيْسَ قَدْ

قوله: (ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه) أي: وصف ركوب بعضهم فوق بعض.

وسفيان هو ابن عيينة أبو محمد الهلالي الكوفي ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه، إمامٌ حجة، مات سنة ثمان وتسعين ومائة وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: «فحرّفها» بحاء مهملة وراء مشددة وفاء. قوله: (وبَدّدَ) أي فرق بين أصابعه.

قوله: «فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته» أي يسمع الفوقاني الكلمة فيلقيها إلى آخر تحته، ثم يلقيها إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن.

قوله: (فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها) الشهاب: هو النجم الذي يُرمى به؛ أي ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ، وهذا يدل على أن الرمي بالشهب قبل المبعث. لما روى أحمد وغيره - والسياق له في المسند من طريق معمر -: أنبأنا الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه - قال عبدالرزاق: من الأنصار - قال: فرُمي بنجم عظيم، فاستنار، قال: ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟ قال: كنا نقول: لعله يولد عظيم أو يموت - قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم؛ ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ - قال: فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمرًا سبح حملةُ العرش؛ ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا. ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، ويخطف الجنُّ السمعَ فيرمون؛ فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون»(١). قال عبدالله: قال أبي: قال عبدالرزاق: «ويخطف الجن ويرمون» وفي رواية له: «لكنهم يزيدون فيه ويَقْرِفون وينقصون».

قوله: (فيكذب معها مائة كذبة) أي الكاهن أو الساحر.

و«كذبة» بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة.

قوله: (فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟) هكذا في نسخة بخط المصنف رحمه الله، وكالذي في صحيح البخاري سواء.

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث صالح بن كيسان والأوزاعي ويونس ومعقل بن عبيدالله، أربعتهم عن الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس عن رجل من الأنصار.

قالَ لَنا يَوْمَ كَذا وكَذا: كَذا وكَذا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي سُمِعَتْ مِنَ السَّماءِ»[١].

وعن النوَّاس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أَرادَ اللهُ تعالَى أَنْ يُوحي بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ الوَحْيَ. أَخَذَتِ السَّمٰواتُ مِنْهُ رَجْفَة - أو قالَ: رَعْدَةً - شَديدَةً

قال المصنف: وفيه قبول النفوس للباطل؛ كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة؟.

وفيه: أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله، فكثيرًا ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل، ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

وفي هذه الأحاديث وما بعدها، وما في معناها: إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفًا وخلفًا. خِلَافًا للأشاعرة والجهمية؛ ونُفاة المعتزلة. فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قوله: (وعن النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذت السمٰوات منه رَجْفةٌ - أو قال: رعدة - شديدة، خوفًا من الله عز وجل. فإذا سمع ذلك أهلُ السمٰوات صُعقوا وخروا لله سجّدًا فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلما مرّ بسماء سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق؛ وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل») .

---

(١) يعني أن قول الكاهن والساحر والعراف قد يصادف بعض الواقع؛ فيغتر الجاهلون المخرفون بذلك؛ ويحتجون بهذه المصادفة على تصديق كذبه الذي لا يعد وهو مبني على افتراء الكذب على الله ودعوى معرفة الغيب الذي لا يعلمه إلا الله. وسيأتي بيانه في باب الكهان.

(٢) في قرّة العيون: قوله: «أن يوحي بالأمر» فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من قوله: «إذا قضى الله الأمر» قوله: «تكلم بالوحي» فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي فيوحيه إلى جبريل عليه السلام ففيه الرد على الأشاعرة في قولهم إن القرآن عبارة عن كلام الله. قوله: «أخذت السمٰوات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوفًا من الله عز وجل» في هذه معرفة عظمة الله ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى وفيه إثبات العلو. قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السمٰوات صُعِقوا وخروا لله سجدًا» هيبة وتعظيمًا لربهم وخشية لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس. قوله. «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل» لأنه ملك الوحي عليه السلام. قوله: «فيكلمه الله من وحيه بما أراد» فيه التصريح بأنه تعالى يوحي إلى جبريل بما أراده من أمره كما تقدم في أول الحديث، قوله: «ثم يمر جبريل على الملائكة كلما مر بسماء سأله ملائكتها» وهذا أيضًا من أدلة علو الرب تعالى وتقدس. قوله: «ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل» وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول، وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبته الله تعالى في كتابه وأبته رسوله ﷺ في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنّة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته.

خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ. فَإذا سَمِعَ ذٰلِكَ أَهْلُ السَّمٰواتِ صُعقوا وخَرُّوا سُجَّدًا، فَيَكونُ أَوَّلَ مَنْ يَرفَعُ رَأْسَهُ جِبْريلُ، فَيُكَلِّمهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِما أَرادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْريلُ عَلى

هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره.

النواس بن سمعان - بكسر السين - ابن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري صحابي. ويقال: إن أباه صحابي أيضًا.

قوله: (إذا أراد الله أو يوحي بالأمر) إلى آخره. فيه: النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة - على النفاة -: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء.

قوله: (أخذت السمٰوات منه رجفة) السمٰوات مفعول مقدم، والفاعل «رجفة» أي: أصاب السمٰوات من كلامه تعالى رجفة، أي ارتجفت. وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «إذا قضى الله أمرًا تكلم تبارك وتعالى رجفت السمٰوات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سجدًا».

قوله: (أو قال: رعدة شديدة) شك من الراوي. هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: (خوفًا من الله عز وجل) وهذا ظاهر في أن السمٰوات تخاف الله، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها. وقد أخبر تعالى: أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٧٤] وقد قرر العلَّامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة، مستدلًا بهذه الآيات وما في معناها.

وفي البخاري عن ابن مسعود قال: «كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل» وفي حديث أبي ذرٍّ: «أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات؛ فسُمع لهن تسبيح» الحديث، وفي الصحيح قصة حنين الجذع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر. ومثل هذا كثير.

قوله: (صُعقوا وخروا لله سجدًا) الصعوق هو الغشي؛ ومعه السجود.

قوله: (فيكون أولَ من يرفع رأسه جبريل) بنصب «أول» خبر يكون مقدم على اسمها. ويجوز العكس. ومعنى جبريل: عبدالله؛ كما روى ابن جرير وغيره عن علي بن الحسين قال: كان اسم جبريل: عبدالله، واسم ميكائيل: عُبيدالله؛ وإسرافيل: عبدالرحمن. وكل شيء رجع إلى «إيل» فهو مُعبّد لله عز وجل. وفيه فضيلة جبريل عليه السلام. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم. وقال أبو صالح في

المَلائِكَةِ، كُلَّما مَرَّ بِسَماءٍ سَأَلَهُ مَلائِكَتها: ماذا قالَ رَبُّنَا يا جِبْريل؟ فَيَقُولُ جِبْريلُ: قالَ الحَقَّ، وهُوَ العَلِيُّ الكَبير. فَيَقولونَ كُلّهُمْ مِثْلَ ما قالَ جِبْريلُ. فَيَنْتَهِي جِبْريلُ بِالوَحي إِلى حَيْثُ أَمَرَهُ الله عَزَّ وجَلَّ».

الآية[1]: «جبريل يدخل في سبعين حجابًا من نور بغير إذن».

ولأحمد - بإسناد صحيح - عن ابن مسعود قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح؛ كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم» فإذا كان هذا عِظم هذه المخلوقات فخالقها أعظم وأجلّ وأكبر. فكيف يسوّى به غيره في العبادة، دعاء وخوفًا ورجاءً وتوكلًا، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ٥ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ٥ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ٥ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩].

قوله: (فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض) وهذا تمام الحديث.

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الملك العظيم الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفًا منه ومهابة. وترجف منه المخلوقات؛ الكامل في ذاته وصفاته؛ وعلمه وقدرته، وملكه وعزه، وغناه عن جميع خلقه؛ وافتقارهم جميعًا إليه، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم لعلمه وحكمته، لا يجوز شرعًا ولا عقلًا أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم، فكيف يجعل المربوب ربًّا، والعبد معبودًا؟ أين ذهبت عقول المشركين؟ سبحان الله عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ٥ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ٥ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣-٩٥]، فإذا كان الجميع عبيدًا فَلِمَ يعبد بعضهم بعضًا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله. انتهى من شرح «سنن ابن ماجه».

* * *

---

(١) أي في قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ كما ساق ذلك الحافظ ابن كثير وقد نقلها الشارح رحمه الله مختصرة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصًا ما تعلّق على الصالحين وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قالَ: كَذا وكَذا».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل.

السابعة: أنه يقول لأهل السمٰوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغَشْي يعم أهل السمٰوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السمٰوات بكلام الله.

العاشرة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا.

الثالثة عشرة: إرسال الشهاب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أُذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدُق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يُصَدَّقْ كذبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة!.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة، ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات، خلافًا للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرّون لله سُجدًا.

١٦ - باب
الشفاعة[١]

وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

قوله: (باب الشفاعة) أي: بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه، وحقيقة ما دل القرآن على إثباته.

قوله: (وقول الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾) [الأنعام: ٥١] الإنذار هو: الإعلام بأسباب المخافة والتحذير منها.

قوله: (به) قال ابن عباس: «بالقرآن»، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: «وهم المؤمنون». وعن الفُضَيل بن عِياض: «ليس كلّ خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون؛ فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، أي: «وهم المؤمنون أصحاب العقول الواعية».

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج: موضع «ليس» نصب على الحال، كأنه قال: متخلِّين من كل وليّ وشفيع. والعامل فيه «يخافون».

قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: فيعملون في هذه الدار عملًا ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وقبلها ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ

---

(١) في قرة العيون: الشفاعة نوعان: شفاعة منفية في القرآن؛ وهي: الشفاعة للكافر والمشرك، قال تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨]، ونحو هذه الآيات كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]؛ يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك، وما لا يعلمه لا وجود له، فنفى وقوع الشفاعة وأخبر أنها شرك بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فأبطل شفاعة من اتخذ شفيعًا بزعم أنه يقربه إلى الله وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته، لأنه جعل لله شريكًا يرغب إليه ويرجوه ويتوكل عليه ويحبه كما يحب الله تعالى أو أعظم.

النوع الثاني: الشفاعة التي أثبتها القرآن، هي خالصة لأهل الإخلاص، وقيدها تعالى بأمرين: الأول: إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب، فإذا رحمه الله تعالى أذن للشافع أن يشفع له.

الأمر الثاني: رضاه عمن أذن لشافع أن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، فالإذن بالشفاعة له بعد الرضاء، كما في هذه الآية، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد.

(٢) في قرة العيون: وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم لأنه ينافي الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملًا بدونه.

(٣) في قرة العيون: دلت الآية على أن الشفاعة له سبحانه، لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد بإذنه سبحانه وتعالى كما قال تعالى

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]. فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتفٍ وممتنع، وأن اتخاذهم شفعاء شرك، يتنزه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٨]، فبين تعالى أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألُّههم أن ذلك منهم إفك وافتراء.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ أي: هو مالكها؛ فليس لمن تُطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل مَن سواه، لأن ذلك عبادة وتألُّه لا يصلح إلا لله.

قال البيضاوي: لعله ردٌّ لما عسى أن يجيبوا به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه، لأنه مالك الملك، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها[1]: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا[2] هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى. قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

قال: (وقوله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾) [البقرة: ٢٥٥] قد تبين مما تقدم من الآيات أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تُطلب من غير الله. وفي هذه الآية بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [طه: ١٠٩]، فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين: إذن الرب تعالى للشافع

في الآية السابقة، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ [يونس: ٣]. فلا شفاعة إلا لمن هي له سبحانه، ولا تقع إلا ممن أذن له فيها. فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء.

(١) في قرة العيون: فليس لأحد في ملكه مثقال ذرة دونه سبحانه وبحمده، والإسلام هو أن تسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص كما في المسند عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنه قال لرسول الله ﷺ: «فبالذي بعثك بالحق ما بعثك به؟ قال: الإسلام. قال: وما الإسلام؟ قال: أن تسلم قلبك وأن توجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وأن تؤدي الزكاة المفروضة». والآيات في بيان الإخلاص كثيرة، وهو ألا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. فأمر تعالى بإخلاص الدعاء له وحده، وأخبر أنه الدين الذي تصح معه الأعمال وتقبل. قال شيخ الإسلام: الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه.

(٢) الأولى: «ما نعبد أولياءنا». ولم أجد هذه الجملة كلها في «تفسير ابن جرير».

وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي

أن يشفع، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه، وهو تعالى لا يرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أُريد به وجهه، ولقي العبد به ربه مخلصًا غير شاك في ذلك، كما دل على ذلك الحديث الصحيح. وسيأتي ذلك مقرَّرًا أيضًا في كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] قال ابن كثير رحمه الله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾. فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله؟! وهو لم يشرع عبادتها ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه!.

قال: (وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾)[1] [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات: وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكًا كان شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا له كان مُعينًا له وظهيرًا، فإن لم يكن معينًا ولا ظهيرًا كان شفيعًا عنده. فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفيًا مرتبًا؛ متنقلًا من الأعلى إلى الأدنى؛ فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه. فكفى بهذه الآية نورًا وبرهانًا وتجريدًا للتوحيد، وقطعًا لأصول الشرك وموادّه لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمنه له، ويظنونها في نوع وقوم قد خَلوا من قبلُ ولم يُعقبوا وارثًا، فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن، ولعمر الله؛ إن كان أُولئك قد خلوا فقد

---

(١) في قرة العيون: فإذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٩] الآيات، فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التي هي ملك لله لا يملكها غيره، وقيد حصولها بقيدين كما في هذه الآية وغيرها كما تقدم قريبًا: إذنه للشافع أن يشفع كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾، والثاني: رضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين. فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة، وأن اتخاذ الشفعاء بلا إذن من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات.

ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ۝ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

قال أبو العباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره

ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه - أي: الشرك - طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فضلًا عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سببًا لإذنه؛ وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم وما نجا من شَرَكِ هذا الشرك الأكبر إلا من جرّد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليّه وإلهه ومعبوده. فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذُلّه لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعًا لأمره متطلبًا لمرضاته، إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله وبالله ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره هذا الإمام في معنى الآية هو حقيقة دين الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

قوله: (قال أبو العباس) هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني إمام المسلمين رحمه الله.

قوله: (نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق إلا الشفاعة. فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده» لا يبدأ بالشفاعة أولًا، ثم يقال له: «ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تُعطَ، واشفع تشفع». وقال له أبو هريرة: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

مِلْك أو قِسطٌ منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبقَ إلا الشفاعة. فبيّن أنها لا تنفعُ إلا لمن أذِنَ له الربُّ، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، فهذه الشفاعة التي يَظنُّها المشركون هي مُنْتَفيةٌ يوم القيامة كما نفاها القرآنُ وأخبر النبي ﷺ «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُد لِرَبِّهِ ويَحْمِدُهُ» لا يبدأ بالشفاعة أولًا، ثم يقال له: «ارْفَعْ رَأْسَكَ وقُلْ يُسْمَعْ وسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تشفعْ».

وقال له أبو هريرة: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفاعَتِكَ؟ قالَ: مَنْ قالَ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ خالِصًا منْ قَلْبِهِ». فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله ولا تكون لمن أشرك بالله.

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله، وحقيقته: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص) انتهى.

قوله: (وقال له أبو هريرة) إلى آخره. هذا الحديث رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة، ورواه أحمد وصححه ابن حبان، وفيه: «وشفاعتي لمن قال: لا إله إلا الله مخلصًا، يصدق قلبُه لسانه، ولسانه قلبه». وشاهده في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا».

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات، وهو كاف وافٍ بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم.

وقد عرّف الإخلاص بتعريف حسن فقال: الإخلاص محبة الله وحده وإرادة وجهه. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تُنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تُنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع. ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه وليًا أو شفيعًا أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع من والاهم. ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله، كما قال في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ، فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك

وحقيقته: أنَّ الله سبحانه هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطةِ دعاء مَنْ أَذِنَ له أن يشفع، ليُكرمَه وينالَ المقامَ المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذْنه في مواضع. وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. اهـ كلامه.

من قلب من عَقَلها ووعاها. اهـ.

وذكر أيضًا رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع:

(الأول): الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: «أنا لها»، وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف، وهذه شفاعة يختص بها لا يشاركه فيها أحد.

(الثاني): شفاعته لأهل الجنة في دخولها، وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه.

(الثالث): شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم؛ فيشفع لهم ألا يدخلوها.

(الرابع): شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كل جانب ونادوا عليه بالضلال.

(الخامس): شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيها أحد، وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله وليًّا ولا شفيعًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

(السادس): شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ أنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد فإذا أُذن له شَفَع.

السادسة: مَنْ أسعدُ الناس بها؟

السابعة: أنها لا تكون لمن أشركَ بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

* * *

١٧ - باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وفي الصحيح عن ابن المسيَّب عن أبيه قال: «لَما حَضَرَتْ أَبا طالِب الوَفاةُ جاءَهُ

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾) [القصص: ٥٦].

سبب نزول هذه الآية: موت أبي طالب على ملة عبدالمطلب، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى لرسوله: إنك يامحمد لا تهدي من أحببت، أي ليس إليك ذلك، إنما عليك البلاغُ والله يهدي من يشاء. وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلت: والمنفيُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول، فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبيِّن عن الله، والدالُّ على دينه وشرعه.

وقوله: (في الصحيح عن ابن المسيَّب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبدالله بن أبي أُمية وأبو جهل، فقال له: يا عم! قل: لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُ لك بها عند الله. فقالا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا. فكان آخرَ ما قال: هو على ملة عبدالمطلب. وأبى أن يقول لا إله إلّا الله. فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك. فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]. وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾).

قوله: (في الصحيح) أي في الصحيحين. وابن المسيب هو: سعيد بن المسيب بن حَزْن ابن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل. وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علمًا منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين.

وأبوه المسيب صحابي، بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذلك جده حَزْن، صحابي استُشْهِدَ باليمامة.

رَسُول اللهِ ﷺ، وعِنْدَهُ عَبْدُاللهِ بْن أَبي أُمَيَّة وأَبُو جَهْل. فَقالَ لَهُ: يا عَمِّ! قُلْ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَة أحاجُّ لَكَ بِها عِنْدَ اللهِ. فَقالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعادَ عَلَيْهِ النبيُّ ﷺ، فأَعادا. فكانَ آخِرَ ما قالَ: هُوَ عَلى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وأَبى أَنْ يَقولَ لَا إِلٰهَ

قوله: (لما حضرت أبا طالب الوفاة) أي: علاماتها ومقدماتها.

قوله: (جاءه رسول الله ﷺ) يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين، فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضًا مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفارًا؛ فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخران.

قوله: (يا عمِّ) منادى مضاف، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها؛ حذفت الياء هنا، وبقيت الكسرة دليلًا عليها.

قوله: (قل: لا إله إلَّا الله) أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها عن علم ويقين فقد برئ من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام، لأنهم يعلمون ما دلت عليه، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر، فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرئ منه، ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها، لكن لا يعتقدونها، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب؛ فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن. وفيها اليهود؛ وقد أقرّهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بألا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدوًّا، كما هو مذكور في كتب الحديث والسير.

قوله: (كلمة) قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من «لا إله إلَّا الله»، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله: (أحاج لك بها عند الله) هو بتشديد الجيم من المحاجة، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال، وفيه دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقدًا ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات لنفعته.

قوله: (فقالا له: أترغبُ عن ملة عبدالمطلب؟) ذكّراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: (فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا)[١] فيه معرفتهما لمعنى «لا إله إلا الله»، لأنهما عرفا

---

(١) في قرة العيون: فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم. ففيه معنى قول الناظم:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

إِلَّا اللهُ». فقال النبي ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْه عَنْكَ»، فأنزل الله عز وجل ﴿مَا

أن أبا طالب لو قالها لبرئ من ملة عبدالمطلب. فإن ملة عبدالمطلب هي الشرك بالله في إلهيته، وأما الربوبية فقد أقروا بها كما تقدم. وقد قال عبدالمطلب لأَبْرَهَة: «أنا ربُّ الإبل، والبيت له رب يمنعه منك». وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه: «قل لا إله إلَّا الله» استكبارًا عن العمل بمدلولها، كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أُولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ○ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات:٣٥،٣٦]، فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات:٣٧]. فبين تعالى أن استكبارهم عن قول «لا إله إلَّا الله» لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله. فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تَضَمُّن، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة.

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ - الذي هو أفضل خلقه - من هداية القلوب وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء؛ لكان أحقَّ الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بَهَرَتْ حكمتُه العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلُّهم على معرفته وتوحيده، وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: (فكان آخر ما قال) الأحسن فيه الرفع على أنه اسم «كان» وجملة «هو» وما بعدها الخبر.

قوله: (هو على ملة عبدالمطلب) الظاهر أن أبا طالب قال: «أنا»، فغيره الراوي استقباحًا للَّفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ.

قوله: (وأبى أن يقول: لا إله إلا الله) قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه الرد على من زعم إسلام عبدالمطلب وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف).

أي: إذا زاد على المشروع؛ بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: (فقال النبي ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك) قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف. وكان الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييبًا لنفس أبي طالب.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبو طالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا. وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ الآية [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].(١)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ﴾ - الآية أي: ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبر بمعنى النهي، والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب. فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله: «فأنزل الله» بعد قوله: «لأستغفرن لك ما لم أُنْه عنك» يفيد ذلك.

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسبابًا أخر، فلا منافاة؛ لأن أسباب النزول قد تتعد.

قال الحافظ: أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب، وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره. ويوضح ذلك ما يأتي في التفسير ، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ - الآية. ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام، ويُضعِّف ما ذكره السهَيْلي أنه رُوي

---

(١) الهداية تطلق على خلق الهدى في القلب وتحويله من الضلال والكفر والفسوق إلى الهدى والإيمان والطاعة، وتسديده على صراط الله المستقيم وتثبيته عليه، وهذه مختصة بالله تعالى، لأنه هو الذي يقلب القلوب ويصرفها، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، ومن يهدي الله فما له من مضل، ومن يضلل فما له من هاد. وهي المنفية في الآية عن النبي ﷺ وعن غيره من باب أولى. فمن ادعاها من مشايخ الطرق الصوفية ونحوهم، وزعم أنه يدخل قلوب مريديه وتلاميذه ويعلم ما فيها ويصرفها على ما يريد فهو كاذب ضال مضل، ومن صدق ذلك فهو ضال مكذب لله ولرسوله. وتطلق على العلم والدلالة والإرشاد بالقرآن ونحوه على طريق النجاة والسعادة، وهذه يقدر عليها المخلوق وهي المثبتة للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد أوجب الله على أهل العلم أن يقوموا بها فيرشدوا الناس ويهدوهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى صراط الله المستقيم، وأكثر الناس لا يميز الفرق بين الهدايتين، فبعضهم يعتدي على الحدود، وبعضهم يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محتجًا بالآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.. إلخ. وهذا وذاك جهل وضلال.

(٢) ساق البخاري قصة موت أبي طالب في كتاب الجنائز في الباب الحادي والثمانين، ولم يتكلم عليه الحافظ في الفتح، بل حوله إلى التفسير. وساقه في تفسير سورة براءة فحول الحافظ تفصيل القول فيه إلى سورة القصص.

الثالثة: هي المسألة الكبيرة، تفسير قوله: «قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بخلاف ما عليه مَنْ يَدَّعي العلم.[1]

الرابعة: أن أبا جَهْل ومَنْ معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». فَقَبَّحَ الله مَنْ أبو جَهْل أعلَمُ منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جِدُّه ﷺ ومُبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الردُّ على مَنْ زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغْفَر له، بل نُهِيَ عن ذلك.

الثامنة: مَضَرَّة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مَضَرَّةُ تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: استدلال الجاهلية بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأملُ في كِبَر هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأن في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها مع مبالغته ﷺ وتكريره. فلأجلِ عَظَمتها ووضُوحها عندهم اقتصروا عليها.

في بعض كتب المسعودي أنه أسلم، لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح. انتهى.

وفيه: تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم؛ لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى.

* * *

---

(١) كثير من أدعياء العلم يجهلون: «لا إله إلا الله»، فيحكمون على كل من تلفظ بها بالإسلام ولو كان مجاهرًا بالكفر الصراح، كعبادة القبور والموتى والأوثان واستحلال المحرمات المعلوم تحريمها من الدين ضرورة، والحكم بغير ما أنزل الله واتخاذ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولو كانت لهؤلاء الجهلة قلوب يفقهون بها لعلموا أن معنى: «لا إله إلا الله» البراءة من عبادة غير الله، وإعطاء العهد والميثاق بالقيام بأداء حق الله في العبادة، يدل على ذلك قول الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. وقد شهد النبي ﷺ للخوارج بكثرة الصلاة والصيام وقراءة القرآن المشحون بلا إله إلا الله، ومع ذلك فقد حكم عليهم بالكفر، وبأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وقال: «لو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد» كما في الصحيحين. ولو كان مجرد التلفظ بلا إله إلا الله كافيًا؛ ما وقعت الحرب والعداء بين الرسول ﷺ وبين المشركين الذين كانوا يفهمون «لا إله إلا الله» أكثر مما يفهمها أدعياء العلم في هذا الزمن، ولكن طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون.

١٨ - باب
ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلوّ في الصالحين

وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله: (باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين)

قوله: (تركهم) بالجر عطفًا على المضاف إليه. وأراد المصنف رحمه الله تعالى بيان ما يؤول إليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الإلهية الذي هو أعظم ذنب عُصي الله به، وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: (وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾) [النساء:١٧١] الغلو: هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، أي: لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله. والخطاب - وإن كان لأهل الكتاب - فإنه عام يتناول جميع الأمَّة، تحذيرًا لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى، واليهود في العزير[١] كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦]. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»، ويأتي.

فكل من دعا نبيًّا أو وليًّا من دون الله فقد اتخذه إلهًا، وضاهى النصارى في شركهم، وضاهى اليهود في تفريطهم. فإن النصارى غلوْا في عيسى عليه السلام، واليهود عادوه وسبّوه وتنقصوه. فالنصارى أفرطوا، واليهود فرطوا. وقد قال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥]. ففي هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وَغَلَا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم. قال: وعلي رضي الله عنه حرَّق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِندة[٢] فقذفهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم، لكن ابن

---

(١) في قرة العيون: وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظمًا ونثرًا كما في كلام البوصيري والبرعي وغيرهما، وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ، فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبي ﷺ: (أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا)، فكره ذلك ﷺ أشد الكراهة؟ كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى، وقول القائل: «ما شاء الله وشئت»: فقال: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده».

(٢) باب من أبواب الكوفة. الغلاة المحرقون: هم عبدالله بن سبأ اليهودي وأتباعه، قالوا: إن عليًّا إلاههم، فنهاهم فلم ينتهوا

في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [الجن: ٢٣] قال: «هٰذِهِ أَسْماءُ رِجالٍ صالِحينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطانُ إِلى قَوْمِهِمْ: أَنِ انْصِبُوا إِلى

عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق. وهو قول أكثر العلماء.

قوله: (في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت).

قوله: (وفي الصحيح) أي صحيح البخاري.

وهذا الأثر اختصره المصنف. ولفظ ما في البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعدُ. أما «وَدٌّ» فكانت لكلب بدومة الجندل. وأما «سُواع» فكانت لهذيل. وأما «يغوث» فكانت لمراد ثم لبني غُطيف بالجُرف عند سبأ. وأما «يعوق» فكانت لهمدان. وأما «نسر» فكانت لحِمْيرَ لآل ذي الكلاع: أسماء رجال صالحين في قوم نوح... إلى آخره».

وروي عن عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد: قال حدثنا مهران، عن سفيان، عن موسى، عن محمد ابن قيس: «أن يغوث ويعوق ونسرًا كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم. فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم».

قوله: (أن انصبوا) هو بكسر الصاد المهملة.

قوله: (أنصابًا) جمع نُصب، والمراد به هنا الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم، وسموها بأسمائهم. وفي سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثانًا، فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله، سواء كان ذلك المعبود قبرًا أو مشهدًا، أو صورة، أو غير ذلك[1].

فحرَّقهم. وإنما أراد ابن سبأ بذلك إحداث فتنة، وخلق شيع، وفتح ثغرة في صفوف المسلمين. وقد حدث ما أراد هذا اليهودي الملعون، ووجد في الناس كثير ممن أطاعه وأله عليًّا وأبناءه، وكفر بالله ورسوله وعادى عليًّا والمؤمنين. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

(١) في قرة العيون: فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سُلَّمًا إلى عبادتها. وكل ما عبد من دون الله، من قبر أو مشهد، أو صنم، أو طاغوت فالأصل في عبادته هو الغلو، كما لا يخفى على ذوي البصائر. كما جرى لأهل مصر وغيرهم، فإن أعظم آلهتهم أحمد البدوي، وهو لا يعْرَف له أصل ولا فصل، ولا علم ولا عبادة، ومع هذا فصار أعظم

مَجالِسِهِم الَّتي كانوا يَجْلِسُونَ فِيها أَنْصابًا، وسَمُّوها بِأَسْمائِهِم، فَفَعَلوا، ولَمْ تُعْبَدْ. حَتّى إِذا هلكَ أُولَٰئِكَ ونُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ».

قوله: (حتى إذا هلك أولئك) أي الذين صوروا تلك الأصنام.

قوله: (ونُسي العلم)، ورواية البخاري: «وتَنَسَّخ» وللكشميهني «ونُسخ العلم» أي: درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك، فوقعوا في الشرك، ظنًّا منهم أنه ينفعهم عند الله.

قوله: (عبدت) لما قال لهم إبليس: إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر، فهو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها، فصار هو معبودهم في الحقيقة، كما قال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠-٦٢] وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك، وإن كان القصد بها حسنًا. فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والإفراط في محبتهم، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة: أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك؛ من عبادتهم لهم من دون الله[١]. وفي رواية: «أنهم قالوا: ما عظّم أوّلنا

آلهتهم مع أنه لا يُعرَف إلا أنه دخل المسجد يوم الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصلِّ. ذكره السخاوي عن أبي حيان. فزين لهم الشيطان عبادته فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون، ويطفئ الحريق وينجي الغريق، وصرفوا له الإلٰهية والربوبية وعلم الغيب، وكانوا يعتقدون أنه يسمعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة، وفيهم من يسجد على عتبة حضرته. وكان أهل العراق ومن حولهم كأهل عمان يعتقدون في عبدالقادر الجيلاني؛ كما يعتقد أهل مصر في البدوي، وعبدالقادر من متأخري الحنابلة وله كتاب الغنية، وغيره ممن قبله وبعده من الحنابلة أفضل منه في العلم والزهد، لكن فيه زهد وعبادة، وفتنوا به أعظم فتنة، كما جرى من الرافضة مع أهل البيت.

وسبب ذلك الغلو دعوى أن له كرامات وقد جرت الكرامات لمن هو خير منه وأفضل كبعض الصحابة والتابعين، وهكذا حال أهل الشرك مع من فتنوا به.

وأعظم من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي وهو إمام أهل الوحدة الذين هم أكفر أهل الأرض وأكثر من يعتقد فيه هؤلاء لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيره، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا؛ وفي الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمَّت به البلوى، كعبادتهم للجن وطلبهم الشفاعة منهم، والأصل في ذلك الغلو تزيين الشيطان.

وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» حتى كان عمرو بن لُحي الخزاعي فبينما يلبي تمثَّل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه فقال: لبيك لا شريك لك فقال الشيخ: إلا شريكًا هو لك. فأنكر ذلك عمرو وقال: ما هذا؟ فقال الشيخ: تملكه وما ملك، فإنه لا بأس بهذا». فقالها عمرو، فدانت بها العرب.

(١) وما جرَّ إلى هذا الغلو الذي أدَّى إلى عبادتهم من دون الله إلَّا تعظيم قبورهم؛ وبناء القباب عليها، وسترها بالأستار، وإيقاد السرج، وقيام السدنة وشياطين الإنس عندها لدعوة الناس إلى عبادتها بأنواع النذور فيعود عليهم من تلك الأموال. وإلا فكم من عباد صالحين من الصحابة وأفاضل العلماء الذين كان لهم قدم صدق في الإسلام مدفونون في مقابل مصر والشام

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تُطْرُونِي[١] كَما أَطرت النَّصارَى ابنَ مَرْيَمَ إِنَّما

هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله» أي: يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم، ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء، ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم: شرك بالله، كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات.

قوله: (وقال ابن القيم رحمه الله: قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم).

قوله: (وقال ابن القيم رحمه الله) هو الإمام العلَّامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية. قال الحافظ السخاوي: العلامة الحجة المتقدم في سعة

وغيرهما؛ هم أفضل آلاف المرات من أمثال البدوي والدسوقي - بل نعالهم أشرف وأكرم من هذا البدوي وأضرابه - لا يعرفهم أولئك المشركون. لأنهم لم ينصب على قبورهم تلك الأنصاب ولم تتخذ عليها تلك الأوثان، ولذلك كان الذي يزعم أنه يزور للموعظة وتذكُّر الدار الآخرة، تلك القبور التي نُصِبت عليها هذه الأنصاب والمقاصير من أجهل الناس وأبعدهم عن هدي الإسلام، الذي لا يعرف تلك القباب وإنما يعرف القبور التي لا يبنى عليها ولا يكتب عليها ولا تستر بأستار الحرير وغيرها؛ فإنه من أمحل المحال الاتعاظ بهذه الأوثان والأنصاب، ومن أعظم الجهل أن تُسَمَّي هذه قبورًا تسن زيارتها كما تسن زيارة القبور التي وصفها رسول الله ﷺ وأمر بها. فنسألك اللهم أن تُعجِّل بهدم هذه الأوثان وتطهير الأرض منها كلها تحقيقًا لما أمر به نبيك ﷺ، وبعث به علي بن أبي طالب إلى اليمن، صيانة للتوحيد من قذر الشرك الذي أعظم أسبابه هذه القبور.

(١) حيث إن النبي أخبر - وهو الصادق -: أن بعض هذه الأمة يتبع سنن أهل الكتاب في اتِّباع الهوى، والقول على الله بلا علم، وابتداع دين لم يشرعه الله. فقد وقع ما نهى عنه النبي ﷺ، فإن كثيرًا ممن ينتسب إلى الإسلام يطري النبي غاية الإطراء، فيعتقد فيه أنه يعلم الغيب وأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وقد نفى الله عنه ذلك في القرآن فقال: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف:١٨٨] ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [الأنعام:٥٠] ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ﴾ [الأحقاف:٩] فكفروا به واعتقدوا ما أوحته إليهم الشياطين، وكثير منهم يعتقدون أنه يتصرف في الدنيا بعد موته ويزور من شاء في المشارق والمغارب. وقد بلغت الوقاحة بالدجال أحمد التيجاني أن زعم: أن النبي ﷺ يحضر مجلس مكائه وتصديته ومجالس كل من اتبعه في طريقه الضال، فصال هؤلاء الزائفون إذا جلسوا للَّغط واللَّغو الذي يسمونه صلاة الفاتح، يزعمون بوقاحتهم وفجورهم، أن المرة الواحدة منها أفضل من القرآن ستة آلاف مرة. وينشرون ثوبًا أبيض في وسط حلقتهم ليجلس عليه النبي والخلفاء، وإنما زعم الدجال التيجاني هذا تمويهًا على أشباه الأنعام العامة ليتبعوه على دجلة وباطله، ويريهم أنه أتى بما لم يسبق إليه. وصدق فإنه لم يسبق إلى هذه الوقاحة في الكفر، فنعوذ بالله من عمى القلوب، وشرع ما لم يأذن به الله. بل تكاد السموات يتفطرن منه، وبعضهم يعتقد أن النبي ﷺ يزوره ويشرع له من الدين ما يخالف شرعه الذي أتمه الله وأكمله وارتضاه دينًا قبل موته ﷺ ادَّعى ذلك الشعراني في كتاب العهود المحمدية، وزعم أن شيخه الخواص كان لا يفارق النبي ﷺ طرفة عين، وهذا كله كذب وبهتان. فكم وقع بين الصحابة من الخلافات ما كان أولى أن يجيئهم فيها النبي ﷺ ليرجعهم فيها إلى الصواب الذي يطفئ الفتنة لو أمكن ظهوره. ولكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وبعضهم يعتقد أن السمٰوات والأرض وما بينهم مملوءة بالنبي ولو كشف عنا الحجاب لرأيناه عيانًا؛ فإذا سمع أهل الغرور هذه الخرافة أفنوا أعمارهم في الخلوات

. . . .

العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف؛ صاحب التصانيف السائرة والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قوله: (وقال غير واحد من السلف) هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم، قبل تصويرهم تماثيلهم. وذلك من وسائل الشرك بل هو الشرك، لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور، صار عكوفهم - تعظيمًا ومحبة - عبادة لها.

قوله: (ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم) أي طال عليهم الزمان، وسبب تلك العبادة والموصل إليها هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم؛ فصارت بذلك أوثانًا تعبد من دون الله، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى، فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخاذهم شفعاء. وهذا أول شرك حدث في الأرض.

قال القرطبي: وإنما صوّر أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. اهـ.

قال ابن القيم رحمه الله: وما زال الشيطان يوحي إلى عُبّاد القبور ويُلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يُقْسَم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته؛ وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنًا تُعلَّق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبّل؛ ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم، نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدًا ومنسكًا، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم. وكل هذا مما قد عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ من تجديد التوحيد؛ وألا يُعبد إلا الله.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقَّص أهل هذه الرتب العالية وحطهم عن منزلتهم؛ وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فغضب المشركون واشمأزت

يهمهمون ويزمزمون، وأنفقوا أموالهم كلها على الدجالين المشعوذين الذين أغووهم، كل ذلك طمعًا في المحال أن يروا النبي ﷺ عيانًا مالئًا السماء والأرض وما بينهما؛ وقد انجرَّ بنا الكلام إلى ذكر شيء من باطلهم تحذيرًا لمن لم يقع في حبائلهم وإنذارًا لمن وقع؛ وهذا نزر يسير مما نعرفه عنهم، وهو مسطور في كتبهم وأساطيرهم المطبوعة المشنورة، وليعلم الناظر في هذا أني كنت على عقيدتهم الخبيثة سنين فأنقذني الله منها على يد بعض المصلحين فاستيقظت من نوم البدعة الذميمة فلاحت لي أنوار شمس السنة، فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أَنا عَبْدٌ فَقولوا عَبْدَاللهِ ورَسُوله» أخرجاه.

قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام؛ وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ونفّروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤] اهـ. كلام ابن القيم رحمه الله.

وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله[١].

ومنها: رد الشبه التي يسميها أهل الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة من توحيد الصفات، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه.

ومنها: مضرة التقليد.

ومنها: ضرورة الأمة إلى ما جاء به الرسول ﷺ علمًا وعملًا بما عليه الكتاب والسنة فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة.

قوله: (وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبد؛ فقولوا عبدالله ورسوله» أخرجاه).

قوله: (عن عمر) هو ابن الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغرًا - العدوي أمير المؤمنين وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم. ولي الخلافة عشر سنين ونصفًا، فامتلأت الدنيا عدلًا، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر، واستُشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين رضي الله عنه.

قوله: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم)[٢] الإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه. قاله أبو السعادات. وقال غيره: أي لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحد في مدحي.

قوله: (إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله) أي: لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام فادّعوا فيه الإلهية، وإنما أنا عبدالله ورسوله، فصفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا عبدالله ورسوله، فأبى المشركون إلَّا مخالفة أمره وارتكاب نهيه،

---

(١) كان الشارح رحمه الله قد ذكرها بنقص السادسة والحادية عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة. فاكتفينا بنص المصنف رحمه الله لعدم التكرار.

(٢) في قرة العيون: كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] قوله: «إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» أمرهم ﷺ ألا يتجاوزوا هذا القول. وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه، لأن أشرف مقامات الأنبياء؛ العبودية الخاصة والرسالة.

قال رسول الله ﷺ «إِيَّاكُم والغُلُوَّ، فَإِنَّما أَهْلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكُم الغُلُوّ».

ولمسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هَلَكَ المُتَنطعون» قالها ثلاثًا.

فيه مسائل:

الأولى: أن مَن فهم هذا الباب وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء، وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعرًا ونثرًا ما يطول عده؛ وصنفوا فيه مصنفات.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه[1] أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله - وصنف في ذلك مصنفًا، رده شيخ الإسلام، وردّه موجود بحمد الله - ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب، التي لا يعلمها إلّا الله، وذكر لهم أشياء من هذا النمط. نعوذ بالله من عمى البصيرة.

وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذُ به ... سواك عند حُدوث الحادث العَمِم

وما بعده من الأبيات التي مضمونها إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات، وأعظم الاضطرار لغير الله.

فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته، فلم

---

(١) هو علي بن يعقوب بن جبريل البكري المتوفى يوم الإثنين سابع ربيع الآخر سنة ٧٢٤هـ والرد عليه اسمه: تلخيص كتاب الاستغاثة طبع بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦هـ على نفقة جلالة إمام الموحدين ناصر السنة وقامع البدعة، الملك الصالح الموفق عبد العزيز آل سعود، أيده الله بنصره. وأطال حياته المباركة في خدمة الإسلام؛ ووفق ولي عهده المعظم صاحب السمو الملكي الأمير الأجل سعود إلى مثل ما يقوم به والده العظيم من نشر راية الإسلام وإعلاء كلمته، بطبع الكتب النافعة، وإقامة حدود الله.

الرابعة: [معرفة سبب] قبول البدع مع كون الشرائع والفطَر تردُّها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مَزْجُ الحق بالباطل، فالأول محبة الصالحين. والثاني فِعل أُناس من أهل العلم شيئًا أرادوا به خيرًا، فظن مَن بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جِبِلّة الآدمي[١] في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد [أي: في الغالب].

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حسن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي: النهي عن الغلوِّ، ومعرفة ما تؤول إليه [أي: من الشرك].

الحادية عشرة: مَضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

يعبؤوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته، والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونُصرته؛ وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه. فعكَس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علمًا وعملًا، وارتكبوا ما نهى عنه ورسوله. فالله المستعان.

قوله: (قال رسول الله ﷺ «إياكم والغلو. فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»).

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس.

وهذا لفظ رواية أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ غَداة جَمْع: «هَلُمَّ الْقُطْ لي. فلقطتُ له حَصيات هُنّ حَصَى الخَذْف. فلما وضعهن في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء فارموا. وإياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين».

قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال وسبب هذا اللفظ العام: رمْي الجمار؛ وهو داخل فيه؛ مثل الرمي بالحجارة الكبار، بناء على أنه أبلغ من الصغار. ثم علله بما يقتضي مجانبة هَدْي من كان قبلنا إبعادًا عن الوقوع فيما هلكوا به؛ فإن المشارك لهم في بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك.

---

(١) الجبلة بكسرتين فلام مشددة وكخشبة أيضًا: الخلقة والطبيعة؛ والمعنى الإنسان مجبول على نقصان الحق في قلبه وزيادة الباطل إلا من رحم الله وأنزل في قلوبهم السكينة فإن إيمانهم لا يزال يزيد ولا ينقص.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة شأن هذه القصة وشدة الحاجة إليها مع الغفلة عنها.

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم، حتى اعتقدوا أن فِعل قوم نوح أفضل العبادات، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لَا تطْرُوني كَما أَطرت النَّصارَى ابْنَ مَرْيَم» فصلوات الله وسلامه على من بلَّغ البلاغ المبين.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده ومضرة فقده.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

قوله: (ولمسلم[١] عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا).

قال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعْنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم.

ومن التنطع: الامتناع عن المباح مطلقًا، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لُبْسِ الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحق. قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهل ضال. انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث والاستقصاء.

وقال أبو السعادات: هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولًا وفعلًا.

وقال النووي: فيه: كراهة التقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم.

قوله: (قالها ثلاثًا) أي: قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) ورواه أيضًا الإمام أحمد وأبو داود، وإنما اقتصر المصنف على ما هو أرجح وأقوى.

١٩ - باب
ما جاء من التغليظ فيمن عبَد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده؟!

في الصحيح عن عائشة أن أُم سلمة ذكرَت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصوَر، فقال: «أُولَٰئِك إِذا ماتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ،

قوله: (باب ما جاء من التغليظ فيمن عبدالله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟).

أي الرجل الصالح؛ فإن عبادته هي الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة، لأنها تؤدي إلى الشرك وهو أعظم الذنوب.

قوله: (في الصحيح «عن عائشة رضي الله عنها أن أمَّ سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة[١] وما فيها من الصور. فقال: أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح؛ بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور. أولئك شرار الخلق عند الله» فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل).

قوله: (في الصحيح) أي الصحيحين.

قوله: (أن أم سلمة) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية. تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع. وقيل: ثلاث؛ وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة[٢] ماتت سنة اثنتين وستين.

قوله: (ذكرت لرسول الله) وفي الصحيحين أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا[٣] ذلك لرسول الله ﷺ و«الكنيسة» بفتح الكاف وكسر النون: مَعْبد النصارى.

قوله: (أولئكِ) بكسر الكاف، خطاب للمرأة.

قوله: (إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح) هذا - والله أعلم - شك من بعض رواة الحديث: هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه التحري في الرواية. وجواز الرواية بالمعنى.

قوله: (وصوروا فيه تلك الصور) الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة.

---

(١) لأن دين الحبشة: النصرانية. وقد أسلم النجاشي وجماعة من أهلها لما هاجر إليها جعفر بن أبي طالب ومن معه من المسلمين الهجرة الأولى.

(٢) ثم عادت مع زوجها أبي سلمة إلى مكة، وهاجر أبو سلمة إلى المدينة، وحبسها بنو المغيرة بمكة سنة؛ ثم لحقت بزوجها في المدينة، وتوفي أبو سلمة رضي الله عنه سنة أربع من الهجرة.

(٣) في قرة العيون: ولم [تذكرا] غير بناء المساجد والتصاوير لكونه ذريعة إلى عبادة من بنوا عليه المسجد وصوَّروا صورته فبذلك صاروا شرار الخلق. فانظر إلى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه مما هو أعظم من هذا، كالبناء على القبور وتعظيمها وعبادتها مع ذلك يعتقدونه دينًا وهو الشرك الذي حرَّمه الله، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، بالنهي عنه.

بَنَوا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وصَوَّروا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولٰئِكَ شِرار الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ»(١) فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل ولهما عنها قالت: لَما نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ

قوله: (أولئك شرار الخلق عند الله) وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثانًا لعنهم النبي ﷺ.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أعمالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم؛ ويعبدوا الله عند قبورهم؛ ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها. فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، سدًّا للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: (فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل) هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى؛ ذكره المصنف رحمه الله تنبيهًا على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور لأنها هي التي أوقعت كثيرًا من الأمم إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين؛ وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك. فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سدًّا للذريعة، وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور مُتبركًا بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن

---

(١) إنما كانوا شرار الخلق لأنهم ضلوا وأضلوا وسنوا لمن بعدهم الغلو في القبور وأهلها المفضي بالغالين إلى عبادتها وكل من فعل فعلهم من هذه الأمة - التي سبق عليها القول بأن بعضها يتبع سنن المشركين من أهل الكتاب فهو مصلهم - وفي مثل هؤلاء ورد الحديث الذي في الصحيح: «ومن سن سُنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة» وقال تعالى ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥] الآية.

ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَميصَةً لَهُ عَلى وَجْهِهِ، فَإِذا اغْتَمَّ بِها كَشَفَها فَقالَ - وَهُوَ كَذٰلِكَ -: «لَعْنَةُ اللهِ عَلى اليَهودِ والنَّصارَى اتَّخَذُوا قُبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِدَ» - يُحَذِّرُ ما صَنَعوا -

---

الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها واتخاذها مساجد، وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه. وقد صرّح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة. وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة. والذي ينبغي: أن تحمل على كراهة التحريم؛ إحسانًا للظن بالعلماء، وألا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ لعن فاعله والنهي عنه. اهـ كلامه رحمه الله تعالى.

قوله (ولهما عنها - أي عن عائشة رضي الله عنها - قالت: لما نُزل[١] برسول الله ﷺ طَفِق يطرح خَميصة له على وجهه، فإذا اغتمّ بها كشفها فقال - وهو كذلك -: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يحذر ما صنعوا. ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خَشي أن يتخذ مسجدًا» أخرجاه).

قوله: (ولهما) أي البخاري ومسلم. وهو يغني عن قوله في آخره أخرجاه.

قوله (لما نُزِل) هو بضم النون وكسر الزاي. أي: نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام.

قوله: (طفق) بكسر الفاء وفتحها. والكسر أفصح، وبه جاء القرآن. ومعناه: جعل.

قوله: (خميصة) بفتح المعجمة والصاد المهملة. كساء له أعلام.

قوله: (فإذا اغتم بها كشفها) أي: عن وجهه.

قوله: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٢] يبين أن من فعل مثل ذلك حل عليه من اللعنة ما حل على اليهود والنصارى.

قوله: (يحذر ما صنعوا) الظاهر أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور

---

(١) نُزِل: بضم النون وكسر الزاي أي: نزل به علامات الوفاة وخاف على أمته أن يتخذوا قبره مسجدًا ويغلوا فيه فيشركون بالله كما فعل الذين لعنهم فحذرهم من ذلك. جزاه الله خير الجزاء.

(٢) هذا هو الشاهد للترجمة، لأن النبي ﷺ لعنهم على تحري الصلاة عندها وإن كان المصلي إنما يصلي لله. فمن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون، لأنه ذريعة إلى عبادتها؛ فكيف إذا عبد المقبور فيها بأنواع العبادة؛ وسأله ما لا قدرة له عليه. وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها، وليست اللعنة خاصة باليهود والنصارى لأشخاصهم أو أزمانهم أو أسمائهم، وإنما هي لأعمالهم، وكذلك من فعل فعلهم، فمن فعل ما هو أعظم من فعلهم أولى باللعن، وإنما أراد ﷺ تحذير أمته أن يتعرّضوا لما تعرَّض له اليهود والنصارى من اللعنة، ولذلك قالت عائشة: «يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره».

وَلَوْلَا ذَٰلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا» أخرجاه.

أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء؛ ومن أعظم الوسائل إلى الشرك. ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه - تحذيرًا لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته - قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي في معنى الحديث: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها كما كان السبب في عبادة الأصنام. انتهى.

إذ لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف ابن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨] نكرةً في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: (ولولا ذلك) - أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجدًا - لأبرز قبره وجُعِلَ مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع.

قوله: (غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا) روي بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه. وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة - غلوًّا وتعظيمًا - بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه، ولعن فاعله.

قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته وسدوا المداخل إليها؛ وجعلوها محدقة بقبره ﷺ؛ ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتُصور الصلاة إليه بصورة العبادة. فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يُمَكِّنوا أحدًا من استقبال قبره(١) انتهى(٢).

---

(١) وكان هذا الوضع قد جعل القبر لاصقًا بالجدار الذي فيه باب جبريل ولكن قد أُزيلَ هذا الوضع وأخلي حول القبر من جهاته الأربع، وأصبح كثير من المصلين يستقبلونه ممن يكون في الموضع الخاص بالأغوات، وفي المكان الخاص بالنساء، وأصبح عرضة لأن يطاف به. وقد رأيت كثيرًا من العامة يطوفون به؛ ويحاولون التمسح به لولا منع الجند الذين خصصتهم الحكومة السعودية لذلك المنع. ومهما حرص الجند على أداء وظيفتهم؛ فلن يمكنهم ولا أي قوة تمنع هذا باتًّا، اللهم إلا العلم الذي ينير قلوب الجمهور الإسلامي ويعرفهم حقيقة محبة النبي ﷺ وإنها إنما تكون باتباع دينه كما كان أصحابه رضي الله عنهم يفعلون، وهم أشد الناس حبًّا لله ولرسوله ﷺ. وأن يعود الناس إلى الأمر الأول الذي كان عليه السلف الصالح في كل شؤونهم فعند ذلك لا حاجة لجند ولا قوة. والله يهدي الناس إلى ما فيه صلاح دينه ودنياهم.

(٢) وقد ذكر الشارح بعد هذا بعض ما ذكر المصنف من المسائل المستنبطة من حديث الباب حذفناها لعدم التكرار.

ولمسلم عن جُنْدُب بن عبدالله قال: سمعتُ النبي ﷺ قَبْل أن يموتَ بخمسٍ وهو يقول: «إِنِّي أَبْرَأُ إلى اللهِ أن يكونَ لِي مِنْكُمْ خَليلٌ فَإِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَليلًا كَما اتَّخَذَ إِبْراهيمَ خَليلًا. ولَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتي خَليلًا لاتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خَليلًا. أَلَا وإِنَّ مَنْ

قوله: (ولمسلم عن جُندب بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلًا؛ كما اتخذ إبراهيم خليلًا ولو كنت متخذًا من أُمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ألا وإنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»).

قوله: (عن جندب بن عبدالله) أي: ابن سفيان البَجَلي؛ وينسب إلى جده، صحابي مشهور. مات بعد الستين.

قوله: (إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل) أي أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله. والخَلّة فوق المحبة. والخليل هو المحبوب غاية الحب؛ مشتق من الخلة - بفتح الخاء - وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمِّيَ الخليل خليلًا

هذا هو الصحيح في معناها. كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قال القرطبي: وإنما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خُلّة غيره.

قوله: (فإن الله قد اتخذني خليلًا) فيه بيان أن الخلة فوق المحبة.

قال ابن القيم رحمه الله: وأما ما يظنه بعض الغالطين من: أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله؛ ومحمد حبيب الله فمن جهلهم، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلًا ونفى أن يكون له خليل غير ربه؛ مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم. وأيضًا فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين؛ وخلته خاصة بالخليلين.

قوله: (ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا) فيه بيان أن الصديق أفضل الصحابة. وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد. قاله المصنف رحمه الله. وهو كما قال بلا ريب[(١)].

---

(١) فإن أول من فعل ذلك العبيديون الذين زعموا كذبًا أنهم فاطميون. شيدوا للحسين - رضي الله عنه وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم - قبرًا بالقاهرة؛ ورفعوا عليه قبة عظيمة وبنوا له المسجد المشهور الذي بالقاهرة، يقام فيه من الأعمال

كانَ قَبْلَكُمْ كانوا يَتَّخِذونَ قُبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذوا القُبورَ مَساجِدَ فَإِنِّي أَنْهاكُم عَنْ ذٰلِكَ». فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن - وهو في السياق - مَنْ فعله. والصلاة عندها من ذلك وإن لم يُبن

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر، لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره. وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل: يُصَلِّي بهم عمر[1] وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ.

واسم أبي بكر: عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة الصدِّيق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم. مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه.

قوله: (ألا) حرف استفتاح (ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد) الحديث. قال الخلخالي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين: أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيمًا.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظرًا منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول: هو الشرك الجلي. والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: (فقد نهى عنه في آخر حياته) أي: كما في حديث جندب. وهذا من كلام شيخ الإسلام. وكذا ما بعده.

قوله: (ثم إنه لعن - وهو في السياق[2] - من فعله) كما في حديث عائشة.

قلت: فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تُعظَّم القبور ويبنى عليها، ويُصلَّى عندها وإليها؟ وهذا أعظم مشاقّة ومحادَّة لله تعالى ولرسوله لو كانوا يعقلون.

قوله: (والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد) أي: من اتخاذِها مساجد الملعون فاعله. وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعًا: «الأرض كلها مسجد إلا المقبرة

الشركية ما يغضب الله ورسوله وآل بيته وكل من في قلبه حب الله ورسوله والإيمان الصحيح. وقد صنف كثير من العلماء السالفين في بيان كذب أولئك العبيدين وبيان نحلتهم الكافرة الفاجرة، وأنهم كانوا يظهرون الرفض ويبطنون الكفر. وممن كتب في ذلك الإمام أبو بكر الباقلاني في كتاب نفيس سماه كشف الأسرار وهتك الأستار؛ والإمام ابن الجوزي وغيرهم. انظر في ذلك البداية والنهاية للعماد ابن كثير في حوادث سنة ٤٠٢هـ. ج١١ ص ٢٤٩).

(١) الذي قال ذلك وعرضه: عائشة رضي الله عنها كما في صحيح البخاري: قالت: «إن أبا بكر رجل أسيف، لا يملك نفسه إذا صلى. فمر عمر يصلي بالناس. فقال النبي ﷺ: إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصل بالناس».

(٢) أي في سياق الموت. أصله «سواق» قلبت الواو ياء لكسر السين، كأن روحه تساق لتخرج من البدن، وسياق وسواق مصدران من ساق يسوق.

مسجد؛ وهو معنى قولها: «خشِيَ أَنْ يتَّخذَ مَسْجِدًا»؛ فإن الصحابة لم يكونوا لِيبنوا حول قبره مسجدًا. وكل موضع قُصدتِ الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجدًا، بل كل موضع يُصلّى فيه يسمى مسجدًا كما قال ﷺ: «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وطَهورًا».

والحمام» رواه أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم.

قال ابن القيم رحمه الله: وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه - صيغة «لا تفعلوا» وصيغة «إني أنهاكم عن ذلك» - ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه؛ ولم يخش ربه ومولاه، وقلّ نصيبه أو عُدم من لا إله إلا الله، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له وغضبٌ لربه أن يعدل به سواه؛ فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكابًا لنهيه؛ وغرّهم الشيطان: بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيمًا وأشد فيهم غلوًا كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد. ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عبّاد يعوق ويغوث ونسر؛ ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة؛ فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم؛ فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية وسلب خصائص الإلهية عنهم.

قال الشارح رحمه الله تعالى: وممن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو محمد المقدسي، وشيخ الإسلام وغيرهم رحمهم الله، وهو الحق الذي لا ريب فيه.

قوله: (فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا) أي: لما علموا من تشديده في ذلك وتغليظه النهي عنه، ولعنِ مَن فعله.

قوله: (وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجدًا) أي: وإن لم يبن مسجد، بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجدًا، يعني: وإن لم يقصد بذلك: كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة في ذلك الموضع الذي حانت الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجدًا.

قوله: (كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»)[1] أي: فَسَمَّى الأرض مسجدًا، تجوز الصلاة في كل بقعة منها إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها، كالمقبرة ونحوها.

---

(١) رواه البخاري ومسلم عن جابر رضي الله عنه، وفيه زيادة «فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل حيث أدركته».

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْياءٌ، والَّذينَ يَتَّخِذونَ القُبورَ مَساجِدَ» ورواه أبو حاتم في صحيحه.

قال البغوي في شرح السنة: أراد أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بِيَعهم وكنائسهم؛ فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، ثم خص من جميع المواضع: الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى.

قوله: (ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود مرفوعًا) قوله: («إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه).

قوله: (إن من شرار الناس) بكسر الشين جمع شرير.

قوله: (من تدركهم الساعة وهم أحياء) أي مقدماتها، كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: (والذين يتخذون القبور مساجد) معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل، أي وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها.

وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك، تحذيرًا للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى[1].

فما رفع أكثرهم بذلك رأسًا؛ بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة لله تعالى، وهو مما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته.

والعجب أن أكثر من يدعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله؛ فلقد اشتدت غربة الإسلام وعاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة؛ نشأ على هذا الصغير وهَرِمَ عليه الكبير.

---

(١) في قرة العيون: (قلت) وقد وقع هذا في الأمة كثيرًا كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ كما لا يخفى على ذوي البصائر. وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور: منها: أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله وينسون الله ومنها: أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله. وجمعوا بين نوعي الشرك في الإلهية والربوبية، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهة، ومن ذلك قول: ابن كمال من أهل عمان وأمثاله: إن عبد القادر الجيلاني يسمع من دعاه، ومع سماعه ينفع، فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت فلقد ذهب عقل هذا وضل فكفر بما أنزله الله في كتابه كقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤] فما صدقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ولا آمنوا بما أنزله الله في كتابه بل بالغوا وعاندوا في رده وكذبوا وألحدوا وكابروا المعقول والمنقول فالله المستعان.

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل وغِلظ الأمر في ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيّن لهم هذا أوّلًا، ثم قبل موته بخمس، قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور فقد صرَّح عامة الطوائف بالنهي عنه، متابعة للأحاديث الصحيحة. وصرَّح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه. قال: ولا ريب في القطع بتحريمه؛ ثم ذكر الأحاديث في ذلك - إلى أن قال - وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، أو الملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره. هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين.

وقال ابن القيم رحمه الله: يجب هدم القباب التي بنيت على القبور، لأنها أُسست على معصية الرسول ﷺ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرَّافة من الأبنية، منهم ابن الجُمَّيزي والظَّهير التزْمَنتي وغيرهما.

وقال القاضي ابن كجّ: ولا يجوز أن تُجَصَّص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب، ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرُعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي في حديث جابر رضي الله عنه - «نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه» - وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور. وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقال ابن رشد: كره مالك البناء على القبر وجعْلَ البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطَّول، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف عليه.

وقال الزيلعي في شرح الكنز: ويكره أن يبنى على القبر، وذكر قاضي خان: أنه لا يُجَصَّص القبر ولا يبنى عليه؛ لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلَّة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجدًا.

العاشرة: أنه قَرَن بين مَن اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

القبر. والمراد بالكراهة - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابن نُجَيم في شرح الكنز.

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يُجعل قبره مسجدًا مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس. وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة كراهة التحريم.

قال الشارح رحمه الله تعالى: وجزم النووي رحمه الله في شرح المهذب بتحريم البناء مطلقًا، وذكر في شرح مسلم نحوه أيضًا.

وقال أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار كالمغني والكافي وغيرهما - رحمه الله تعالى -: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى» الحديث. وقد روِّينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها، انتهى[1].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا؛ لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة: فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بني عليه مسجد، فلا يصلى في هذا المسجد سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب: لأن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك» وَخَصَّ قبور الأنبياء لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم؛ واتخاذها

---

(١) وقد صرَّح ابن حجر الهيتمي المكي في كتابه الكبائر: إن بناء القباب على القبور من الكبائر المحرمة بالنصِ الصريح. وإن الواجب على ملوك المسلمين وأمرائهم وولاتهم أن يهدموا هذه القباب ويبدؤوا بقبة الإمام الشافعي.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الردُّ على الطائفتين اللتين هما أشرّ أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية، وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أُكرم به من الخلة.

مساجد أشد، وكذلك إن لم يكن بُنِيَ عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يُسمى مسجدًا، كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» وإن كان موضع قبر أو قبرين.

وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال: «لا أصلي في حمام ولا عند قبر».

فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولًا لحريم القبر وفنائه؛ ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة؛ سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفًا.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز. وذكر حديث أبي مَرْثَد عن النبي ﷺ: «لا تُصلُّوا على القبور»[1] وقال: إسناده جيد، انتهى.

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق. فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي: ما يؤدي إليه ذلك: من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم، أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد وغيّروا فيها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد، فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبَّلة، والنهي عن الصلاة فيها لتنجُّسها بصديد الموتى. وهذا كله باطل من وجوه: منها: أنه من القول على الله بلا علم. وهو حرام بنص الكتاب.

ومنها: أن ما قاله لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه، وما المانع له أن يقول: من صلى

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصدِّيق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

في بقعة نجسة فعليه لعنة الله. ويلزم على ما قاله هؤلاء أن النبي ﷺ لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعًا عقلًا وشرعًا، لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل. فإن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضًا: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يَعُم الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، عُلم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلتُ أقوالهم.

والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

* * *

٢٠ - باب
ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله

روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ،

قوله: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثانًا تعبد من دون الله).

(روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبَد؛ اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»)[1].

هذا الحديث رواه مالك مرسلًا عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار: أن رسول الله ﷺ قال. الحديث. ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به، ولم يذكر عطاء. ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا.

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

قوله: (روى مالك في الموطأ) هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبو عبدالله المدني. إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة وأحد المتقنين للحديث، حتى قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع، عن ابن عمر. مات سنة تسع وسبعين ومائة، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين. وقيل: أربع وتسعين. وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

قوله: (اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد) قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

فأجاب رب العالمين دعاءه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عُبِدَ لكان وثنًا، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه. ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها. وقد عظمت الفتنة بالقبور لتعظيمها وعبادتها، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة، إذا غُيِّرت قيل: غيرت السنة» انتهى.

---

(١) في قرة العيون: وذلك أنه ﷺ خاف أن يقع في أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله وسبب ذلك الغلو فيهم كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] وكذلك رغب ﷺ إلى ربقه ألَّا يجعل قبره وثنًا يعبد، وقد عبدت القبور بأنواع العبادة كما لا يخفى. وتقدم في حديث عائشة رضي الله عنها: «ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا». وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ وصان قبره وأحاطه بثلاثة جدران.

اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبورَ أَنْبِيائِهِمْ مَسَاجِدَ».

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ.

قال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: «أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ»[١] فقطعها لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها؛ فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سُويد: «صليت مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: ياأمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه؛ فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا، كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد فليصلِّ، ومن لا فليمضِ ولا يتعمدها».

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بُكير عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: «لما فتحنا تُستَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر؛ فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد، قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لِنُعميّه على الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حُبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة، قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال: لا ، إلا شعيرات من قفاه، إنّ لحوم الأنبياء لا تُبليها الأرض»[٢].

---

(١) كان ذلك في صلح الحديبية. وهي الشجرة التي ذكرها الله تعالى في سورة الفتح ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾؛ وذلك حين أشاع الناس أن عثمان بن عفان قتلته قريش حين بعثه النبي ﷺ سفيرًا بينه وبين قريش، فقال: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان على الموت، وكان المبايعون ألفًا وأربعمائة، ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي كان من أمر عثمان باطل. والقصة رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أصحاب السير والمغازي.

(٢) ذكرها الطبري: ج ٤ ص ٢٢٠، في حوادث سنة ١٧ هـ قال: قيل لأبي سبرة هذا جسد دانيال في هذه المدينة. قال وما لنا بذلك؟ فأقره بأيديهم، ثم ذكر خبر دانيال وسبي بختنصر له من بيت المقدس وموته بالسوس؛ فكان هنالك يستسقى بجسده، فلما فتحها المسلمون أتوا فأقروه في أيديهم؛ حتى إذا ولى أبو سبرة عنهم إلى ندي سابور أقام أبو موسى بالسوس وكتب إلى عمر فيه. إلخ القصة. وقد ذكرها أبو عبيدة في الأموال ص ٣٤٣ رقم ٨٧٦ عن قتادة قال: «لما فتحت السوس وعليهم أبو موسى الأشعري وجدوا دانيال في أبرن، وإذا إلى جانبه مال موضوع وكتاب فيه: «من شاء أتى فاستقرض منه إلى أجل، فإن أتى به إلى ذلك الأجل وإلا برص». قال: فالتزمه أبو موسى وقبله، وقال: دانيال ورب الكعبة. ثم كتب في شأنه إلى عمر فكتب إليه عمر: كفنه وحنطه وصل عليه ثم أدفنه كما دفنت الأنبياء صلوات الله عليهم،

. . . .

قال ابن القيم رحمه الله: ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يُفتتن به؛ ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به؛ ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيف ولعبدوه من دون الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو إنكار منهم لذلك؛ فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها - فهو من المنكرات، وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها بحيث يخص تلك البقة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به لا نوعًا ولا عينًا، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى؛ كما جاءت به السنة، وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره؛ فهذا هو المنهي عنه. انتهى ملخصًا.

قوله: (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر، وفي القِرى للطبري[1] من أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعلل ذلك بقوله ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد» الحديث. كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر، لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سدًّا للذريعة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفًا عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ - إلى أن قال - وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول: «زرت قبر النبي ﷺ» لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج؛ ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس؛ فهم يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا. وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به. أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى. ألا ترى إلى قوله: «فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» مع زيارته لقبر أمه. فإن هذا يتناول قبور الكفار، فلا يُفهَمُ من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة

وانظر ماله فاجعله في بيت مال المسلمين، قال فكفنه في قباطي بيض وصلى عليه ودفنه» وقال البلاذري ص ٣٧١: «ورأى أبو موسى في قبلتهم بيتًا وعليه ستر فسأل عنه فقيل؛ إن فيه جثة دانيال النبي، فإنهم كانوا أقحطوا، فسألوا أهل بابل دفعه إليهم ليستسقوا به ففعلوا. وكان بختنصر سبى دانيال وأتى به إلى بابل فَقُبِضَ بها. فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر أن كفنه وادفنه، فسكَّر أبو موسى نهرًا حتى إذا انقطع دفنه ثم أجرى الماء عليه».

(١) كتاب «القرى لقاصد أم القرى» تأليف المحب الطبري.

ولابن جرير بسنده عن سفيان بن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ قال: «كانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّويقَ[١] فَماتَ فَعَكَفوا عَلى قَبْرِهِ» وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: «كانَ يَلُتُّ السَّويقَ لِلْحَاجِ».

به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع؛ بخلاف ما إذا كان المزور معظمًا في الدين كالأنبياء والصالحين؛ فإنه كثيرًا ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية؛ فلهذا كره مالك ذلك في مثل هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة. اهـ.

وفيه: أن النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

قوله: (ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد «أفرأيتم اللات والعزى» قال: كان يَلُت لهم السويق، فمات فعكفوا على قبره، وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: «كان يلت السويق للحاج»).

قوله: (ولابن جرير) هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها. قال ابن خزيمة: لا أعلم على الأرض أعلم من محمد بن جرير وكان من المجتهدين لا يقلد أحدًا. وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين؛ ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر وثلاثمائة.

قوله: (عن سفيان) الظاهر: أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبدالله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد كان مجتهدًا؛ وله أتباع يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: (عن منصور) هو ابن المعتمر بن عبدالله السلمي ثقة ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن مجاهد) هو ابن جَبْر - بالجيم والموحدة - أبو الحجاج المخزومي مولاهم المكي، ثقة إمام في التفسير، أخذ عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم. مات سنة أربع ومائة؛ قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين أو ثلاث ومائة وهو ساجد، ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه.

قوله: (كان يلت السويق لهم فمات فعكفوا على قبره) في رواية: «فيطعم من يمرّ من الناس. فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللاتّ» رواه سعيد بن منصور.

ومناسبته للترجمة: أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين.

---

(١) السويق: دقيق الحنطة أو الشعير؛ ولته بله بالماء أو السمن، والحاج بمعنى الحجاج.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زائراتِ القُبورِ والمُتَّخذينَ عَلَيْها المَساجِدَ والسُّرُجَ» رواه أهل السنن.

قوله: (وكذا قال أبو الجوزاء) هو أوس بن عبدالله الرَّبَعي، بفتح الراء والباء، مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخاري: حدثنا مسلم - وهو ابن إبراهيم -: حدثنا أبو الأشهب[1]: حدثنا أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: «كان اللات رجلًا يلت سويق الحاج».

قال ابن خزيمة: وكذا العُزّى، وكانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أحد: «لنا العزّى ولا عُزّى لكم».

قوله: (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج» رواه أهل السنن).

قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت، فأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد والترمذي وصححه[2]. وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبدالرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال: «لعن رسول الله ﷺ زوّارات القبور».

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم[3] قال علي بن المديني عن يحيى القطان: لم أر أحدًا من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ، وما سمعت أحدًا من الناس يقول فيه شيئًا، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبدالله بن عثمان. قال ابن معين: ليس به بأس ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه. انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزي.

---

(١) أبو الأشهب هو جعفر بن حيان التيمي السعدي العطاردي الحذاء الأعمى. مات سنة ١٦٥هـ.

(٢) أخرجه الترمذي من طريق عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة: «أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور» وقال هذا حسن صحيح - وأخرجه ابن حبان في صحيحه - قال الترمذي: وفي الباب عن عائشة وحسان بن ثابت. وحديث حسان بن ثابت رواه الإمام أحمد في مسنده أيضًا. وروى ابن حبان في صحيحه عن عبدالله بن عمرو. وحديث فاطمة بنت رسول الله ﷺ في عزائها أهل ميت في ميتهم، فقال لها: «لعلك بلغت معهم الكدى؟ قالت: معاذ الله وقد سمعتك تذكر فيها ما تذكر. قال: لو بلغت الكدى معهم ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك».

(٣) وأبو صالح اسمه باذام، أو باذان. وقد صرح في هذا الحديث بالتحديث عن ابن عباس فانتفت تهمة التدليس؛ ثم قد حسن الترمذي هذا الحديث وإن كان الحافظ المنذري قد تعقبه عليه. وقال الحافظ ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود في باب كراهية اتخاذ القبور مساجد: وفي صحيح أبي حاتم عن أبي صالح عن ابن عباس قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج» قال أبو حاتم: أبو صالح هذا اسمه مهران ثقة. وليس بصاحب الكلبي. ذاك اسمه باذام، وقال الأشبيلي: هو باذام صاحب الكلبي، وهو عندهم ضعيف جدًا، وكان شيخنا أبو الحجّاج المزي يرجع هذا أيضًا.

. . . .

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور». وذكر حديث ابن عباس. ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر، وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب، ومثل هذا حجة بلا ريب، وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي، فإنه جعل الحسن ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم، ولم يكن شاذًا، أي مخالفًا لما ثبت بنقل الثقات وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات، هذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان رواه عن صاحب وذاك عن آخر؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف، والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها زارت قبر أخيها عبدالرحمن وقالت: «لو شهدتك ما زرتك» وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال، إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته سواء شهدته أم لا.

قلت: فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة.

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذي من رواية عبدالله بن أبي مُليكة عنها، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبدالله بن أبي مليكة أيضًا: «أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر. فقلت لها: ياأم المؤمنين؛ أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها».

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال: ولا حجة في حديث عائشة فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة. يبين ذلك قولها: «قد أمر بزيارتها» فهذا يبين أنه أمر بها أمرًا يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة، ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال ولم تقل لأخيها «لما زرتك» واللعن صريح في التحريم، والخطاب بالإذن في قوله: «فزوروها» لم يتناول النساء فلا يدخلن في الحكم الناسخ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخًا له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه؛ وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذ قد يكون قوله «لعن الله زوارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج، ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر.

. . . .

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله ﷺ «فزوروها» صيغة تذكير. وإنما يتناول النساء أيضًا على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل. وقيل إنه يحتمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن الزيارة للقبور. وما علمنا أحدًا من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك: «يذكّر الموت، ويرقّق القلب، وتدمع العين» هكذا في مسند أحمد. ومعلوم أن المرأة إذا فُتِحَ لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر، وإذا كانت زيارة النساء مظنّة وسببًا للأمور المحرمة فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك؛ ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفيّة أو منتشرة عُلّق الحكم بمظنتها. فيحرم هذا الباب سدًّا للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك، وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت وذلك ممكن في بيتها.

ومن العلماء من يقول: التشييع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ: «ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتنّ الحي وتؤذين الميت»، وقوله لفاطمة: «أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلي الجنة» ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز ومعلوم أن قوله ﷺ: «من صلى على جنازة فله قيراط ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان» هو أدلُّ على العموم من صيغة التذكير. فإن لفظ «من» يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز، فإذا لم يدخلن في هذا العموم فكذلك في ذلك بطريق الأولى. انتهى ملخصًا.

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصًا للرجال، خص بقوله: «لعن الله زوّارات القبور» الحديث. فيكون من العام المخصوص.

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضًا.

منها: أن ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع، وأما تعليمه عائشة كيف تقول إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد والله أعلم.

قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه تطهير الاعتقاد: فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه: غالبُ - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير؛ ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي مَن بعدهم فيجد قبرًا قد شيّد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع. حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن[1] من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة معروفة فإن ذلك في نفسه منهي عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى.

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة والله أعلم.

قوله: (والمتخذين عليها المساجد) تقدم شرحه في الباب قبله.

قوله: (السُّرُج) قال أبو محمد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن مَن فَعله، لأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة؛ وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

---

(١) في تطهير الاعتقاد: ولهذا الأمر ثبت في الأحاديث النبوية اللعن على من أسرج القبور إلخ.

الرابعة: قَرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.[١]

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها. صفة معرفة عبادة اللات التي هي أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنة زوارات القبور.

العاشرة: لعنة مَن أسرجها.

وقال ابن القيم رحمه الله: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر .

قوله: (رواه أهل السنن) يعني أبا داود والترمذي وابن ماجه فقط ولم يروه النسائي.

* * *

(١) يعني أنه لما قرن بذلك الدعاء اتخاذ القبور مساجد علم أن اتخاذها مساجد ذريعة إلى اتخاذها أوثانًا.

(٢) وقد عده ابن حجر الهيثمي في الكبائر أيضًا.

٢١ - باب
ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ

قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك).

الجناب: هو الجانب: والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾) [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى ممتنًّا على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولًا من أنفسهم أي من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منكم، كما قال جعفر ابن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولًا منا نعرف نسبه وصفته، ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته» وذكر الحديث. قال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: «لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية»(١).

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يَعِزُّ عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها(٢) ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» وفي

---

(١) ثم ذكر ابن كثير الحديث: «خرجت من نكاح ولم أخرج من سِفاح» وقد وصل هذا من وجه آخر. كما قال الحافظ أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي. وقد استدل بعض الجاهلين بهذا على إيمان آباء النبي ﷺ وهذا من عظيم جهلهم فليس فيه أي دليل، لأن في البخاري من حديث عائشة أنهم كانوا في الجاهلية لهم نكاح هو نكاح الناس اليوم.

(٢) في قرة العيون: ووجه الدلالة بالآية أنه ﷺ يعز عليه كل ما يؤثم الأمة ويشق عليهم وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره ووسائله وما يقرب منه من كبائر الذنوب، وقد بالغ ﷺ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغة كما لا يخفى، وقد كانت هذه حالة أصحابه رضي الله عنهم في قطعهم الخيوط التي يرقى للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمائم.

﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلوا بُيُوتَكُمْ قُبورًا ولَا تَجْعَلوا قَبْري عيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُني حَيْثُ كُنْتُمْ» رواه أبو داود بإسناد

الصحيح «إن هذا الدين يسر» وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم. وعن أبي ذر رضي الله عنه[1] قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلَّا وهو يذكر لنا منه علمًا» أخرجه الطبراني. قال[2]: وقال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم».

وقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٧] وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي عما جئتم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة: ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وُصِفَ بها رسول الله ﷺ في حق أمته: أن أنذَرهم وحذَّرهم الشرك الذي هو أعظمُ الذنوب، وبيّن لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب.

قوله: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبو داود بإسناد حسن. ورواته ثقات)[3].

قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) قال شيخ الإسلام: أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور؛ فأمر بتحري العبادة في البيوت ونهى عن تحريها عند

---

(١) ساق ابن كثير سند الطبراني إلى أبي ذرٍّ.

(٢) أي قال أبو ذرٍّ: وهو من رواية الطبراني أيضًا: وقد ذكر الحافظ ابن كثير بعد هذا الحديث من طريق الإمام أحمد عن ابن عباس حديث الملكين اللذين أتيا رسول الله ﷺ في المنام وقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه. ثم ضربا له ولأمته المثل. وروى عدة أحاديث في هذا المعنى في رحمة النبي ﷺ.

(٣) في قرة العيون: قال الحافظ محمد بن عبدالهادي: هو حديث حسن؛ جيد الإسناد، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة. نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها، كما تهجر القبور عن الصلاة إليها، مخافة الفتنة بها، وما يفضي إلى عبادتها من دون الله لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم، فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك.

حسن، رواته ثقات.

وعن عليّ بن الحسين «أنّه رَأى رَجُلًا يَجيءُ إلى فُرْجَةٍ كانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبيِّ ﷺ، فَيَدْخُلُ فِيها فَيَدْعُو فَنَهاهُ، وقالَ: ألا أُحَدِّثُكُمْ حَديثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ

القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

وفي الصحيحين عن ابن عمر مرفوعًا: «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا» وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر فإن الشيطان يفرّ من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه».

قوله: (ولا تجعلوا قبري عيدًا) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائدًا: إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: العيد ما يعتاد مجيئه وقصده، من زمان ومكان، مأخوذًا من المعاودة والاعتياد، فإذا كان اسمًا للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيدًا للحنفاء ومثابة؛ كما جعل أيام التعبد فيها عيدًا. وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية. فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوَّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوَّضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

قوله: (وصلُّوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم).

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: يشير بذلك إلى أن ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدًا.

قوله: (لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) تقدم كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله اهـ.

قوله: (وعن علي بن الحسين رضي الله عنه: «أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟ قال: لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم» (رواه في المختارة).

هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين.

أما الأول فرواه أبو داود وغيره من حديث عبدالله بن نافع الصائغ قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره، ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع قال فيه أبو حاتم: ليس بالحافظ، تعرف وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به. قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ،

اللهِ ﷺ قالَ: لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، ولَا بُيُوتَكُمْ قُبورًا، وصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ يَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» رواه في المختارة.

وهذا له شواهد متعددة. وقال الحافظ محمد بن عبدالهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة، وأما الحديث الثاني فرواه أبو يعلى، والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فانظر هذه السنة، كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. اهـ.

قال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا عبدالعزيز بن محمد: أخبرني سهيل بن أبي سهل قال: «رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى، فقال: هلمّ إلى العشاء، فقلت: لا أريده، فقال: مالي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم؛ لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء»(١).

وقال سعيد أيضًا: حدثنا حبان بن علي حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد مولى المهري قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تتخذوا قبري عيدًا ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني».

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله. وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يُرْوَ من وجوه مسندة غير هذين، فكيف وقد تقدم مسندًا؟

قوله: (علي بن الحسين) أي: ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم، قال الزهري: ما رأيت قُرَشِيًّا أفضل منه. مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح. وأبوه الحسين سِبْط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ

---

(١) قال في قرة العيون: وهذا أيضًا له قرب النسب وقرب الدار؛ فنهى عن المجيء إلى القبر للدعاء عنده. فالمجيء إلى القبر للسلام عليه وتحري إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة. ولو كان مشروعًا لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين، ولما أنكروا على ما فعله، وقولهم هو الحجة، وهو الذي دلت عليه الأحاديث، كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما، لعلم السلف بما أراده النبي ﷺ بنهيه عن الغلو؛ وخوفه مما وقع ممن غلا في الدين، واتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

. . . .

عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه.

قوله: (أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة) بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكُوّة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: (فيدخل فيها فيدعو فنهاه) هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ما علمت أحدًا رخص فيه، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا ويدل أيضًا على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه، لأن ذلك لم يشرع، وكره مالك لأهل المدينة، كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: «ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها». وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك؛ أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم؛ بل نهاهم عنه في قوله: «لا تتخذوا قبري عيدًا وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني» فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد. وكانت الهجرة في زمانهم يُدخَل إليها من الباب، إذ كانت عائشة رضي الله عنها فيها؛ وبعد ذلك، إلى أن بني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم، وبيّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره[1] وقبر غيره؛ حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجًا من القبر؛ ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف؛ وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر. كما كان ابن عمر يفعله. قال عبيد الله بن عمر عن نافع: «كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يارسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام

---

(١) ومن ذلك الحكاية المفتراة المنسوبة إلى الشيخ أحمد الرفاعي؛ وأنه طلب من النبي ﷺ مد يده ليقبلها ففعل، وخرجت اليد فقبلها. فانظر بالله كيف استطاعت شياطين الجن والإنس أن تلعب بعقول أولئك المخبولين، المحرومين من كل علم وعقل ودين، ولا حول ولا قوّة إلا بالله.

. . . .

عليك يا أبتاه، ثم ينصرف» قال عبيد الله: «ما نعلم أحدًا من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلا ابن عمر» وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة. وفي المبسوط: قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره.

وبالجملة فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر؛ وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟ وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد، لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا. بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها. وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله - أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين - ونقل فيها اختلاف العلماء، فمن مبيح لذلك، كالغزالي وأبي محمد المقدسي. ومن مانع لذلك، كابن بَطّة وابن عقيل، وأبي محمد الجُويني، والقاضي عياض. وهو قول الجمهور، نص عليه مالك ولم يخالفه أحد من الأئمة، وهو الصواب، لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «لا تُشَدُّ الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» فدخل في النهي شَدُّها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهيًا، وإما أن يكون نفيًا. وجاء في رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة رضي الله عنهم المنع - كما في الموطأ والمسند والسنن - عن بَصْرة بن أبي بصرة الغفاري أنه قال لأبي هريرة - وقد أقبل من الطور -: لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تُعْمَل المَطيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذَا، والمسجد الأقصى» وروى الإمام أحمد وعمر بن شَبّة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قَزَعة قال: «أتيت ابن عمر فقلت: إني أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأته» فابن عمر وبَصْرة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نهي عن شد الرحال إليه، لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصًا بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث. والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة. فإن الله سماه الوادي المقدس؛ والبقعة المباركة وكلّم كليمه موسى عليه السلام هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء؛ ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه

(١) قاضي المالكية في عصره، والرد عليه مطبوع بهامش الرد على البكري، على نفقة جلالة الملك الصالح المصلح؛ الملك عبد العزيز آل سعود. أدام الله تأييده ونصره.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أُمته عن الحِمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلي في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تُعرَض أعمال أُمته في الصلاة والسلام عليه.[1]

بما كتبه شيخ الإسلام مجيبًا لابن الأخنائي[1] فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة - وأخذ به العلماء - وقياس الأولى؛ لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة في ذلك توجب شدّ الرحال؛ ولا مزية تدعو إليه، وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبدالهادي في كتاب الصارم المنكي في رده السبكي، وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي ﷺ وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، مع أنها لا تدل على محل النزاع، إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال؛ فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

قوله: (رواه في المختارة) المختارة: كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على الصحيحين.

ومؤلفه: هو أبو عبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام. قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان. فالله يرحمه ويرضى عنه.

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

---

(١) يريد المصنف رحمه الله أن النبي ﷺ لا يُعرَضُ عليه من أعمالنا إلّا الصلاة والسلام عليه فقط، لا كما يظنه المبتدعون أن كل الأعمال تعرض عليه فإن وجد خيرًا حمد الله وإن وجد غير ذلك استغفر، مستدلين على ذلك بحديث أوهن من بيت العنكبوت ومعرضين عن صحاح النصوص من الكتاب والسنة التي رواها البخاري ومسلم.

٢٢ - باب
ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

قوله: (باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان)

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

«الوثن»: يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت:١٧] ﴿قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء:٧١] وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات:٩٥] فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عُبِدَ من دون الله؛ كما تقدم في الحديث.

قوله: (﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾) روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «جاء حُيَيُّ بن أخطَب وكعبُ بن الأشرف إلى أهل مكة فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد. فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكَوْماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفُكُّ العناة؛ ونسقي الحجيج، ومحمد صنُبور، قطع أرحامنا، واتبعه سُرّاق الحجيج من غِفار. فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلًا» فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾[١]. وفي مسند أحمد عن ابن عباس نحوه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الجبت: السحر؛ والطاغوت: الشيطان» وكذلك قول ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وغيرهم. وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك «الجبت: الشيطان - زاد ابن عباس -: بالحبشية» وعن ابن عباس أيضًا: «الجبت: الشرك»

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: وقد روى هذا من غير وجه عن ابن عباس وجماعة من السلف؛ وقال الإمام أحمد عن عكرمة عن ابن عباس قال: «لما قدم كعب بن الأشرف مكة قال قريش: ألا ترى هذا الصنبور المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية. قال أنتم خير: قال: فنزلت فيهم: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ ونزل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآية و«الكوماء»: الناقة العظيمة السنام لسمنها. و«العناة» جمع «عان» وهو الأسير. و«الصنبور» الأبتر الذي لا عقب له. وأصله سحفة تنبت في جذع النخلة لا في الأرض، وقيل: هي النخلة المنفردة التي دق أسفلها. أرادوا أنه إذا قُلع انقطع ذكره كما يذهب الصنبور، لأنه لا عقب له.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

وعنه «الجبت: الأصنام» وعنه «الجبت: حيي بن أخطب» وعن الشعبي: «الجبت: الكاهن» وعن مجاهد «الجبت: كعب بن الأشرف» قال الجوهري: «الجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر» ونحو ذلك[١].

قال المصنف رحمه الله تعالى: (وفيه معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الوضع هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها، مع بغضها، ومعرفة بطلانها؟).

قوله: (وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾) [المائدة: ٦٠].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يامحمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: غضبًا لا يرضى بعده أبدًا: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ وقد قال الثوري عن عَلْقمة بن مَرْثَد عن المغيرة بن عبدالله اليَشْكُري عن المعرور بن سُويد: أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سُئِلَ رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير، أهي مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يُهلك قومًا - أو قال: لم يمسخ قومًا - فجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» رواه مسلم[٢].

قال البغوي في تفسيره ﴿قُلْ﴾: يامحمد، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾: أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾: الذي ذكرتم، يعني قولهم: لم نَرَ أهل دين أقلَّ حظًّا في الدنيا والآخرة منكم، ولا دينًا شرًّا من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شرًّا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثوابًا وجزاء، نُصِبَ على التفسير ﴿عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: هو من لعنه الله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ يعني: اليهود ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾، فالقردة أصحاب السبت؛ والخنازير كفار مائدة عيسى، وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مُسِخُوا قردة وشيوخهم مُسِخُوا خنازير».

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ أي: وجعل منهم مَنْ عبد الطاغوت، أي: أطاع الشيطان فيما سوّل

---

(١) زاد ابن كثير عن الجوهري: وفي الحديث «الطيرة والعيافة والطرق من الجبت» قال ابن كثير: رواه الإمام أحمد عن قبيصة ابن مخارق.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر في باب بيان أن الآجال والأرزاق لا تزيد ولا تنقص من وجهين: أولهما: عن أبي بكر بن أبي شيبة؛ وأبي كريب عن مسعر، وهذا هو الذي فيه: «ولا عقبا» والثاني: عن إسحاق بن إبراهيم الحنظلي وحجاج بن الشاعر واللفظ لحجاج: وليس فيه: «ولا عقبا».

(٣) في البغوي: وتصدقها قراءة ابن مسعود.

. . . .

له، وقرأ ابن مسعود[١]: (وعبدوا الطاغوت) وقرأ حمزة: (وعَبُد) بضم الباء، و(الطاغوت) بجر التاء[٢] أراد العبد. وهما لغتان: عَبْد بسكون الباء، وعبُد بضمها، مثل سبْع وسبُع[٣] وقرأ الحسن: (وعبْد الطاغوت) على الواحد[٤].

وفي تفسير الطبرسي: قرأ حمزة وحده: (وعبُد الطاغوتِ) بضم الباء وجر التاء، والباقون: (وعبَد الطاغوتَ) بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب: (وعُبُدَ الطاغوتِ) بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء، قال: وحجة حمزة في قراءته: (وعبُد الطاغوت) أنه يحمله على ما عمل فيه ﴿جَعَلَ﴾ كأنه: وجعل منهم عبد الطاغوت. ومعنى: ﴿جَعَلَ﴾: خلق. كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وليس (عبد) لفظ جمع لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الإفراد ومعناه الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُس؛ وكأن تقديره: أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأما من فتح فقال: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فإنه عطفه على بناء المُضِيّ الذي في الصلة: وهو قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وأفراد الضمير في: ﴿عَبَدَ﴾ وإن كان المعنى فيه الكثرة، لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه، وفاعله ضمير ﴿مَّن﴾ كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير ﴿مَّن﴾ فأُفْرِدَ لحمل ذلك جميعًا على اللفظ. وأما قوله (عُبُدَ الطاغوتِ) فهو جمع عَبْد[٥].

وقال أحمد بن يحيى: عُبُد جمع عابد؛ كبازل وبُزل، وشارف وشُرف، وكذلك عبد جمع عابد. ومثله عِباد وعُبّاد. اهـ.

وقال شيخ الإسلام في قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الصواب أنه معطوف على ما قبله من الأفعال، أي: مَن لعنه وغضب عليه، ومَن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت. قال: والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم: الله، مظهرًا أو مضمرًا. وهنا الفاعل اسم: مَنْ عَبَدَ الطاغوت، وهو الضمير في (عبد). ولم يعد سبحانه: ﴿مَّن﴾ لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال

---

(١) فيكون على الإضافة، على أن المعنى: وجعل منهم خدم الطاغوت، أي خدامه وعبيده.

(٢) في تفسير البغوي وقيل: هو جمع العباد وقرأ الحسن إلخ.

(٣) آخر النقل عن البغوي.

(٤) قال ابن كثير: على أنه جمع الجمع. عبد عبيد عبد؛ مثل ثمار ثمر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَتتبعنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حَتّى لَوْ دَخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُموهُ، قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهودَ والنَّصارى؟ قالَ: فَمَنْ؟» أخرجاه.

ولمسلم عن ثَوبانَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الأَرْضَ

أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العماد بن كثير في تفسيره، وهو ظاهر.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾) [الكهف:٢١].

والمراد أنهم فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله. لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد» أراد تحذير أُمته أن يفعلوا كفعلهم.

قوله: (عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سَنن من كان قبلكم حَذْو القُذة بالقُذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: يارسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» أخرجاه) وهذا سياق مسلم.

قوله: (سنن) بفتح المهملة أي طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى. قوله: (حذو القذة بالقذة) بنصب حذو على المصدر. والقذة بضم القاف واحدة القذذ وهو ريش السهم. أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر؛ وهو عَلم من أعلام النبوة.

قوله: (حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه) وفي حديث آخر: «حتى لو كان فيهم من يأتي أُمه علانية لكان في أُمتي من يفعل ذلك» أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئًا مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئًا ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود؛ ومن فسد من عُبادنا ففيه شبه من النصارى. اهـ.

قلت: فما أكثر الفريقين؛ لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريبًا.

قوله: (قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) هو برفع (اليهود) خبر مبتدأ محذوف؛ أي أهُم اليهود والنصارى الذين نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: تعني.

قوله: (قال: فمن؟) استفهام إنكاري. أي فمن هم غير أولئك؟

فَرَأَيْتُ مَشَارِقَها ومَغَارِبَها. وإِنَّ أُمَّتي سَيَبْلُغُ ملكُها ما زَوِيَ لِي مِنْها، وأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ: الأَحْمَرَ والأَبْيَضَ، وإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَها بِسَنَةٍ بِعَامةٍ، وأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وإِنَّ رَبِّي قالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذا قَضَيْتَ

قوله: (ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أُمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها. وأعطيت الكنزين: الأحمر؛ والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يامحمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة. وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا» ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق حَيٌّ من أمتي، بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان. وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

هذا الحديث رواه أبو داود في سننه وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف قوله: (عن ثوبان) هو مولى النبي ﷺ صحبه، ولازمه. ونزل بعده الشام ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: (زوى لي الأرض) قال التُّورِبِشْتي: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطَّلع عليه اطِّلاعه على القريب. وحاصله أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره قال الطيبي: أي: جمعها، حتى بصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: (وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها) قال القرطبي: هذا الخبر وُجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته؛ وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجة - بالنون والجيم - الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السند والهند والصُّغْد؛ ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال؛ وذلك لم يذكر عليه السلام أنه أُريه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه.

قوله: (زوى لي منها) يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل، وأن يكون مبنيًّا للمفعول.

قوله: (وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض) قال القرطبي: يعني به كنز كسرى، وهو مَلِك الفُرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما. وقد قال ﷺ: «والذي نفسي

قَضاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ. وأَنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عامةٍ. وأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَلَو اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطارِها حَتّى يَكونَ بَعْضَهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، ويَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا». ورواه البرقاني في صحيحه. وزاد: «وإِنَّما

بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» وعبر بالأحمر عن كنز قيصر لأن الغالب عندهم كان الذهب؛ وبالأبيض عن كنز كسرى لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. ووجد ذلك في خلافة عمر. فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر. «والأبيض والأحمر» منصوبان على البدل.

قوله: (وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة) هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله (بعامة) بالباء وهي رواية صحيحة في صحيح مسلم وفي بعضها بحذفها. قال القرطبي: وكأنها زائدة لأن عامة صفة السنة، والسنة: الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة. ويجمع على سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي: الجدب المتوالي.

قوله: (من سوى أنفسهم) أي من غيرهم من الكفار: من إهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا؛ كما هو مبسوط في التاريخ فيما قبل، وفي زماننا هذا، نسأل الله العفو والعافية.

قوله: (فيستبيح بيضتهم) قال الجوهري: بيضة كل شيء حوزته. وبيضة القوم ساحتهم؛ وعلى هذا فيكون معنى الحديث: أن الله تعالى لا يسلط العدو على المسلمين كافة حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض، وهيك جوانبها. وقيل: بيضتهم: معظمهم وجماعتهم، وإن قلوا.

قوله: (حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا) والظاهر أن «حتى» عاطفة أو تكون لانتهاء الغاية، أي: إن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضًا. وقد سَلَّطَ بعضهم على بعض كما هو الواقع، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

قوله: (وإن ربي قال: يامحمد، إذا قضيت قضاء لا يُردّ) قال بعضهم: أي إذا حكمتُ حُكمًا مبرمًا نافذًا فإنه لا يُرَدُّ بشيء، ولا يقدر أحد على ردِّه، كما قال النبي ﷺ: «ولا رادّ لما قضيت».

قوله: (ورواه البرقاني في صحيحه) هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد ابن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة. قال الخطيب: كان ثبتًا ورعًا، لم نر في شيوخنا أثبت منه؛ عارفًا بالفقه كثير التصانيف. صنَّف مسندًا ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان. وجمع حديث الثوري وحديث

أَخافُ عَلى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفَع إلى يوم القيامة.

شعبة وطائفة.

وهذا الحديث رواه أبو داود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله - أو قال: إن ربي - زوى لي الأرض فأُريتُ مشارق الأرض ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها. وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سألت لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة[1] ولا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال لي: يامحمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها - أو قال: بأقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، وحتى يكون بعضهم يسبي بعضًا. وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبيّ بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق - قال ابن عيسى: ظاهرين ثم اتفقا - لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى»[2].

وروى أبو داود أيضًا عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تدور رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين؛ أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يَقُمْ لهم دينهم يقم سبعين عامًا قلت: أمِمَّا بقي أو مما مضى؟ قال: مما مضى»[3].

وروى في سننه أيضًا عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يتقارب الزمان وينقص العلم؛ وتظهر الفتن، ويلقى الشُّحُّ؛ ويكثر الهرْجُ، قيل: يارسول الله أيّهْ هو؟ قال: القتل القتل».

قوله: (وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين) أي الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون

---

(١) الذي في سنن أبي داود: ج٤ ص١٥، مع شرح عون المعبود - وهي طبعة هندية مصححة بدقة: «بسنة بعامة» وقال في عون المعبود وفي رواية مسلم: «بسنة بعامة» في باب الفتن.

(٢) قال في عون المعبود: إسناده صحيح.

(٣) قال الحافظ أبو الحجاج يوسف المزي في كتاب الأطراف: وأخرجه البخاري في الصحيح في الأدب وفي الفتن؛ ومسلم في القدر، وأبو داود في الفتن.

(٤) في قرة العيون: كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩] وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: ٧١] وأمثال هذه الآيات كثير، وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب؛ وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمي.

. . . .

فيهم بغير علم فيضلونهم[1]، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧] وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فيأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من تراب، ونحو هذا. وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ۝ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٢، ١٣] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣] وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: مَنْ يدّعى أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف؛ ويدّعي أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، يعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم؛ ويُجوّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين وإيقادها بالسرج ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» أتى بإنَّما، التي قد تأتي للحصر بيانًا لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال؛ وما وقع في خَلَد النبي ﷺ من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» الحديث.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون» رواه أبو داود الطيالسي. وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» رواه الدارمي.

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطَه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين. فكل من أحدث حدثًا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: «من أحدَث حدثًا أو آوى مُحْدِثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفًا ولا عَدْلًا» وقال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد» وقال: «كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وهذه أحاديث صحيحة. ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها. وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال

. . . .

تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية:١٨] ونظائرها في القرآن كثير.

وعن زياد بن حُدَير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زَلّة العالم، وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلِّين» رواه الدارمي.

وقال يزيد بن عمير: «كان معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلسًا للذكر إلا ويقول: الله حكم قِسط: هلك المرتابون - وفيه: فاحذروا زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة حق. قلت لمعاذ: وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ فقال: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال: ماهذه؟ ولا يَثْنِيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع الحق؛ وتَلَقّ الحق إذا سمعته، فإن على الحق نورًا» رواه أبو داود وغيره.

قوله: (وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة) وكذلك وقع، فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع؛ وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى(١).

وقوله: (ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين) «الحي» واحد الأحياء وهي: القبائل، وفي رواية أبي داود «حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين» والمعنى: أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام ويلحقون بأهل الشرك.

وقوله: (حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان) «الفئام» بكسر الفاء مهموز: الجماعات الكبيرة: قاله أبو السعادات.

وفي رواية أبي داود: «وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان».

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عُبَّاد القبور الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان، وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد(٢)؛ فالتوحيد هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب.

(١) قال في قرة العيون: وفيه ما هو حق، كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله، وجهادهم على تركهم الشرك، وقد منّ الله بذلك على من أقامهم في آخر هذا الزمان بالدعوة إلى توحيده، لكن أهل الشرك بدؤوهم بالقتال، وأظهرهم الله عليهم كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين في هذه الأزمنة. اهـ.

(٢) في قرة العيون: وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان حتى إنه لا يعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك حتى أقام الله شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى الذي أنكره ونهى عنه. ودعا الناس إلى تركه وإلى أن يعبدوا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وأسمائه وصفاته، فرماه الملوك وأتباعهم عن قوس العداوة، فأظهره الله بالحجة، وأعز أنصاره على من ناوأهم. وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها؛ ولكن من الناس منهم من عرف ومنهم من أنكر. وانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها. فلله الحمد على هذه النعمة العظيمة جعلنا الله لها شاكرين.

. . . .

وفي معنى هذا الحديث: ما في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أَلَيَات نساء دَوْس على ذي الخَلَصة قال: وذو الخلصة: طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية» وروى ابن حبان عن معمر قال: «إن عليه الآن بيتًا مبنيًّا مغلقًا».

قال العلامة ابن القيم رحمه الله - في قصة هدم اللَّات، لما أسلمت ثقيف -: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، والتي اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله؛ والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم شركًا عندها وبها. فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم؛ وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلّ العلماء؛ وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس؛ وظهر الفساد، في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس. ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين؛ ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. اهـ ملخصًا.

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعده أعظم فسادًا كما هو الواقع.

قوله: (وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي) قال القرطبي: وقد جاء عددهم معينًا في حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون؛ منهم أربع نسوة».

أخرجه أبو نعيم. وقال: هذا حديث غريب. انتهى.

وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عدّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة. فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا[1].

قال أبو طاهر - غفر الله لهما -: وإنما أظهره الله بتوفيق آل سعود للانضواء تحت راية التوحيد الذي دعا إليه الشيخ ابن عبدالوهاب. فكان لحديدهم مع بينات الشيخ هذا الأثر في ظهور كلمة التوحيد وقيام دولة مرهوبة الجانب لأهل التوحيد تصديقًا لقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥] والله نسأل أن يديم توفيقهم ويوفق ملوك المسلمين لمثل ما وفقهم له.

(١) للسيد صديق حسن خان كتاب «الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة». عد فيه أولئك الدجالين إلى زمنه؛ وعد منهم

ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَق حَيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئامٌ من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا

وقال الحافظ: وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر: طُليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسَجاح في بني تميم، وقُتِل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقُتِلَ مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، قتله وحْشي قاتل حمزة يوم أُحد، وشاركه في قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه. ونقل أن سجاح تابت أيضًا، ثم خرج المختار بن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير، وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم فقتل كثيرًا ممن باشر ذلك؛ وأعان عليه، فأحبه الناس، ثم ادَّعَى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه، ومنهم الحارث الكذاب؛ خرج في خلافة عبد الملك بن مروان فَقُتِلَ وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقًا، فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء، وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله: (وأنا خاتم النبيين) قال الحسن: الخاتم: الذي ختم به يعني أنه آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وإنما ينزل عيسى ابن مريم في آخر الزمان حاكمًا بشريعة محمد ﷺ مصليًّا إلى قبلته. فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة، قال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكَمًا مُقْسِطًا، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليَضَعنَّ الجزية».

قوله: (ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم) ولا من خالفهم قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟».

قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث» وعن ابن المديني رواية: «هم العرب» واستدل برواية من روى: «هم أهل الغرب». وفسر الغَرْب بالدلو العظيمة، لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع

الدجال الإفرنجي الخبيث غلام أحمد القادياني الهندي قبحه الله وأخزاه، ومن اتبعه على كفره، فإنه ما قام بفتنته وادعى المهدوية ثم النبوة إلا بإيعاز ومساعدة دولة نصرانية، سياستها التفريق لجماعات المسلمين.

نبيَّ بَعْدي، ولَا تَزالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلى الحَقِّ مَنْصورَةً لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتّى يَأْتِي أَمْرُ اللهِ، تَبارَكَ وتَعالى».

وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر؛ وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد؛ بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولًا بأول إلى ألَّا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. اهـ ملخصًا مع زيادة فيه. قاله الحافظ.

قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة[١].

قال المصنف رحمه الله: (وفيه الآية العظيمة: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم. وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية).

قلت: واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: (حتى يأتي أمر الله) الظاهر أن المراد به ما رُوِيَ من قبض مَنْ بقي من المؤمنين بالريح الطيبة؛ ووقوع الآيات العظام؛ ثم لا يبقى إلا شرار الناس، كما روى الحاكم أن عبدالله بن عمر قال: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية فقال عُقبة ابن عامر لعبدالله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك» قال عبدالله: ويبعث الله ريحًا ريحها المسك، ومسها مس الحرير فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته؛ ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة.

وفي صحيح مسلم: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله».

وعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه «حتى تأتيهم الساعة» ساعتهم. وهي وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ.

وقد اختلف في محل هذه الطائفة؛ فقال ابن بطال: إنها تكون في بيت المقدس، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة «قيل: يارسول الله، أين هم؟ قال: ببيت المقدس» وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «هم بالشام» وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن

---

(١) المراد من الإجماع: إجماع كل من يعتد به من هذه الأمة في جميع أقطار الأرض ومعرفة ذلك غير متيسرة إلا فيما هو معلوم بالضرورة كالصلوات والصيام ونحوه، ولذلك يروى عن الشافعي وأحمد: أن من ادَّعى الإجماع بعد الصحابة فقد أخطأ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: - وهي أهمها - ما معنى الإيمان بالجِبْتِ والطاغوت، هل هو اعتقادُ قلب، أو موافقةُ أصحابها مع بُغْضها ومعرفة بطلانها؟.

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كُفْرَهم أهدى سَبيلًا من المؤمنين.

السادسة: - وهي المقصود بالترجمة - أَنَّ هذا لا بدَّ أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادَة الأوثانِ في هذه الأمة في جموع كثيرة.

تكون في الشام أو في بيت المقدس دائمًا، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة.

قلت: ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن، فإنهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه، وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة، والله على كل شيء قدير.

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة - وتوافر العلماء في ذلك الزمان - وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد، بل هم في غالب الأمصار: في الشام منهم الأئمة، وفي الحجاز وفي مصر، وفي العراق واليمن، وكلهم على الحق يناضلون، ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلامًا لأهل السنة، وحجة على كل مبتدع.

فعلى هذا، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق، وقد تكون في الشام، وقد تكون في غيره. فإن حديث أبي أمامة وقول معاذ؛ لا يفيد حصرها بالشام وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها.

وكل جملة من هذا الحديث عَلم من أعلام النبوة، فإن كل ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ.

وقوله: (تبارك وتعالى) قال ابن القيم رحمه الله: البركة نوعان: أحدهما: بركة هي فَعَلة والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها

الثامنة: العجبُ العجاب: خروج مَنْ يَدّعي النبوة، مثل المختار مع تكلُّمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة. وأنَّ الرسول ﷺ حقّ وأن القرآن حق. وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يُصَدَّق في هذا كله مع التضادِّ الواضح، وقد خرج المختارُ في آخر عصر الصحابة وتبعه فِئامٌ كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية، كما زال فيما مضى، بل لا تزالُ عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى أنهم مع قلّتهم لا يضرُّهم مَنْ خذَلَهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أنَّ ذلك الشرطَ إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة.

منها: إخبارُه بأن الله زَوَى له المشارقَ والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال.

وإخباره بأنه أُعطي الكنزين.

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين.

وإخباره بأنه مُنِعَ الثالثة.

وإخباره بوقوع السيف وأنه لا يُرفع إذا وقع.

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة.

مبارك، وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة؛ والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل؛ فهو سبحانه المتبارك؛ وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفة تبارك فمختصة به، كما أطلقه على نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة، كتعالى وتعاظم ونحوه، فجاء بناء (تبارك) على بناء (تعالى) الذي هو دال على كمال العلو ونهايته؛ فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمته وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف (تبارك): تعاظم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «جاء بكل بركة».

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة.

وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

* * *

٢٣ - باب
ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قوله: (باب ما جاء في السحر) أي: والكهانة.

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطُف سببه، ولهذا جاء الحديث: «إن من البيان لسحرًا»[١] وسُمِّيَ السحر سِحْرًا لأنه يقع خفيًّا آخر الليل.

قال أبو محمد المقدسي في الكافي: السحر عزائم، ورُقًى، وعقد يؤثر في القلوب والأبدان؛ فيمرض ويقتل؛ ويفرق بين المرء وزوجه، قال الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن، ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وأنه قال لها ذات يوم: «أتاني ملكان؛ فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طَبه؟ قال: لبيد بن الأعصم في مشط ومِشاطة وفي جُف طلعة ذَكر في بئر ذَرْوان» رواه البخاري.

قال: (وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾) [البقرة:١٠٢] قال ابن عباس: من نصيب، قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عُهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له في الآخرة، وقال الحسن: ليس له دين.

فدلت الآية على تحريم السحر، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩] وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه، وروى عبدالرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم شيئًا من السحر قليلًا كان أو كثيرًا كان آخر عهده من الله». وهذا مرسل.

واختلفوا: هل يكفر الساحر أم لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال ملك وأبو حنيفة وأحمد رحمهم الله، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء لا يضرُّ فلا يَكْفُر.

---

(١) رواه مالك، وأحمد، والبخاري، وأبو داود، والترمذي، عن ابن عمر.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال عمر: «الجِبْتُ: السِّحرُ، والطَّاغوتُ: الشَّيْطان».

وقال جابر: «الطَّواغيتُ: كُهَّانٌ، كانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِم الشَّيْطانُ فِي كُلِّ حَيٍّ واحِد» وعن

وقال الشافعي: إذا تعلم السحر، قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر؛ مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر. اهـ

وقد سمَّاه الله كُفْرًا بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ١٠٢] قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان؛ فعرفا أن السحر من الكفر.

قال: (وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] تقدم الكلام عليهما في الباب قبله. وفيه: أن السحر من الجبت. قاله المصنف رحمه الله.

قوله: (قال عمر رضي الله عنه: الجبت: السحر. والطاغوت: الشيطان) هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره.

قوله: (وقال جابر: الطواغيت: كُهَّان، كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد) هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولًا عن وهب بن منبه قال: «سألت جابر بن عبدالله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها؛ فقال: إن في جهينة واحدًا؛ وفي أسلم واحدًا، وفي هلال واحدًا؛ وفي كل حي واحدًا، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين»(١).

قوله: (قال جابر) هو ابن عبدالله بن حرام الأنصاري(٢).

قوله: (الطواغيت: كهان) أراد أن الكهان من الطواغيت: فهو من أفراد المعنى.

قوله: (كان ينزل عليهم الشيطان) أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع، فيصدقون مرة ويكذبون مائة.

---

(١) الذي يستخلص من كم السلف رضي الله عنهم: أن الطاغوت كل ما صَرَف العبد وصدَّه عن عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله. سواء في ذلك الشيطان من الجن والشيطان من الإنس، والأشجار والأحجار وغيرها. ويدخل في ذلك بلا شك: الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله: من إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها. والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومروجوها طواغيت. وأمثالها من كل كتاب وضعه العقل البشري ليصرف عن الحق الذي جاء به رسول الله ﷺ إما قصدًا أو عن غير قصد من واضعه، فهو طاغوت.

(٢) توفي جابر سنة ٧٤هـ وقيل: سنة ٧٧هـ، وكان عمره أربعًا وتسعين سنة.

أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ قالوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا

قوله: (في كل حي واحد) الحي واحد الأحياء، وهم القبائل؛ أي: في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ، فأبطل الله ذلك بالإسلام وحرست السماء بكثرة الشهب.

قوله: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يارسول الله وما هنّ؟ قال الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»).

كذا أورده المصنف غير معزو. وقد رواه البخاري ومسلم.

قوله: (اجتنبوا) أي: ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا واتركوا، لأن النهي عن القربان أبلغ، كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قوله: (الموبقات) بموحدة وقاف. أي المهلكات، وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات. وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر - عند البخاري في الأدب المفرد والطبري في التفسير، وعبدالرزاق مرفوعًا وموقوفًا - قال: «الكبائر تسع - وذكر السبعة المذكورة - وزاد: والإلحاد في الحرم، وعقوق الوالدين» ولابن أبي حاتم عن علي قال: «الكبائر - فذكر السبع إلَّا مال اليتيم - وزاد: العقوق، والتعرب بعد الهجرة؛ وفراق الجماعة، ونَكْث الصفقة».

قال الحافظ: ويحتاج عندي هذا، إلى الجواب عن الحكمة في الاقتصار على سبع.

ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أولًا بالمذكورات، ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد. أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل.

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له: الكبائر سبع قال: «هن أكثر من سبع وسبع» وفي رواية: «هي إلى سبعين أقرب» وفي رواية: «إلى السبعمائة»[١].

قوله: (قال الشرك بالله) هو أن يجعل لله ندًّا يدعوه ويرجوه، ويخافه كما يخاف الله، بدأ به لأنه أعظم ذنب عُصي الله به، كما في الصحيحين عن ابن مسعود: سألت النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» الحديث، وأخرج الترمذي بسنده عن صفوان بن عَسّال قال: «قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال له صاحبه:

---

(١) قد ألف الحافظ عبدالرحمن بن رجب رحمه الله كتابًا في عد الكبائر. طبع. ولشيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله: كتاب مسائل الجاهلية. هو كذلك في عد الكبائر.

بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبا، وَأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحَصَّناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ».

لا تقل نبي، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال النبي ﷺ: «لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولّوا للفرار يوم الزحف؛ وعليكم خاصة اليهود أن لا تَعْدُوَا في السبت، فقبّلا يديه ورجليه. وقالا: نشهد أنك نبي» الحديث، وقال: حسن صحيح.

قوله: (السحر) تقدم معناه. وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة.

وقوله: (وقتل النفس التي حرم الله) أي: حرم قتلها، وهي: نفس المسلم المعصوم.

قوله: (إلا بالحق) أي: بأن تفعل ما يوجب قتلها، كالشرك، والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان، وكذا قتل المعاهد، كما في الحديث: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة».

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمنًا متعمدًا، هل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس وأبو هريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له، استدلالًا بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣] وقال ابن عباس: «نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل، وما نسخها شيء» وفي رواية: «لقد نزلت في آخر ما نزل، وما نسخها شيء حتى قُبِضَ رسول الله ﷺ وما نزل الوحي» ورُوِيَ في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء، كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرًا أو الرجل يقتل مؤمنًا متعمدًا».

وذهب جمهور الأمة سلفًا وخلفًا إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدل الله سيئاته حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ○ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ○ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآيات [الفرقان: ٦٨-٧١].

قوله: (ومن يقتل مؤمنًا متعمدًا) قال أبو هريرة وغيره: «هذا جزاؤه إن جازاه».

وقد رُوِيَ عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور، فروى عبد بن حميد والنحاس عن سعيد بن عبادة أن ابن عباس رضي الله عنه كان يقول: «لمن قتل مؤمنًا: توبة» وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما. وروي مرفوعًا: «أن جزاءه جهنم إن جازاه».

قوله: (وأكل الربا) أي: تناوله بأي وجه كان؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ﴾ الآيات [البقرة: ٢٧٥-٢٨٠] قال ابن دقيق العيد: وهو مجرب لسوء الخاتمة. نعوذ بالله من ذلك.

وعن جُنْدَب مرفوعًا «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبُهُ بِالسَّيْفِ» رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

قوله: (وأكل مال اليتيم) يعني التعدي فيه. وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

قوله: (والتولي يوم الزحف) أي الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فرّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال. كما قُيّد به في الآية[١]

قوله: (وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا؛ وبكسرها: الحافظات فروجهن منه، والمراد بالحرائر: العفيفات، والمراد: رميهن بزنا أو لواط. والغافلات، أي عن الفواحش وما رمين به، فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريء عما بُهت به، والمؤمنات، أي: بالله تعالى احترازًا من قذف الكافرات.

قوله: (وعن جندب مرفوعًا: «حدُّ الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف).

قوله: (عن جندب) ظاهر صنيع الطبراني في الكبير أنه جندب بن عبدالله البجلي، لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن عن جندب عن النبي ﷺ. وخالد العبد ضعيف. قال الحافظ: والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جُندب الخير: «أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات؛ وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول» فذكره. وجندب الخير هو جندب ابن كعب - وقيل: جندب بن زهير، وقيل: هما واحد، كما قال ابن حبان - أبو عبدالله الأزدي الغامدي صحابي، روى ابن السكن من حديث بريدة: أن النبي ﷺ قال: «يَضْرب ضربةً واحدة فيكون أُمّة وحده».

قوله: (حد الساحر ضربه بالسيف) وروي بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبو حنيفة فقالوا: يُقْتَلُ الساحر، وروي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبدالله وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبدالعزيز؛ ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر، وبه قال ابن المنذر وهو رواية عن أحمد. والأول أولى للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

---

(١) في سورة الأنفال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۝ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وفي صحيح البخاري عن بَجالة بنِ عَبَدة قال: «كَتَبَ عُمَرُ بْنِ الخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ ساحِرٍ وساحِرَة» قال: فقتلنا ثلاث سواحر.

وصح عن حفصة رضي الله عنها: «أَنَّها أَمَرَتْ بِقَتْلِ جارِيَةٍ سَحَرَتْها، فَقُتِلَتْ» وكذلك صح عن جندب؛ قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

قال: (وفي صحيح البخاري عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب أن: اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث سواحر).

هذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف رحمه الله؛ لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: (عن بجالة) بفتح الموحدة بعدها جيم؛ ابن عبدة بفتحتين، التميمي العنبري بصري ثقة.

قوله: (كتب إلينا عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) وظاهره أنه يُقتَل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يستتاب؛ فإن تاب قُبلت توبته؛ وبه قال الشافعي لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

قوله: (وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت).

هذا الأثر رواه مالك في الموطأ.

وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: (وكذلك صح عن جندب) أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر كما رواه البخاري في تاريخه عن أبي عثمان النهدي قال: «كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنسانًا وأبان رأسه فعجبنا، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله» ورواه البيهقي في الدلائل مطولًا. وفيه: «فأمر به الوليد فسجن». فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة.

قوله: (قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ) أحمد هو الإمام ابن محمد بن حنبل[١].

قوله: (عن ثلاثة) أي صح قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعني عمر، وحفصة، وجندبًا. والله أعلم.

قوله: (باب بيان شيء من أنواع السحر).

---

(١) الإمام الجليل، ناصر السنة وقامع البدعة، الصابر المحتسب في الله ولله على ما لقي في نصر دين الله، العلم الحافظ الحجة. ولد سنة ١٦٤هـ ومات سنة ٢٤١هـ. قال الشافعي رحمه الله: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد من أحمد بن حنبل. رحمة الله عليه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانيـة: تفسير آية النساء.

الثالثـة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجنّ وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يُقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

* * *

٢٤ - باب
بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن حيان بن العلاء حدثنا قَطَن ابن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إِنَّ العِيافَةَ والطَّرْقَ والطِّيرَةَ من الجِبْتِ».

قلت: ذكر الشارح رحمه الله تعالى هاهنا شيئًا من الخوارق وكرامات الأولياء وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانيّة التي غرت كثيرًا من العوام والجهال، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فراجعه. انتهى.

قال رحمه الله تعالى: (قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر: حدثنا عوف عَن حيان بن العلاء: حدثنا قَطَن بن قبيصة عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة، والطّرْق؛ والطِّيرة من الجِبْت» قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض، والجبت: قال الحسن: «رنة الشيطان» إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه).

قوله: (قال أحمد) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر هو المشهور بغُنْدَر الهُذَلي البصري، ثقة مشهور. مات سنة ست ومائتين.

وعوف هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري، المعروف بعوف الأعرابي، ثقة، مات سنة ست أو سبع وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء هو بالتحتية، ويقال: حيان بن مخارق، أبو العلاء البصري، مقبول.

وقَطَن، بفتحتين أبو سهل البصري صدوق.

قوله: (عن أبيه) هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مُخارق - بضم الميم - أبو عبدالله الهلالي. صحابي، نزل البصرة.

قوله: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت) قال عوف: العيافة: زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها؛ وهو من عادات العرب، وكثير في أشعارهم؛ يقال: عاف يعيف عيفًا، إذا زجر وحدس وظن.

قوله: (والطرق: الخط يخط بالأرض) كذا فسره عوف، وهو كذلك.

وقال أبو السعادات: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء، وأما الطيرة فيأتي الكلام

قال عوف: العيافة: زَجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض.[1]

والجبت: قال الحسن: «رَنَّة الشَّيْطانِ» إسناده جيد.

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ

عليها في بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: (من الجبت) أي: السحر. قال القاضي: والجبت: في الأصل: الفشل، الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر.

قوله: (قال الحسن: رنة الشيطان) قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح أن في تفسير بَقِيِّ بن مَخْلَد: «أن إبليس رنّ أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنة حين أُهبط؛ ورنة حين وُلِدَ رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب». قال سعيد بن جبير: «لما لعن الله تعالى إبليس تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورنّ رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة». رواه ابن أبي حاتم، وعن سعيد بن جبير عن أبي عباس قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة رنّ إبليس رَنّة اجتمعت إليه جنوده». رواه الحافظ الضياء في المختارة. الرنين: الصوت. وقد رن يرن رنينًا، وبهذا يظهر معنى قول الحسن رحمه الله تعالى.

قوله: (ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه) ولم يذكر التفسير الذي فسره به عوف. وقد رواه أبو داود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شُعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبو داود بإسناد صحيح) وكذا صححه النووي والذهبي ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: (من اقتبس) قال أبو السعادات: قبست العلم واقتبسته إذا علمته اهـ .

قوله: (شعبة) أي طائفةَ من علم النجوم. والشعبة: الطائفة. ومنه الحديث «الحياء شعبة من الإيمان» أي جزء منه.

---

(١) هو ما يسمونه خط الرمل وعلمه، وهو ذائع بين أهل العصر، ولبعضهم فيه تأليف وقد يتعيش به كثير من المتكهّنين يغرون به البله والجهلة؛ زاعمين أنهم يطلعون على المغيبات وهم كاذبون؛ فإن هذا العلم بل الجهل لا يقصد به إلا خداع الناس وأكل أموالهم بالباطل، وقد بحثت في قواعده فوجدته - كما ذكرت لك - رجمًا بالغيب وهو من الجبت كما في الحديث؛ فيجب على المؤمنين بالله الكفر به. ومثله ما يسمونه علم قراءة الكف؛ وقراءة الفنجان، ومناجاة حب البن ونحوه، كل ذلك دجل وسحر واستمتاع كل من شياطين الجن والإنس ببعضهم. نسأل الله العافية للمسلمين من هذه الأمراض الفتاكة.

(٢) أصله مأخوذ من القبس، وهو القليل من النار ليستدفئ به. قال موسى لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠].

النُّجومِ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زادَ ما زادَ» رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فيها فَقَدْ سَحَرَ، ومَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ. ومَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ».

قوله: (فقد اقتبس شعبة من السحر) المحرم تعلمه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ﴿ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾ [طه: ٦٩].

قوله: (زاد ما زاد) أي كلما زاد من تعلم علم النجوم زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس[١] من شُعَبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل[٢].

قوله: (وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عَقَد عقدة ثم نفَث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئًا وكل إليه») هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي. وقد رواه النسائي مرفوعًا وحسنه ابن مفلح.

قوله: (وللنسائي) هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار أبو عبدالرحمن صاحب السنن وغيرها، روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلقٍ، وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث؛ مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة رحمه الله تعالى.

قوله: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر) اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث، هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل. والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر - الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة - نفخ في تلك العقدة نفخًا معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نَفَس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو

---

(١) الوعيد لمن يتعلم منه ما يؤدي إلى الكفر كادعاء علم الغيب كما في كتيب ينسب إلى أبي معشر وهو شائع بين السحرة الذين يتسمون بأسماء إسلامية يغرون به النساء وضعفة العقول. وقد تمدن الشياطين وإخوانهم من سحرة هذا الزمان في البلاد المتمدنة؛ فاخترعوا أسماء للسحر جديدة وصورًا كذلك، مثل: اسم التنويم المغناطيسي، ومناجاة الأرواح واستحضارها، بأنواع من الحيل والتعازيم المتمدنة أيضًا.

(٢) علم النجوم علمان: علم يعرف به سيرها ومدارها ومنازلها وأبعادها وأحجامها. وهذا علم الفلك لا بأس بتعلمه والعمل به. وعلم يعرف بالعلم الروحاني، ويزعمون أنه معرفة روحانية النجوم والكواكب وتأثيرها في الأرض ومن عليها بالأمراض والحروب والضيق والسعة والموت والحياة؛ والسعادة والشقاوة بين الزوجين، إذا عقد قرانهما عند اقتران كذا من النجوم والكواكب بكذا. ولهم في ذلك ما يسمونه بالطالع، ويعملون جدولًا بالحوادث التي ستحدث في العام كله من حوادث عامة وخاصة. وهذا هو الدجل والكذب. وهو نوع من السحر واستخدام الشياطين والقول على الله بلا علم.

وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا هَلْ أُنبئُكُمْ ما العَضْه؟ هِيَ النَّمِيمَةُ: القالَةَ بَيْنَ النَّاسِ» رواه مسلم.

والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكوني القدري لا الشرعي. قاله ابن القيم رحمه الله تعالى.

قوله: (ومن سحر فقد أشرك) نصٌّ في أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: (ومن تعلّق شيئًا وُكِلَ إليه) أي: من تعلّق قلبه شيئًا - بحيث يعتمد عليه ويرجوه - وكله الله إلى ذلك الشيء[1]. فمن تعلق على ربه وإلهه وسيده ومولاه ربِّ كل شيء ومليكِه، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه، فنعم المولى ونعم النصير؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ [الزمر: ٣٦]؛ ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك. ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عيانًا؛ وهذا من جوامع الكلم. والله أعلم.

قال: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هي النميمة، القالَة بين الناس» رواه مسلم).

قوله: (ألا هل أنبئكم) أخبركم و«العضه» بفتح المهملة وسكون المعجمة؛ قال أبو السعادات هكذا يروى في كتب الحديث، والذي في كتب الغريب: «ألا أنبئكم ما العِضَه» بكسر العين وفتح الضاد. قال الزمخشري: أصلها «العِضْهَة» فعلة من العَضْه وهو: البَهت. فحذفت لامه، كما حذفت من السَّنَة والشَّفَة؛ وتجمع على «عضين». ثم فسره بقوله: «هي النميمة: القالة بين الناس» فأطلق عليها «العضه» لأنها لا تنفك من الكذب والبهتان غالبًا. ذكره القرطبي.

وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: «يُفسد النَّمَّامُ والكذّاب في ساعة ما لا يُفسد الساحرُ في سنة». وقال أبو الخطاب في عيون المسائل: «ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس». قال في الفروع: ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر وينتج ما يعمله السحر أو أكثر، فيعطي حكمَه؛ تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين، لكن يقال: الساحر، إنما يكفر لوصف السحر وهو أمر خاص ودليله خاص، وهذا ليس بساحر، وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطي حكمه إلا فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة. انتهى ملخصًا.

---

(١) ومن قصر تعلُّقَ قلبه على الله وحده كفاه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] وهذا المتعلق هو روح الإيمان وخلاصة التوحيد، فمن تعلق قلبه بغير الله يرجوه في دفع ضر أو جلب نفع فقد أشرك بالله أعظم الشرك.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا».

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك.

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. وهو يدل على تحريم النميمة؛ وهو مجمع عليه قال ابن حزم رحمه الله: اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة.

وفيه دليل على أنها من الكبائر.

قوله: (القالة بين الناس) قال أبو السعادات: أي: كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس، ومنه الحديث: «فشت القالة بين الناس».

قال: (ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحرًا») البيان: البلاغة والفصاحة. قال صَعْصعة بن صُوحان: «صدق نبي الله، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق». وقال ابن عبدالبر: تأولته طائفة على الذمِّ؛ لأن السحر مذموم. وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله، قال: «هذا والله السحر الحلال» انتهى. والأول أصح والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس، كما قال بعضهم:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر:

تقول: هذا مُجاج النحل، تمدحه ... وإن تشأ قلت: ذا قيء الزنابير

مدحًا وذمًّا، وما جاوزتَ وصفَهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله: (إن من البيان لسحرًا) هذا من التشبيه البليغ، لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق. فيستميل به قلوب الجُهَّال، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى.

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه. فهذا هو الممدوح. وهكذا حال الرسل وأتباعهم، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل وعظمت حسناتهم.

وبالجملة فالبيان لا يحمد إلا إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتغطية الحق، وتحسين الباطل؛ فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم، وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

وحديث: «إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها» رواه أحمد وأبو داود.

❊ ❊ ❊

٢٥ - باب
ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاة أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

قوله: (باب ما جاء في الكهان ونحوهم).

«الكاهن»: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع؛ وكانوا قبل المبعث كثيرًا. وأما بعد المبعث فإنهم قليل، لأنّ الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب، وأكثر ما يقع في هذه الأمة: ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفًا وكرامة[1]، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن وليًّا لله، وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

قوله: (روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عَرّافًا فسأله عن شيء، فصدقه بما يقول؛ لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»).

قوله: (عن بعض أزواج النبي ﷺ) هي: حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي، لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها.

هكذا بيّض المصنف لاسم الراوي، وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعًا.

قوله: (من أتى كاهنًا) قال بعضهم: لا تعارض بين هذا وبين حديث: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين. وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان، وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

---

(١) والواقع أن ذلك من تآليف روح الشيطان القرين مع روح قرينه الإنسان الخبيث فيتناجيان ويتكلم الشيطان مع قرينه بما يحبّ من الأخبار التي يتلقاها الشيطان عن الشيطان الآخر قرين الإنسان الآخر، وهكذا فإن لكل إنسان قرينًا من الشيطان كما جاء ذلك في القرآن والسنة، فيخبر شيطان الإنس بما أوحى إليه شيطان الجن من أخبار السائل وأحواله في منزله وخصوصية نفسه مما ألقاه إليه الشيطان القرين، فيظن الجهلة والمغفلون أن ذلك عن صلاح وتقوى وكرامات؛ وأنه بصلاحه قد كشف الحجاب عنه، وهذا من أضل الضلال ومن أعظم الخذلان وإن اعتقده وخدع به كثير ممن ينتسب إلى ظاهر العلم والصلاح.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتى كاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِما يَقولُ فَقَدْ كَفَرَ بِما أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ» رواه أبو داود.

وللأربعة والحاكم وقال: صحيح على شرطهما عن [النبي ﷺ[1]]: «مَنْ أَتى عَرَّافًا أو كاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِما يَقولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِما أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ».

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا.

وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أو تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ

قوله: (فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ) قال القرطبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة. اهـ. وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يتوقف فيه، فلا يقال: يخرج عن الملة ولا يخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى.

قال: (ولأبي يعلي بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا).

أبو يعلى اسمه: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره، روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ؛ مات سنة سبع وثلاثمائة؛ وهذا الأثر رواه البزار أيضًا ولفظه: «من أتى كاهنًا أو ساحرًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر، لأنهما يدعيان علم الغيب وذلك كفر؛ والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضىٰ به وذلك كفر أيضًا .

قال: (وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا: «ليس منا من تطيّر أو تُطُيِّر له، أو تَكَهن أو تُكُهِّنَ له، أو سَحر أو سُحر له. ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد؛ ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى كاهنًا» إلى آخره).

قوله: (ليس منا) فيه وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر وتقدم أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: (من تطير) أي فعل الطيرة (أو تطير له) أي قَبِل قول المتطير له وتابعه. وكذا معنى

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) وذلك لأن في الكتاب المنزل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤] وقال في سورة الأنعام: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ وقال في سورة الجن: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ فن صدق العراف والكاهن فقد كذب بهذه الآيات، ومن كذبها كفر.

(٣) فيه دليل على نفي الإيمان الواجب، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك؛ وأن الكهانة كفر.

لَهُ، أو سَحَرَ أو سُحِرَ لَهُ. ومَنْ أَتى كاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِما يَقولُ فَقَدْ كَفَر بِما أُنْزِلَ عَلى مُحَمَّدٍ ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد.

ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «وَمَنْ أَتى» إلى آخره.

«أو تَكَهَّن أو تُكُهِنَ له»: كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحرُ له السحرَ.

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برئ منه رسول الله ﷺ بكونها إما شركًا، كالطيرة. أو كفرًا كالكهانة والسحر، فمن رضي بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: (رواه البزار) هو أحمد بن عمرو بن عبدالخالق؛ أبو بكر البزار البصري صاحب المسند الكبير. وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق؛ مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

قوله: (قال البغوي... إلى آخره) البَغَوي - بفتحتين - هو الحسين بن مسعود الفرّاء الشافعي؛ صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان، كان ثقة فقيهًا زاهدًا؛ مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة رحمه الله تعالى.

قوله: (العرّاف: الذي يدعي معرفة الأمور) ظاهره: أن العرّاف هو الذي يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها والضالة ومكانها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: إن العرَّاف اسم للكاهن والمنجِّم والرَّمَّال ونحوهم، كالحازر الذي يدعي علم الغيب أو يدعي الكشف.

وقال أيضًا: والمنجِّم يدخل في اسم العرَّاف، وعند بعضهم هو معناه.

وقال أيضًا: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكي ذلك عن العرب. وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوأ حالًا منه، فيُلْحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العرَّافة طَرَف من السحر، والساحر أخبث.

وقال أبو السعادات: العرّاف: المنجم، والحازر: الذي يدَّعي علم الغيب؛ وقد استأثر الله تعالى به.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفًا، وعرافًا.

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدعي معرفة علم الشيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين ويكون بالفأل والزجر

قال البغوي: العراف الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة. ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن، والكاهن: هو الذي يُخْبِرُ عن المغيَّبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: العراف: اسم للكاهن والمنجِّم والرَّمَّال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام: كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلى الله عليهم وسلم[1]، وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنًا أو عرّافًا أو في معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لَحِقه الوعيد، وقد وَرِثَ هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة.

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إن الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا يد له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات. فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب؛ وإن كانت أسبابًا محرمة كاذبة في الغالب. ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان: «فيكذبون معها مائة كذبة» فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولايةَ تزكيةَ النفس المنهيَّ عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]؛ وليس هذا من شأن الأولياء، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها؛ وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم الغيب؟! وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور. وحسبك بحال الصحابة والتابعين رضي الله

---

(١) ومعنى الجاهلية: الإعراض عن العلم المنزل من الله على رسله هدى ورحمة، والاعتماد على التقاليد والعادات والظنون والتخرصات، وما يوحي به الشياطين، ويحددها قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢] وقد عادت الجاهلية إلى الناس اليوم مثل الجاهلية الأولى وشرًّا منها، ولا يمنع وجود القرآن والحديث لأنهم اتخذوهما مهجورين، فوجودهما حجة عليهم فقط. ولا يغرنك منهم عمائم ولحى وصور فما وراءها إلا جاهلية وعقلية عامية قد تكون شرًّا من عقلية من يتبعون أذناب الإبل والبقر، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور.

وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم -: «ما أَرى مَنْ فَعَلَ ذٰلِكَ لَهُ، عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

عنهم، وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوي والشَّطحات شيء؟! لا، والله بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق رضي الله عنه. وكان عمر رضي الله عنه يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمرّ بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلا قليلًا خوفًا من النار ثم يقوم إلى صلاته، ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور(١) فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعةِ رب العالمين فيما اختص به: من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علمَ الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك وليًّا لله؟ ولقد عَظُم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

قوله: (وقال ابن عباس في قوم يكتبون أباجاد إلى آخره) هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعًا. وإسناده ضعيف. ولفظه «رُبّ مُعَلِّم حروفَ أبي جاد دارسٍ في النجوم، ليس له عند الله خلاق يوم القيامة» ورواه حميد بن زَنْجَويه عنه بلفظ: «رُب ناظرٍ في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق».

قوله: (ما أرى) يجوز فتح الهمزة بمعنى: لا أعلم. ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن.

وكتابة «أبي جاد» وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف(٢)، وهو الذي جاء فيه الوعيد، فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

---

(١) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ الآيات إلى ٢٤ [الرعد: ١٩-٢٤] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨، ٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ الآيات إلى ٦١ [المؤمنون: ٥٧-٦١] وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ الآيات إلى ٧٦ [الفرقان: ٦٣-٧٦] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الآيات إلى ١٩ [الذاريات: ١٥-١٩] وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ الآيات إلى ٢٨ [الطور: ١٧-٢٨].

هذا وفي القرآن الكريم صفات المؤمنين كثيرة جدًّا، بل أكثر آيات القرآن في وصف الإيمان وأهله؛ وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ومن أدل الدلائل على أن الجهل ضرب على القلوب نطاقًا كثيفًا أن يعتقد الناس هذه الدرجة الرفيعة لعباد الرحمن في قوم يبولون على ثيابهم وهم في غاية القذر والوسخ، ولا يركعون لله ركعة؛ وقد سُلِبوا كل نعمة إلّا الحيوانية؛ وربما تكلم الشيطان على ألسنتهم بالكلمة يَفْتِنُ بها أولئك الجاهلين، ولا قوة إلا بالله.

(٢) وينسبه الدجالون المشركون إلى جعفر الصادق؛ ولهم في ذلك كلام كثير في منتهى الكفر، والظاهر أنه من وضع الرافضة الذين استجابوا لسلفهم اليهود فأعملوا في هدم الإسلام كل مِعول.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكُهِّن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

قوله: (وينظرون في النجوم) أي: ويعتقدون أن لها تأثيرًا كما سيأتي في باب التنجيم. وفيه من الفوائد: عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

* * *

٢٦ - باب
ما جاءَ في النُّشْرة

عن جابر أن رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة؟ فقال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ» رواه أحمد بسند جيد. وأبو داود وقال: سُئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طِب أو يُؤَخَّذ عن امرأته، أيُحَلّ عنه أو يُنْشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. اهـ.

قوله: (باب ما جاء في النُّشْرة).

بضم النون؛ كما في القاموس. قال أبو السعادات: النشرة ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مسًّا من الجن، سُمِّيت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء؛ أي: يكشف ويزال.

قال الحسن: النُّشرة من السحر، وقد نُشِرَت عنه تنشيرًا، ومنه الحديث: «فلعل طِبًّا أصابه، ثم نشره بقل أعوذ برب الناس» أي: رقاه.

وقال ابن الجوزي: النشرة حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر.

قال: (عن جابر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ «سُئِلَ عن النشرة فقال: هي من الشيطان» رواه أحمد بسند جيد. وأبو داود، وقال: «سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله»).

هذا الحديث رواه أحمد ورواه عنه أبو داود في سننه. والفضل بن زياد في كتاب المسائل عن عبد الرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه [عن عمه وهب بن منبه] عن جابر. فذكره. قال ابن مفلح: إسناد جيد، وحسن الحافظ إسناده.

قوله: (سُئِلَ عن النشرة) والألف واللام في (النشرة) للعهد أي: النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، هي من عمل الشيطان.

قوله: (وقال: سُئِلَ أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله) أراد أحمد رحمه الله أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقًا.

قوله: (وللبخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: «رجل به طبٌّ أو يُؤَخَّذُ عن امرأته: أيُحَلُّ عنه، أو يُنَشّر؟ قال: لا بأس به: إنما يريدون به الإصلاح فأما ما ينفع فلم يُنه عنه».

قوله: (عن قتادة) هو ابن دِعامة - بكسر الدال - السدوسي ثقة فقيه من أحفظ التابعين. قالوا إنه ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومائة.

وروي عن الحسن أنه قال: لا يَحُلُّ السحر إلا ساحر.

قال ابن القيم: النُّشْرَة حَلُّ السحر عن المسحور، وهي نوعان أحدهما: حلٌّ بسحرٍ مثلِه، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر

قوله: (رجل به طب) بكسر الطاء. أي: سحر، يقال: طُبَّ الرجل - بالضم - إذا سُحِرَ. ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلًا. كما يقال للديغ: سليم.

وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء يقال له: طب.

قوله: (يؤخّذ) بفتح الواو مهموزة وتَشدِيد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمه. أي: يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها. والأُخذة - بضم الهمزة -: الكلام الذي يقوله الساحر.

قوله: (أيُحل) بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول.

قوله: (أو ينشر) بتشديد المعجمة.

قوله: (لا بأس به) يعني: أن النشرة لا بأس بها لأنهم يريدون بها الإصلاح، أي: إزالة السحر؛ ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

قوله: (ورُوي عن الحسن أنه قال: «لا يَحُل السحر إلا ساحر») هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في جامع المسانيد.

والحسن: هو ابن أبي الحسن واسمه: يسار - بالتحتية والمهملة - البصري الأنصاري: مولاهم. ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين، مات سنة عشر ومائة رحمه الله، وقد قارب التسعين.

قوله: (قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان... إلى آخره) ومما جاء في صفة النشرة الجائزة: ما رواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله؛ تُقرَأ في إناء فيه ماء، ثم يُصَبُّ على رأس المسحور[1]: الآية التي في سورة يونس

---

(١) مثل هذا لا يعمل فيه برأي ليث بن أبي سليم ولا برأي ابن القيم(*) ولا غيرهما؛ وإنما يعمل بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ ولم يجيء منه ﷺ شيء مما يقول ابن أبي سليم ولا ابن القيم. وما ينقل عن وهب بن منبه فعلى سنة الإسرائيليين لا على هدى خير المرسلين. ومن باب هذا التساهل دخلت البدع ثم الشرك الأكبر. وعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يعض بالنواجذ على هدي رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ويتجنب المحدثات وإن كانت عمن يكون فكل أحد يؤخذ من قوله ويرد عليه إلا رسول الله ﷺ.

(*) قوله (مثل هذا لا يعمل فيه برأي ليث بن أبي سليم ولا برأي ابن القيم) الخ. أقول اعتراض الشيخ حامد على ما ذكره الشارح عن ابن أبي سليم ووهب بن منبه وابن القيم ليس في محله، بل هو غلط من الشيخ حامد، لأن التداوي بالقرآن الكريم والسدر ونحوه من الأدوية المباحة ليس من باب البدع بل هو من باب التداوي، وقد قال النبي ﷺ: (عباد الله

إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور، والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨١، ٨٢] وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ إلى آخر الآيات الأربع [الأعراف: ١١٨-١٢٠]. وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر، فيدقه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

قلت: قول العلامة ابن القيم: «والثاني النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة فهذا جائز» يشير رحمه الله إلى مثل هذا، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل: أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة فجائز. والله أعلم.

* * *

تداووا ولا تتداووا بحرام) وثبت في سنن أبي داود في كتاب الطب أن النبي ﷺ قرأ في ماء في إناء وصبه على المريض، وبهذا يعلم أن التداوي بالسدر وبالقراءة في الماء وصبه على المرضى ليس به محذور من جهة الشرع، إذا كانت القراءة سليمة وكان الدواء مباحًا. والله ولي التوفيق.

٢٧ - باب
ما جاء في التطير

وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

قوله: (باب ما جاء في التطير).

أي من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تَطيّر يتطير، و«الطِّيرة» بكسر الطاء وفتح الياء؛ وقد تسكن، اسم مصدر من تطير طِيرة، كما يقال تخير خيرة، ولم يَجِئ في المصادر على هذه الزنة غيرهما، وأصله التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله؛ وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر.

قال المدائني: «سألت رُؤْبَة بن العجاج قلت: ما السانح؟ قال: ما ولَّاك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره. والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد».

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب؛ لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته(١) ذكرها المصنف رحمه الله في كتاب التوحيد تحذيرًا مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية) [الأعراف: ١٣١] ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ الآية. المعنى: أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة، أي الخصب والسعة والعافية - كما فسره مجاهد وغيره - قالوا: لنا هذه، أي: نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهله. وإن تصبهم سيئة. أي بلاء وقحط تطيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم فقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: «طائرهم: ما قضى عليهم وقدر لهم» وفي رواية: «شؤمهم عند الله ومن قِبَله» أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

قوله: (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي: أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

---

(١) وذلك بتعلق القلب بها خوفًا وطمعًا، ومنافاتها للتوكل على الله الذي لا ينفع ولا يضر غيره، واعتقاد النفع والضر في طائر ونحوه لا علم عنده ولا قصد، وإنما تذهب وتجيء في ضرورة معايشها وشؤونها. فاعتقاد أن لهذه الحركات ذات اليمين وذات الشمال أثرًا في جلب خير أو دفع ضر من سخف العقول وفساد الفطر، وتمكن الخرافات والجهل وعمي في القلوب، وهذا اعتقاد المنجمين في النجوم التي سخرها الله تعالى تجري في بروجها ومداراتها لمستقر لها، اعتقدوا لها تأثيرًا في الكون وهو اعتقاد الصابئة الذين أرسل الله إليهم إبراهيم عليه السلام.

وقوله: ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ» أخرجاه.

قوله: (وقوله تعالى ﴿قَالُوا۟ طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾) الآية [يس: ١٩] المعنى - والله أعلم - حظكم وما نابكم من شر معكم؛ بسبب أفعالكم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا. بل ببغيكم وعدوانكم. فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له. وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦] ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿طَـٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم، وهذا من باب القصاص في الكلام. ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم»[1] ذكره ابن القيم رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: من أجل أنَّا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادة: أإن ذكرناكم بالله، تطيرتم بنا؟!.

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين، وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم؛ وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك. كما سيأتي في أحاديث الباب.

قال: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدْوَى ولا طِيرَة ولا هامَة ولا صَفَر» أخرجاه. زاد مسلم «ولا نَوء ولا غُول»).

قال أبو السعادات «العدوى»: هو اسم من الإعداء. كالرعوى، يقال: أعداه الداء يعديه إعداءً: إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء.

وقال غيره: «لا عدوى» هو اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفي نفس سراية العلة، أو إضافتها إلى العلة. والأول هو الظاهر.

وفي رواية لمسلم أن أبا هريرة كان يحدِّث بحديث: «لا عدوى»؛ ويحدِّث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يُورد مُمرِض على مُصِحٍّ» ثم إن أبا هريرة اقتصر على حديث: «لا يورد ممرض على مصح» وأمسك عن حديث: «لا عدوى» فراجعوه وقالوا: سمعناك تحدث به، فأبى أن يعترف به. قال أبو مسلمة - الراوي عن أبي هريرة -: فلا أدري أنسي أبو هريرة أو نسخ أحد القولين الآخر؟.

وقد روى حديث: «لا عدوى» جماعة من الصحابة: أنس بن مالك، وجابر بن عبدالله؛

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أنس رضي الله عنه.

. . . .

والسائب بن يزيدن وابن عمر، وغيرهم؛ وفي بعض روايات هذا الحديث «وفِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد».

وقد اختلف العلماء في ذلك. وأحسن ما قيل فيه: قول البيهقي؛ وتبعه ابن الصلاح وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح وغيرهم: إن قوله: «لا عدوى» على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وإن هذه الأمور تعدي بطبعها. وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سببًا لحدوث ذلك، ولهذا قال: «فرّ من المجذوم كما تفر من الأسد» وقال: «لا يورد ممرض على مصح» وقال في الطاعون: «من سمع به في أرض فلا يقدم عليه» وكل ذلك بتقدير الله تعالى. ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعًا: «لا يعدي شيء، قالها ثلاثًا؛ فقال أعرابي يارسول الله إن النُّقْبَة[1] من الجَرَب تكون بِمِشْفَر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فَتجْرَب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها».

فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية. فكما أنه يؤمر ألَّا يلقي نفسه في الماء وفي النار - مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر - فكذلك اجتناب مقارَبةِ المريض: كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون. فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها، لا خالق غيره ولا مقدر غيره.

وأما إذا قوي التوكُّل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب اعتمادًا على الله، ورجاءً منه ألَّا يحصل به ضرر؛ ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لا سيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة، وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي: «أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: كل بسم الله ثقة بالله وتوكلًا عليه» وقد أخذ به الإمام أحمد، وروى ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم. ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم، ومنه مَشْي سعد بن أبي وقاص، وأبو مسلم الخولاني على متن البحر؛ قاله ابن رجب رحمه الله.

قوله: (ولا طيرة) قال ابن القيم رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون نفيًا أو نهيًا أي: لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث: «لا عدوى ولا صفر ولا هامة» يدلُّ على أن المراد النفي

---

(١) النقبة - بضم النون وسكون القاف والباء الموحدة - أول شيء يظهر من الجرب - وجمعها: نقب - لأنها تنقب الجلد أي: تخرقه.

. . . .

وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها. والنفي في هذا أبلغ من النهي، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره؛ والنهي إنما يدل على المنع منه.

وفي صحيح مسلم عن معاوية بن الحكم أنه قال لرسول الله ﷺ «ومنا أُناس يتطيرون. قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدَّنَّكم» فأخبر أن تأذِّيَه وتشاؤمه بالطير إنما هو في نفسه وعقيدته؛ لا في المتطيَّر به؛ فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبيّن لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه؛ ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمَّر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد. فقطع ﷺ عِلَق الشرك من قلوبهم، لئلا يبقى فيها علقة منها؛ ولا يتلبَّسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها. قال عكرمة: «كنا جلوسًا عند ابن عباس؛ فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر». فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر، وخرج طاوس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاوس: «وأي خير هذا؟ لا تصحبني». اهـ ملخصًا.

وقد جاءت أحاديثُ ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله: «الشؤم في ثلاث: في المرأة؛ والدابة؛ والدار» ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعيانًا مشؤومة على من قاربها وساكنها؛ وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولدًا مباركًا يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها؛ فكذلك الدار والمرأة والفرس. والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوسًا يتنحس بها من قاربها. وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب بمسبباتها المتضادة والمختلفة. كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذَّذ بها من قاربها من الناس، وخلق ضدها وجعلها سببًا لألم مَن قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مُدْرَك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل. فهذا لون والطيرة الشركية لون. انتهى.

زاد مسلم: «وَلَا نَوْءَ، ولَا غُولَ».

قوله: (ولا هامة) بتخفيف الميم على الصحيح. قال الفراء: الهامة طير من طير الليل. كأنه يعني البومة، قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم، يقول: نَعَتْ إليّ نفسي أو أحدًا من أهل داري. فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قوله: (ولا صفَر) بفتح الفاء، روى أبو عبيدة في غريب الحديث عن رؤبة أنه قال: هي حَيّة تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب. وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى وممن قال بهذا: سفيان بن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به: شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهو قول مالك.

وروى أبو داود عن محمد بن راشد عمن سمعه يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر، ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك.

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو من جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة.

قوله: (ولا نوء) النوء واحد الأنواء، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى.

قوله: (ولا غول) هو بالضم: اسم، وجمعه أغوال وغيلان، وهو المراد هنا.

قال أبو السعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلونًا في صور شتى وتَغُولهم، أي تُضِلُّهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله.

فإن قيل: ما معنى النفي وقد قال النبي ﷺ: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»[(١)].

أجيب عنه: بأن ذلك كان في الابتداء، ثم دفعها الله عن عباده. أو يقال: المنفي ليس وجودَ الغول، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه، أو يكون المعنى بقوله: «لا غول» أنها لا تستطيع أن تُضِلَّ أحدًا مع ذكر الله والتوكُّل عليه، ويشهد له الحديث الآخر: «لا غول ولكن السَّعالِي سحرة الجن» أي: ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل. ومنه الحديث: «إذا تغولت الغيلانُ فبادروا بالأذان» أي ادفعوا شرَّها بذكر الله، وهذا يدلُّ على أنه لم يرد بنفيها عدمها. ومنه حديث أبي أيوب: «كان لي تمر في سَهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ».

---

(١) قال السيوطي في الجامع الصغير: رواه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة وهو ضعيف.

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَة ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ قالوا: وَما الفَأْلُ؟ قالَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَة».

قوله (ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل، قالوا وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة»).

قوله: (ويعجبني الفأل) قال أبو السعادات: الفأل - مهموز -: فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر، يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت - على التخفيف والقلب؛ وقد أُولِع الناسُ بترك الهمزة تخفيفًا - وإنما أحبَّ الفألَ لأن الناس إذا أمّلوا فائدةَ الله ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر. وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء، والتفاؤل: أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول: ياسالم، أو يكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: ياواجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته، ومنه الحديث: «قيل يارسول الله ما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة».

قوله: (قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة) بين ﷺ أن الفأل يعجبه. فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة وموجبِ الفِطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، كما أخبرهم ﷺ أنه حُبِّب إليه من الدنيا النساء والطيب. وكان يحب الحلواء والعسل، ويحب حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم، وبالجملة يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما، والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبته، وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح، والسلام، والنجاح، والتهنئة والبشرى، والفوز، والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس وانشرح لها الصدر وقوي بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفًا، وطيرة وانكماشًا، وانقباضًا عما قصدت له وعزمت عليه؛ فأورث لها ضررًا في الدنيا ونقصًا في الإيمان ومقارفة الشرك.

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال.

قوله: (ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر قال: «ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك»).

ولأبي داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال: «ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ: أَحْسَنُها الفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإذا رَأى أَحدُكُمْ ما يَكْرَهُ فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسناتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

قوله: (عن عقبة بن عامر) هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو مكي اختلف في نسبه؛ فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهني، واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: (فقال: أحسنها الفأل) قد تقدم: أن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل. وروى الترمذي وصححه عن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يانجيح، ياراشد» وروى أبو داود عن بريدة: «أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملًا سأله عن اسمه فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رُئي كراهية ذلك في وجهه» وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقي بالشرك وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله: (ولا ترد مسلمًا) قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت) أي: لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات؛ وتدفع السيئات، و«الحسنات» - هنا -: النعم، و«السيئات»: المصائب، كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۝ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٨، ٧٩] ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا ولا تدفع ضرًّا، ويعد من اعتقدها سفيهًا مشركًا.

قوله: (ولا حول ولا قوة إلّا بك) استعانة بالله تعالى على فعل التوكل وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سببًا لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها، وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات.

و«الحول»: التحول والانتقال من حال إلى حال؛ و«القوة» على ذلك بالله وحده لا

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ. وما مِنَّا إِلَّا، ولٰكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكلِ» رواه أبو داود والترمذي وصححه. وجعل آخره من قول ابن مسعود.

شريك له، ففيه التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته. وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

قوله: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعًا: «الطِّيرة شرك، الطيرة شرك. وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود والترمذي وصححه. وجعل آخره من قول ابن مسعود).

ورواه ابن ماجه وابن حبان. ولفظ أبي داود: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك» ثلاثًا. وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد، قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك؛ وكيف يكون الشرك مكروهًا الكراهية الاصطلاحية؟!

قال في شرح السنن: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعًا أو تدفع عنهم ضرًّا إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

قوله: (وما منا إلا) قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: في الحديث إضمار. التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. اهـ.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة، وهذا من أدب الكلام.

قوله: (ولكن الله يذهبه بالتوكل) أي: لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: (وجعل آخره من قول ابن مسعود) قال ابن القيم: وهو الصواب؛ فإن الطيرة نوع من الشرك.

قال: (ولأحمد من حديث ابن عمرو «مَن رَدته الطيرة عن حاجته فقد أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»).

هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة[١] وبقية رجاله ثقات.

---

(١) هو عبدالله بن لهيعة الحضرمي الغافقي المصري قاضيها وعالمها ومسندها. قال الإمام أحمد. احترقت كتبه. وهو صحيح الكتاب. ومن كتب عنه قديمًا فسماعه صحيح. مات سنة ١٧٤هـ.

ولأحمد، من حديث ابن عمرو: «ومَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عن حاجتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ قالوا: فَما كَفارَةُ ذٰلِكَ؟ قالَ: أَنْ تَقولَ: اللَّهمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، ولَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلٰهَ غَيْرُكَ».

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه: «إِنَّما الطِّيَرَة ما أَمْضاكَ أَوْ رَدَّكَ».

قوله: (من حديث ابن عمرو) وهو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبو محمد. وقيل: أبو عبدالرحمن؛ أحد السابقين المكثرين من الصحابة وأحد العبادلة الفقهاء. مات في ذي الحجة ليالي الحرة - على الأصح - بالطائف[1].

قوله: (من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك) وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤمًا، فقد دخل في الشرك - كما تقدم - فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: (فما كفارة ذلك؟) إلى آخره. فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه، كفّر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداء؛ لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

وتضمن الحديث أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه؛ وأما من لا يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره، لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله؛ وأن الخير كله بيده؛ فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه؛ فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

قوله: (وله من حديث الفضل بن عباس «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»).

هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ يومًا، فبرّح ظبيٌ؛ فمال في شقه فاحتضنتهُ، فقلت: يارسول الله تطيرت، فقال: إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» وفي إسناده انقطاع، أي: بين مَسلمة - راويه - وبين الفضل، وهو

---

(١) واقعة الحرة وفتنة الحرة. الموقعة التي كانت من أهل الشام في أهل المدينة، حين بعث يزيد بن معاوية أهل الشام لقتال أهل المدينة حين امتنعوا عن بيعته فغلبوا على أهلها واستباحوها ثلاثًا، وقُتِلَ خلقٌ كثير من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم؛ وكان ذلك سنة خمس وستين(*).

(*) قوله: (وكان ذلك سنة خمس وستين) أقول: الصواب سنة ثلاث وستين.

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقعَ في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضرُّ، بل يُذهبهُ الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول مَنْ وَجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

الفضل بن العباس بن عبدالمطلب ابن عم النبي ﷺ. قال ابن معين: قُتل يوم اليرموك. وقال غيره: قُتل يوم مرج الصُّفّر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة، وقال أبو داود: قُتل بدمشق، كان عليه درع رسول الله ﷺ.

قوله: (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك) هذا حد الطيرة المنهي عنها: أنها ما يحمل الإنسان على المُضي فيما أراده؛ ويمنعه من المضي فيه كذلك. وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ ففيه نوع بشارة؛ فيسّر به العبد ولا يعتمد عليه بخلاف ما يمضيه أو يرده، فإن للقلب عليه نوعَ اعتماد. فافهم الفرق والله أعلم.

* * *

٢٨ - باب
ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: «خَلَقَ اللهُ هٰذِهِ النُّجومَ لِثَلَاث: زِينَة لِلسَّماءِ، ورُجومًا لِلشَّياطينِ وعَلَاماتٍ يُهْتَدى بِها، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيها غَيْرَ ذٰلِكَ أَخْطَأَ. وأَضاعَ

قوله: (باب ما جاء في التنجيم).

قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وتغير الأسعار؛ وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تُدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدّعون أن لها تأثيرًا في السُّفليات؛ وهذا منهم تحكُّم على الغيب، وتعاطٍ لعلم قد استأثر الله به؛ ولا يعلم الغيب سواه.

قوله: (قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين؛ وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

هذا الأثر علقه البخاري في صحيحه. وأخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم. وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة، ولفظه قال: «إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجومًا للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه؛ وأخطأ حظه وأضاع نصيبه؛ وتكلف ما لا علم له به، وإن ناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود والطويل والقصير والحسن والدميم، وما عِلمُ هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب، ولو أن أحدًا عَلم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء» انتهى[1].

---

(١) في قرة العيون: وقول قتادة رحمه الله تعالى يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به؛ وهذا العلم مما ينافي التوحيد ويوقع في الشرك لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها وهو الله سبحانه بمشيئته وإرادته كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ [فاطر: ٣] وقال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

نَصيبَهُ، وتكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» انتهى.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يُرخِّص ابن عُيينة فيه. ذكره حرب عنهما ورخَّص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

فتأمل ما أنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين، وما زال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار، وعمت به البلوى في جميع الأمصار فمقلّ ومستكثر، وعزّ في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به في الدين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: (خلق الله هذه النجوم لثلاث) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا، كما روى ابن مَردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما السماء الدنيا: فإن الله خلقها من دخان وجعل فيها سراجًا وقمرًا منيرًا، وزينها بمصابيح وجعلها رجومًا للشياطين، وحفظًا من كل شيطان رجيم».

قوله: (وعلامات) أي دلالات على الجهات (يُهتدى بها) أي يهتدي بها الناس في ذلك. كما قال تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] أي لتعرفوا بها جهة قصدكم؛ وليس المراد: أن يهتدى بها في علم الغيب، كما يعتقده المنجمون، وقد تقدم وجه بطلانه وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة: «فمن تأول فيها غير ذلك» أي: زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ حيث زعم شيئًا ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبه من كل خير، لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه.

فإن قيل: المنجم قد يصدق؟ قيل: صدقه كصدق الكاهن، فيصدق في كلمة ويكذب في مائة. وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدرًا؛ فيكون فتنة في حق مَن صدقه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ [النحل: ١٥، ١٦] فقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض. ثم استأنف فقال: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه.

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم، كقوله: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر. زاد ما زاد»[1].

وعن رَجاء بن حَيْوة أن النبي ﷺ قال: «إن مما أخاف على أمتي: التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحَيف الأئمة» رواه عبد بن حميد. وعن أبي مِحجن مرفوعًا «أخاف على أُمتي ثلاثًا: حيف الأئمة وإيمانًا بالنجوم وتكذيبًا للقدر». رواه ابن عساكر وحسنه السيوطي.

---

(١) رواه الإمام أحمد، وأبو داود، وابن ماجه عن ابن عباس.

. . . .

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا «أخاف على أمتي بعدي خصلتين: تكذيبًا بالقدر؛ وإيمانًا بالنجوم» رواه أبو يعلي وابن عدي والخطاب في كتاب النجوم وحسنه السيوطي أيضًا. والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة.

قوله: (وكره قتادة تعلم منازل القمر. ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق).

قال الخطَّابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهى عنه، وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئًا أكثر من أن الظل مادام متناقصًا فالشمس بعدُ صاعدةٌ نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علمٌ يصحُّ إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته، وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها وصدقهم فيما أخبروا به عنها؛ مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة ويشاهدها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متَّهَمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم. انتهى[١].

وروى ابن المنذر عن مجاهد أنه كان لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل منازل القمر، وروي عن إبراهيم أنه كان لا يرى بأسًا أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به. قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه علم التسيير لا علم التأثير فإنه باطل محرم، قليله وكثيره. وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه منه للاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور.

قوله: (ذكره حرب عنهما) هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبو محمد الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد، روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم. وله كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين. وأما إسحاق فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبو أيوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم، قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين، روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم. وروى هو

---

(١) وحقيقة علم الفلك معرفة حركات النجوم والكواكب وتنقلاتها ومنازلها. وقد اخترع لمعرفة ذلك آلات حاسبة ومنظارات مقربة؛ ومراصد كاملة الأسباب والآلات عرفوا بها شيئًا كثيرًا جدًّا من العوالم العلوية؛ حتى أصبحت كأنها على هذه الأرض. وكل ذلك لا يصح أن يختلف فيه مطلقًا؛ لأنه كعلم الحساب. أما أن ينسب إلى هذه النجوم والكواكب شيء من الحوادث على الأرض من موت أو حياة أو حرب أو سلم يكون في المستقبل فهذا هو الذي لا شك في كذبه وأنه ضلال.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْر، وقاطِعُ الرَّحم، ومُصَدِّق بِالسِّحْرِ» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

أيضًا عن أحمد، مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

قال: (وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر وقاطع الرحم ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في صحيحه).

هذا الحديث رواه أيضًا الطبراني والحاكم وقال: صحيح. وأقره الذهبي. وتمامه: «ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغُوطة: نهر يجري من فروج الموسات؛ يؤذي أهل النار ريحُ فروجهن».

قوله: (وعن أبي موسى) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضّار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - أبي موسى الأشعري. صحابي جليل. مات سنة خمسين.

قوله: (ثلاثة لا يدخلون الجنة) هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها. وقالوا: أَمِرُّوها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم، وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذّبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: (مدمن الخمر) أي: المداوم على شربها.

قوله: (وقاطع الرحم) يعني: القرابة كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ الآية [محمد: ٢٢].

قوله: (ومصدق بالسحر) أي مطلقًا. ومنه التنجيم؛ لما تقدم من الحديث. وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبي في الكبائر: ويدخل فيه تعلم السيميا وعملُها، وعقد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة. قال: وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه؛ ولا الوعيد عليه. اهـ.

* * *

٢٩ - باب
ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعٌ في أُمَّتِي مِنْ

قوله: (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء).

أي: من الوعيد؛ والمراد: نسبة السُّقيا ومجيء المطر إلى الأنواء. جمع «نَوْء» وهي منازل القمر. قال أبو السعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة. ينزل القمر كل ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلةٌ مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتَها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر؛ وينسبونه إليها، ويقولون: «مطرنا بنوء كذا وكذا» وإنما سمي نَوْءًا؛ لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أي نهض وطلع.

قال: (وقوله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾) [الواقعة: ٨٢].

روى الإمام أحمد والترمذي - وحسنه - وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في المختارة عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول لله ﷺ: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ يقول: شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا» وهذا أولى ما فُسِّرت به الآية. وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم وهو قول جمهور المفسرين وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية.

قال ابن القيم رحمه الله: أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به حياتكم: التكذيب به؛ يعني بالقرآن. قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون. قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

قوله: (عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب؛ والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم؛ والنياحة» وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قَطِران ودِرْعٌ من جَرَب» رواه مسلم).

أبو مالك اسمه: الحارث بن الحارث الشامي. صحابي تفرَّد عنه بالرواية أبو سلام. وفي الصحابة أبو مالك الأشعري، اثنان غير هذا.

قوله: (أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن) ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم

أَمْرِ الجاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكونَهُنَّ: الفَخْرُ بالأَحْسابِ، والطَّعْنُ في الأَنْسابِ، والاسْتِسْقاء بالنُّجومِ، والنِّياحَة».

بتحريمها أو مع الجهل بذلك، مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة. والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم. وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية، فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو أكثرها، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة، ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية، بلغ مائة وعشرين مسألة[١].

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم، ذمًّا لمن لم يتركه؛ وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام؛ وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهليّة ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فإن في ذلك ذمًّا للتبرج وذمًّا لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله: (الفخر بالأنساب) أي: التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم؛ وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعًا: «إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم خلق من تراب، لَيَدَعَنّ رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنّ أهونَ على الله من الجُعلان».

قوله: (والطعن في الأنساب) أي: الوقوع فيها بالعيب والتنقص، ولما عَيّر أبو ذر رضي الله عنه رجلًا بأمه[٢] قال له النبي ﷺ: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» متفق عليه. فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية؛ وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: (والاستسقاء بالنجوم) أي: نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم. كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أخاف على أمتي ثلاثًا: استسقاءً بالنجوم. وحَيفَ السلطان. وتكذيبًا بالقدر».

(١) كتاب مسائل الجاهلية طبع في المطبعة السلفية وهو نفيس جدًّا ككل كتب شيخ الإسلام التي تفيض علمًا ونورًا، رحمه الله.
(٢) وإنما عيره بسوادهما فقط. فقال له: ياابن السوداء، فكيف بالناس اليوم وقد أطلقوا لأقلامهم وألسنتهم العنان؟.

وقال: «النَّائِحَةُ إِذا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتها تُقامُ يَوْمَ القِيامَةِ وعَلَيْهَا سِرْبالٌ مِنْ قَطران ودِرْعٌ مِنْ جَرَب». رواه مسلم.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صَلَّى لَنا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا. فلا يخلو إما أن يعتقد أن له تأثيرًا في إنزال المطر. فهذا شرك وكفر، وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعًا، أو يدفع عنهم ضرًّا، أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنة: الشرك.

وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلًا، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده. لكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في الفروع: بأنه يحرم قول «مُطرنا بنوء كذا» وجزم في الإنصاف بتحريمه ولو على طريق المجاز، ولم يذكر خلافًا. وذلك أن القائل لذلك نَسبَ ما هو من فعلِ الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر لا ينفع ولا يضر ولا قدرة له على شيء، فيكون ذلك شركًا أصغر. والله أعلم.

قوله: (والنياحة) أي رفع الصوت بالندب على الميت[(١)] لأنها تَسخُّط بقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد والعقوبة.

قوله: (والنائحة إذا لم تتب قبل موتها) فيه تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم؛ هذا مجمع عليه في الجملة، ويكفر أيضًا بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض؛ وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئًا. وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعًا: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغرغِر» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

قوله: (تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) قال القرطبي: السربال واحد السرابيل، وهي الثياب والقُمُص، يعني أنهن يُلطّخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص؛ حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد. وروي عن ابن عباس: «إن القطران هو النحاس المذاب»[(٢)].

قال: (ولهما[(٣)] عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة

---

(١) وضرب الخدود وشق الجيوب والدعاء بدعوى الجاهلية.

(٢) ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وغيره عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٤٩، ٥٠].

(٣) رواه البخاري في الصلاة في باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم؛ وفي الاستسقاء في باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ

بِالْحُدَيْبِيَّةِ عَلى إِثْرِ سَماءٍ كانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلى النَّاسِ فَقالَ: هَلْ تَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: قالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ

الصبح بالحُدَيبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي؛ كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بِنوْء كذا وكذا فذلك كافر بي، مؤمن بالكوكب»).

زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: (صلى لنا رسول الله ﷺ) أي بنا، فاللام بمعنى الباء. قال الحافظ: وفيه إطلاق ذلك مجازًا. وإنما الصلاة لله.

قوله: (بالحديبية) بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل[١].

قوله: (على إثر سماء كانت من الليل) بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور؛ وهو ما يعقب الشيء.

قوله: (سماء) أي: مطر، لأنه ينزل من السحاب؛ والسماء يُطلق على كل ما ارتفع.

قوله: (فلما انصرف) أي: من صلاته، أي: التفت إلى المأمومين، كما يدل عليه قوله: «أقبل على الناس» ويحتمل أنه أراد السلام.

قوله: (هل تدرون) لفظ استفهام ومعناه التنبيه. وفي النسائي: «ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟» وهذا من الأحاديث القدسية. وفيه إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

قوله: (قالوا: الله ورسوله أعلم) فيه حُسْنُ الأدب للمسؤول عما لا يعلم أن يَكِل العلم إلى عالمه. وذلك يجب[٢].

قوله: (أصبح من عبادي) الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

قوله: (مؤمن بي وكافر) إذا اعتقد أن للنوء تأثيرًا في إنزال المطر فهذا كفر لأنه أشرك في الربوبية، والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر، لأنه نسب نعمة الله

أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ورواه مسلم في كتاب الإيمان.

(١) قرية على حدود الحرم؛ وتسمى الآن الشميسي، وكان فيها صلح الحديبية بين رسول الله والمشركين سنة ست من الهجرة؛ وكان هذا الصلح الفتح المبين.

(٢) وردهم هذا، إنما كان يصح حينما كان الرسول ﷺ في حياته الدنيا حاضر المجلس فإن الواجب رد العلم إلى الله ثم إليه. وأما بعد أن مات وفارق هذه الدنيا، فلا ينبغي رد العلم إلا إلى الله وحده، فمن الخطأ استعمال الناس هذه الجملة الآن وقوله: «الله ورسوله أعلم».

بِي وكافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذٰلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَنْ قالَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وكَذا فَذٰلِكَ كافِرٌ بِي مُؤمِنٌ بِالكَوْكَبِ».

إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سببًا لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره ولو على سبيل المجاز. وأيضًا «الباء» تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة، لما عرفت من أن هذا باطل، ولا تصدق أيضًا على أنها للمصاحبة، لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه؛ وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله، فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهي عنه فاسد، فيظهر على هذا تحريم هذه اللفظة مطلقًا لفساد المعنى[1]، وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب «الفروع والإنصاف».

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع) يشير إلى أنه الإخلاص.

قوله: (فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته) فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة والعلم، وصفات الأفعال؛ كالرحمة التي يرحم بها عباده. كلها صفات الله قائمة بذاته ليست قائمة بغيره، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: أن نِعَم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: (وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا) إلى آخره، تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف رحمه الله: (وفيه التفطن للكفر في هذا الموضع).

يشير إلى نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر؛ فيكون من كفر النعم، لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من الشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب، نسبة إيجاد واختراع؛ ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث. فنهى

---

(١) وكذلك مثلها مما يستعمله الجاهلون، كقولهم: يا ربنا بمحمد وبنته؛ ونحو ذلك من ألفاظ في توسلاتهم ودعواتهم الجاهلية.

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه: وفيه «قالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذا وكَذا. فَأَنْزَلَ اللهُ هٰذِهِ الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ

الشارع عن إطلاق ذلك، لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى. قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد - يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] فدل على أن منهم من يعرف ويُقِرُّ بأن الله هو الذي أوجد المطر؛ وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئًا من التأثير، والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره. فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور.

قوله: (ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢] وبلفظه عن ابن عباس قال: «مُطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فقال: فنزلت هذه الآية ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾».

هذا قسم من الله عز وجل، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء. وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ فتكون (لا) صلة لتأكيد النفي؛ فتقدير الكلام؛ ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ فليس الأمر كما تقولون؛ ثم استؤنف القسم بعد فقيل: ﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾. قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقًا في السنين بعد[1]، ثم قرأ ابن عباس هذه الآية. ومواقعها: نزولها شيئًا بعد شيء. وقال مجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومشارقها. واختاره ابن جرير. وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسَم به والمقسَم عليه - وهو القرآن - من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة. وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن

---

(١) الآية تدل على أنه ما زال في الكتاب المكنون حتى كان ينزل به جبريل منجمًا. فكان ينزل مباشرة إلى النبي ﷺ ولا مفهوم لما قاله بعض المفسرين إنه نزل إلى السماء الدنيا مرة ثم كان ينزل بعد ذلك إلى رسول الله ﷺ منها.

لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾» [الواقعة: ٧٥-٨٢].

والإنس، والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول. ذكره ابن القيم رحمه الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ قال ابن كثير: أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم لو تعلمون عظمته لعَظَّمْتم المقسمَ به عليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن، أي: إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآن كريم أي عظيم كثير الخير، لأنه كلام الله.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته، فإن الكريم هو البهي، الكثير الخير، العظيم النفع؛ وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلف «الكريم» بالحسن، قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

وقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ أي: في كتاب معظم محفوظ موقر. قاله ابن كثير.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: اختلف المفسرون في هذا؛ فقيل: هو اللوح المحفوظ، والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٦] ويدل على أن الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه.

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا يمسه إلا المطهرون. قال: الكتاب الذي في السماء»، وفي رواية: «لا يمسه إلا المطهرون يعني: الملائكة» وقال قتادة: «لا يمسه عند الله إلا المطهرون. فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس» واختار هذا القول كثيرون، منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه. وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢] قال ابن كثير: هذا قول جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله. وقال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه في هذه الآية: «لا يجد طعمه إلَّا من آمن به».

قال ابن القيم رحمه الله: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذُّ به وبقراءته

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يُخرج من الملة.

الخامسة: قوله «أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بِي وكافِرٌ» بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذا وكَذا».

وفهمه وتدبره إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقًّا؛ وأنزله على رسوله وحيًا. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: من الجنابة والحدث، قالوا: ولفظ الآية خبر معناه الطلب، قالوا: والمراد بالقرآن ههنا المصحف، واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في الموطأ عن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: «أن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: ألَّا يمس القرآن إلا طاهر»[1].

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من رب العالمين وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه؛ وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم رحمه الله ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] هو إثبات علو الله تعالى على خلقه. فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأنا نقول: إن الذي أنزلها فوق

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: ورواه أبو داود في المراسيل من حديث الزهري. قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الخ. قال: ومثل هذا لا ينبغي الأخذ به. وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم وعبدالله بن عمر وعثمان ابن أبي العاص. وفي إسناد كل منهما نظر. وقال الحافظ في التخليص الحبير: وقد ضعف النووي في الإرشاد وابن كثير وابن حزم حديث حكيم بن حزام وحديث عمرو بن حزم جميعًا.

والضمير في الآية يعود على الكتاب المكنون؛ فهي صريحة في أنهم الملائكة. والمقصود بالآية ما قال ابن زيد: الردُّ على قريش زعمها أنه تنزلت به الشياطين؛ فليس في الآية دليل ولا شبه دليل لمن يقول: إن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

التاسعة: إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أَتَدْرُونَ ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

سمواته، فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافًا إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكه لهم وتصرفه فيهم؛ وحكمه عليهم؛ وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سُدًى؛ ويَدعهم هَمَلًا ويخلقهم عبثًا. لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟! فمن أقرّ بأنه رب العالمين أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله. واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله ﷺ وصحة ما جاء به؛ وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق. وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس. وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ قال مجاهد: أتريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم؟

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم وبخهم على وضعهم الإدهانَ في غير موضعه، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ولا يسرة؛ ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه؛ ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم؛ ومدار السعادة؛ وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر. فكيف تطلب المداهنة بمن هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنة: إنما تكون في باطل قوي لا تمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟!

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقدم الكلام عليها أول الباب؛ والله تعالى أعلم.

* * *

٣٠ - باب

قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾) [البقرة: ١٦٥].

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل؛ وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ الآية. قال في شرح المنازل(١): أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، فهذا ند في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحدًا من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أندادًا في الحب والتعظيم. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفي تقدير الآية قولان: أحدهما: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم، ثم روى عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوها مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله، والذين آمنوا أشد حبًّا لله من حبهم آلهتهم. انتهى.

والثاني: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من المشركين بالأنداد لله، فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ فإن فيها قولين أيضًا، أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله، فيكون قد أثبت لهم محبة الله. ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم. والثاني: أن المعنى يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول: إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له؛ وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم، وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] ومعلوم

---

(١) مدارج السالكين، أول الجزء الثالث، من طبعة المنار.

. . . .

أنهم ما سوّوهم برب العالمين في الخلق والربوبية[١] وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم، وهذا أيضًا هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وهذه تُسمَّى آية المحنة. قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله فأنزل الله تعالى آية المحنة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ وفائدتها وثمرتها، محبة المرسِل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ذكر لها أربع علامات:

إحداها: أنهم أذلة على المؤمنين - قيل: معناه أرقاء رحماء مشفقون عاطفون عليهم - فلما ضمّن «أذلة» هذا المعنى عداه بأداة «على»، قال عطاء رحمه الله: «للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده، وعلى الكافرين كالأسد على فريسته»، ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

العلامة الثالثة[٢]: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة، فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاثة: الحب. وهو ابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب، ومن المعلوم قطعًا أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته؛ بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه، وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولا يقرب من ذاته شيء، ولا يحب، فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح وبهجة النفوس، وقرة العيون وأعلى نعيم الدنيا والآخرة، ولذلك ضربت قلوبهم

---

(١) في قرة العيون: وقد وقع الشرك في الربوبية أيضًا في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفًا في الكون ونحو ذلك.

(٢) لم يذكر الثانية، ولعله اكتفى بما في كلام عطاء من الإشارة إليها بقوله: وعلى الكافرين.

. . . .

بالقسوة وضُرِبَ دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته؛ فلا يعرفونه ولا يذكرونه إلا عند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم؛ بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها. وحسب ذي البصيرة وحياة ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده والله المستعان.

وقال رحمه الله تعالى أيضًا: لا تُحَدُّ المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء. فحدها وجودها ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلَّمُ الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها. وأجمع ما قيل في ذلك: ما ذكره أبو بكر الكتاني عن الجنيد.

قال أبو بكر: «جرت مسألة في المحبة بمكة - أعزها الله في أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها؛ وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عندك ياعراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه؛ ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله؛ وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله ومع الله. فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين».

وذكر رحمه الله تعالى: أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو أعجبها، انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلهي[1] وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين؛ والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

---

(١) وذلك إذا مضى ثلثا الليل كما في حديث النزول.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى أَكونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ ووالِدِهِ والنَّاس أَجْمَعينَ» أَخْرَجاه.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة ودخلوا على الحبيب.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾) [التوبة: ٢٤].

أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا» أي: انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه، روى الإمام أحمد وأبو داود - واللفظ له - من حديث أبي عبدالرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعِينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم».

فلا بد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله ويبغض ما يبغضه، ويوالي فيه ويعادي فيه ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحنة ونظائرها.

قوله: (وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه) أي البخاري ومسلم.

قوله: (لا يؤمن أحدكم) أي الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، بل ولا يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه، كما في الحديث: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يارسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال: والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك. فقال له عمر. فإنك الآن أحبُّ إليّ من نفسي، فقال: الآن ياعمر» رواه البخاري.

«فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرّض

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الإيمانِ: أَنْ يَكونَ اللهُ ورَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعودَ في الكفرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

للعقوبة فقد صدق؛ وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله ورسوله ﷺ». قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٤٧] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون مُحِبًّا بقدر ما معه من الإسلام وكل مسلم لا بد أن يكون مؤمنًا وإن لم يكن مؤمنًا الإيمان المطلق، لأن ذلك لا يحصل إلا لخواص المؤمنين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو وُلِدوا على الإسلام والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله. فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل، لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئًا فشيئًا إن أعطاهم الله ذلك؛ وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد؛ ولو شُكِّكوا لشكُّوا، ولو أُمِرُوا بالجهاد لما جاهدوا. إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال، فهؤلاء إن عوفوا من المحنة ماتوا ودخلوا الجنة؛ وإن ابتلوا بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى.

وفي هذا الحديث: أن الأعمال من الإيمان. لأن المحبة عمل القلب.

وفيه: أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها، وكل من كان مُحِبًّا لله، فإنَّما يُحِبُّ في الله ولأجله كما يُحِبُّ الإيمان والعمل الصالح، وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه أو دفع مرهوب منه، وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله لما فيها من التعلُّق على غيره والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله، التي هي من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله لما يتعلّق في قلوب المشركين من الإلهية التي لا تجوز إلا لله وحده.

قوله: (ولهما عنه - أي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه

وفي رواية: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الإِيمانِ حَتّى» إلى آخره.

كما يكره أن يقذف في النار» وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله إلخ»).

قوله: «ثلاث» أي ثلاث خصال.

قوله: (من كن فيه) أي وُجِدَت فيه تامة.

قوله: (وجد بهن حلاوة الإيمان) الحلاوة هنا هي التي يعبر عنها بالذوق لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه، وهي شيء محسوس يجده أهل الإيمان في قلوبهم.

قال السيوطي رحمه الله في التوشيح: «وجد حلاوة الإيمان» فيه استعارة تخييلية. شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو؛ وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه.

وقال النووي: معنى حلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا؛ ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته. وكذلك الرسول ﷺ.

قال يحيى بن معاذ: حقيقة الحب في الله: ألا يزيد بالبر ولا ينقص بالجفاء.

قوله: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما) يعني بالسوى: ما يحبه الإنسان بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها. فتكون «أحب» هنا على بابها.

وقال الخطابي: المراد بالمحبة هنا حب الاختيار لا حب الطبع كذا قال.

وأما المحبة الشركية التي قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافي محبة الله ورسوله وفي بعض الأحاديث: «أحبوا الله بكل قلوبكم» فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويسعى في مرضاته ما استطاع؛ ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه، فذلك عَلَم على عدم محبته لله ورسوله، فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه ومن لا فلا؛ كما في آية المحنة ونظائرها. والله المستعان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كُنّ فيه وجد حلاوة الإيمان. لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبةُ له، فمن أحب شيئًا واشتهاه؛ إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهي، قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة وتفريغها، ودفع ضدها، فتكميلها أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب؛ بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته، فإنه يحب من عبده أن يطيعه، والمحب

. . . .

يحب ما يحبه محبوبه ولا بد.

ومن لوازم محبة الله أيضًا: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده، فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال الإيمان، كما في حديث ابن عباس الآتي.

قال: وتفريغها. أن يحب المرء لا يحبه إلا لله؛ قال: ودفع ضدها أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار، انتهى.

قوله: (أحب إليه مما سواهما): فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ وفيه قولان:

أحدهما: أنه ثنّى الضمير هنا إيماء إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين؛ لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية. وأمر بالإفراد في حديث الخطيب[1] إشعارًا، بأن كل واحد من العصيانين مستقل باستلزام الغواية إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا هو الجواز.

وجواب ثالث: وهو أن هذا وارد على الأصل، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح.

قوله: (كما يكره أن يقذف في النار) أي يستوي عنده الأمران. وفيه رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقًا وإن تاب منه. والصواب: أنه إن لم يتب كان نقصًا وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم في الأصل كفارًا فهداهم الله إلى الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله؛ وكذلك الهجرة. كما صح الحديث بذلك.

قوله: (وفي رواية: لا يجد أحد) هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من صحيحه. ولفظها: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

---

(١) وذلك ما رواه مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عدي بن حاتم: «أن خطيبًا خطب عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله تعالى ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى. فقال له ﷺ: بئس الخطيب أنت. قل: من يعص الله تعالى ورسوله فقد غوى».
قال النووي: سبب الإنكار عليه أن الخطبة شأنها البسط والإيضاح، واجتناب الإشارات والرموز. قال: ولهذا ثبت أن رسول الله ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا لتفهم عنه، قال: وإنما ثنى الضمير في قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» لأنه ليس خطبة وعظ وإنما هو تعليم حكيم، فكلما قل لفظه كان أقرب إلى حفظه بخلاف الخطبة. اهـ.
أقول: ولعلها حادثة حال لها ظروفها التي اقتضت أن يقول رسول الله ﷺ ذلك والله أعلم.

وعن ابن عباس: «مَنْ أَحَبَّ في اللهِ، وأَبْغَضَ في اللهِ، ووالَى في اللهِ، وعادَى في اللهِ، فَإِنَّما تُنالُ وَلَايَةُ اللهِ بِذٰلِكَ. ولَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإيمانِ وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وصَوْمُهُ حَتّى يَكونَ كَذٰلِكَ. وقَدْ صارَتْ عامة مُؤاخاةِ النَّاسِ عَلى أَمْرِ الدُّنْيا، وذٰلِكَ لَا يُجْدِي

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهابك إجلالا. وما بك قدرة عليّ، ولكن ملء عين حبيبها

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يُجدِي على أهله شيئًا. رواه ابن جرير).

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، الجملة الأولى منه فقط.

قوله: (من أحب في الله) أي: أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

قوله: (وأبغض في الله) أي: أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله، وإن كانوا أقرب الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قوله: (ووالى في الله) هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب الله تعالى أحب فيه؛ ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره، وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها؛ وبكمالها يكمل توحيد العبد، ويكون ضعفها على قدر ضعف محبة العبد لربه، فَمُقِلّ ومستكثر ومحروم.

قوله: (فإنما تنال ولاية الله بذلك) أي: توليه لعبده. و«ولاية» بفتح الواو لا غير أي: الأخوة[1] والمحبة والنصرة، وبالكسر الإمارة، والمراد هنا الأول. ولأحمد والطبراني عن النبي ﷺ قال: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله. فإذا أحب لله وأبغض لله، فقد استحق الولاية لله» وفي حديث آخر: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله عز وجل» رواه الطبراني.

قوله: (ولن يجد عبد طعم الإيمان) إلى آخره. أي: لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه؛ حتى يكون كذلك، أي حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادي في الله؛ ويوالي فيه.

---

(١) لعل كلمة الأخوة زائدة أو مبدلة عن كلمة أخرى تناسب المقام.

عَلى أَهْلِهِ شَيْئًا» رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المَوَدَّة».

وفي حديث أبي أمامة مرفوعًا: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان». رواه أبو داود.

قوله: (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا. وذلك لا يجدي على أهله شيئًا) أي لا ينفعهم، بل يضرهم كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان، وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ»(١). وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يؤثر بعضهم بعضًا على نفسه محبة في الله وتقربًا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد رأيتُنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحدٌ يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم» رواه ابن ماجه.

قوله: (وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المودة») هذا الأثر، رواه عبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم. وصححه.

قوله: (قال المودّة) أي: التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرَّأ بعضهم من بعض؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ الآيتين [البقرة: ١٦٦، ١٦٧] فهؤلاء المتبعون كانوا على الهدى وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكون غير طريقهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون الله، وهذا حال كل من اتخذ من دون الله أولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم ويرضى لهم، ويغضب لهم؛ فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ

---

(١) رواه مسلم، وابن ماجه، عن أبي هريرة، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن مسعود. وقد شرحه الحافظ ابن رجب شرحًا نفيسًا سماه: «كشف الكربة في وصف حال أهل الغربة» طُبِعَ مِرارًا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

الرابعة: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حُبًّا شديدًا.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية[١] أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

لم يجرد موالاته، ومعاداته، وحبه وبغضه، وانتصاره، وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عز وجل ذلك العمل كله. وقطع تلك الأسباب، فينقطع يوم القيامة كل سبب وصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله؛ ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة؛ والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ تجريدًا محضًا بريئًا من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلًا عن الشرك بينه وبين غيره؛ وفضلًا عن تقديم قول غيره عليه. فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه. وهذه هي النسبة التي بين العبد وربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم. وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثورًا لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه ضائعًا، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. انتهى ملخصًا.

* * *

---

(١) هي الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشيرة، والأموال، والتجارة، والمساكن.

٣١ - باب

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الخوف من أفضل مقامات الدِّين وأَجَلِّها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى. قال الله تعالى: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال تعالى: ﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام:

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام: إنهم قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ [هود: ٥٤، ٥٥] وقال تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦] وهذا هو الواقع من عُبَّاد القبور ونحوها من الأوثان يخافونها، ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفًا من بعض الناس، فهذا محرَّم وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب نزول هذه الآية. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥] وفي الحديث «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشية الناس. فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى»[١].

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك. فهذا لا يذم.

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد بلفظ: «لا يحقر أحدكم نفسه؛ قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا لله فيه مقال ثم لا يقول فيه؛ فيقول الله يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا: كذا وكذا؟ فيقول: خشيت الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى» ذكره ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ﴾. الآيات.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ الآية [القصص: ٢١].

ومعنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوفكم أولياءه: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله، فلا يخافون إلا إياه. وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده ورضيه منهم، فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٣٦].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن كيد عدو الله: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم، قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه، قال قتادة: يُعظِّمهم في صدوركم، فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه، وكُلَّما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين، لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

وقال ابن القيم رحمه الله: الخوف عبودية القلب، فلا يَصْلُح إلا لله، كالذُّل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

عنهما: «يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة[١] وفي الحديث: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾» رواه أحمد، والترمذي، والحاكم عن أبي سعيد الخدري.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى مُخبِرًا عن صفات قوم من المكذبين الذين يدّعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم: أنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله».

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الناس إذا أُرْسِلَ إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا؛ وإما أن لا يقول ذلك. بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه، والفتنة الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا. فلا يحسب أن يعجز الله ويفوته ويسبقه، فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلي بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفس، آمنتْ أو رغبت عن الإيمان؛ لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداء ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداء ثم يصير في الألم الدائم؛ والإنسان لا بد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتقًى حلّ بين قوم فُجّار ظَلَمة، لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم؛ فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى، أضعاف ما كان يخافه ابتداء لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سَلِمَ منهم فلا بد أن يُهَانَ ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله

---

(١) قال ابن كثير: قال ابن عباس: «كقوله لنبيه ﷺ: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وهي الشفاعة. وقال محمد بن إسحاق بن يسار: «وعسى» في القرآن من الله حق».

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَنْ تُرضِي النَّاسَ بِسَخطِ اللهِ، وأَنْ تَحْمِدَهُمْ عَلى رِزْقِ اللهِ، وأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلى ما لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ، إِنَّ رِزْقَ اللهِ لَا يجرُّهُ حِرْصُ حَريص، ولَا يُرُدُّهُ كَراهِيَةُ كارِه».

لم يغنوا عنه من الله شيئًا»[١].

فمن هداه الله، وألهمه رشده، ووقاه شَرَ نفسه امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم؛ ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر تعالى عن حل الداخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له، وهي أذاهم، ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به: كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب، وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله. فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله. وغُبن كل الغبن إذا استجار من الرّمضاء بالنار. وفرّ من ألم ساعة إلى ألم الأبد؛ وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

وفي الآية رد على المرجئة والكَرامية؛ ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل. فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق. والمعصوم من عصمه الله.

قوله: (عن أبي سعيد مرفوعًا: «إن من ضَعف اليقين: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذُمّهم على ما لم يؤتك الله؛ إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»).

هذا الحديث رواه أبو نعيم في: الحلية والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدي وقال: ضعيف. وفيه أيضًا عطية العوفي: ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: «وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم

---

(١) رواه الترمذي، عن عائشة عن النبي ﷺ أيضًا.

. . . .

والحزن في الشك والسخط».

قوله: (إن من ضعف اليقين) الضعف يضم ويحرك؛ ضد القوة، ضعف كَكرم ونُصر، ضعفًا، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان؛ والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضَعفَى، أو الضعف - بالفتح - في الرأي وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. «واليقين» كمال الإيمان. قال ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان». [رواه الطبراني بسند صحيح]، رواه أبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعًا. قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما في حديث ابن عباس مرفوعًا: «فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، فإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا» وفي رواية: «قلت: يارسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك».

قوله: (أن ترضي الناس بسخط الله) أي تؤثر رضاهم على رضى الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله، وإجلاله، وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجب له سخط خالقه وربه ومليكه الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب ويغفر الذنوب، وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك، لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله. ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله؛ ومعرفة توحيده من ربوبيته وإلهيته وبالله التوفيق.

قوله: (وأن تحمدهم على رزق الله) أي على ما وصل إليك من أيديهم؛ بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمرًا قيّض له أسبابًا، ولا ينافي هذا حديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[1] لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم لكون الله ساقه على أيديهم فتدعو لهم أو تكافئهم؛ لحديث: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»[2]. فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سببًا في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هو الله وحده.

قوله: (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم فلو قدره لك لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي

(١) رواه أبو داود، والترمذي - وقال: حسن صحيح - وابن حبان عن أبي هريرة.
(٢) رواه أبو داود، والنسائي بإسناد صحيح. كذا في كشف الخفاء.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَنِ التَمَسَ رِضا اللهِ بِسَخطِ النَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، ومَنِ التَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ». رواه ابن حبان في صحيحه.

يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقًا على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله؛ ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه. وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: «إن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره» كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله، وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أرضيت الله نصرك، ورزقك، وكفاك مؤونتهم. وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفًا منهم ورجاء لهم، وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يقدّر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم، فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدّر كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك؛ ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم. ولما قال بعض وفد بني تميم: «أي محمد أعطني. فإن حمدي زَيْن وذَمِّي شَين، قال النبي ﷺ: ذاك الله». ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

قوله: (وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس». رواه ابن حبان في صحيحه).

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: «كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتابًا توصيني فيه، ولا تُكْثِري عليّ، فكتبت عائشة رضي الله عنها: إلى معاوية، سلام عليك، أما بعد فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس. والسلام عليك» ورواه أبو نعيم في الحلية.

قوله: (من التمس) أي طلب.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسة: علامة ضعفه. ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا» هذا لفظ المرفوع. ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس؛ ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذامًّا» وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كاف عبده: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، وأما كون الناس كلهم يرضون عنه قد لا يحصل ذلك، لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة: «ومن أرضى الناس بسخط الله، لم يغنوا عنه من الله شيئًا» كالظالم الذي يعضُّ على يديه. وأما كون حامده ينقلب ذامًّا. فهذا يقع كثيرًا ويحصل في العاقبة، فإن العاقبة للتقوى، لا تحصل ابتداء عند أهوائهم. اهـ.

وقد أحسن من قال:

إذا صح منك الود يا غاية المنى ... فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب، فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين، عياذًا بالله من ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧].

٣٢ - باب

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قوله (باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]).

قال أبو السعادات: يقال: توكل بالأمر: إذا ضَمن القيام به؛ ووكلت أمري إلى فلان. إذا اعتمدت عليه؛ ووكّل فلان فلانًا إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته؛ أو عجزًا عن القيام بأمر نفسه. اهـ.

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية: بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر. أي: وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى، فهو من أعظم منازل: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة، إلا بكمال التوكل على الله؛ كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩] والآيات في الأمر به كثيرة جدًّا. قال الإمام أحمد رحمه الله: «التوكل عمل القلب».

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه؛ وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]. فجعل دليل صحة الإسلام التوكل؛ وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى؛ وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان المتوكل ضعيفًا كان دليلًا على ضعف الإيمان ولا بد. والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر: أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وما رجا أحد مخلوقًا ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

قال الشارح رحمه الله تعالى: قلت: لكن التوكل على [غير] الله قسمان: أحدهما التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات، والطواغيت في

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

رجاء مطالبهم من نصر، أو حفظ أو رزق أو شفاعة. فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر، والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وُكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على المسبب الذي أوجد السبب والمسبب.

قال: (وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآيات [الأنفال: ٢-٤].

قال ابن عباس في الآية: «المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين» ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ فأدوا فرائضه»[(١)] رواه ابن جرير وابن أبي حاتم، ووجَلُ القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه: قال السدي: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هو الرجل يريد أن يظلم؛ أو قال: يَهِمّ بمعصية، فيقال له: اتقِ الله، فيجل قلبه[(٢)]. رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ استدل الصحابة رضي الله عنهم، والتابعون، ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي: «إن الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا فذلك نقصانه». رواه ابن سعد.

وقال مجاهد: «الإيمان يزيد وينقص وهو قول وعمل». رواه ابن أبي حاتم.

وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبو عبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قوله: (وعلى ربهم يتوكلون) أي: يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوضين إليه أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، يعلمون أن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده، لا شريك له. وفي الآية وصف

---

(١) تمامه عند ابن جرير: «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا. يقول: تصديقًا. وعلى ربهم يتوكلون. يقول لا يرجون غيره».

(٢) عند ابن جرير: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية، أحسبه قال: فينزع عنه.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

المؤمنين حقًّا لثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان وحصول أعماله الباطنة والظاهرة. مثال ذلك الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال: وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قال ابن القيم رحمه الله: أي الله وحده كافيك وكافي أتباعك: فلا تحتاجون معه إلى أحد، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقيل: المعنى حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم رحمه الله: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده كالتوكل والتقوى والعبادة. قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢] ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده؛ وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوا بالحسب، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله، ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]. فتأمل كيف جعل الإتياء لله والرسول، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله؛ بل جعله خالص حقه؛ كما قال: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فجعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. انتهى.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، فإذا كان هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكَلَه الله إلى من التفت إليه، كما في الحديث «مَنْ تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه».

قال: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾) [الطلاق: ٣].

قال ابن القيم رحمه الله وغيره: أي كافيه، ومن كان الله كافيه، وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذًى لا بد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه فلا يكون أبدًا، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه؛ وبين الضرر الذي يتشفى به منه. قال بعض السلف: جعل الله لكل

وعن ابن عباس قال: «حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ، قالَها إبْراهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ في النَّارِ، وقالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ رَواهُ البُخاري والنّسائِي».

عمل جزاء من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافِيَ عبدِه المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السمٰوات والأرض ومَنْ فيهن، لجعلَ الله مخرجًا وكفاه رزقه ونصره. انتهى.

وفي أثرٍ رواه أحمد في الزهد عن وهب بن منبه قال: «قال الله عز وجل في بعض كتبه: بعزتي إنه من اعتصم بي فكادته السمٰوات بمن فيهن، والأرضون بمن فيهن؛ فإني أجعل له من ذلك مخرجًا، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء ثم أكِلُه إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلًا، إذا كان عبدي في طاعتي، أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي نرفق به منه».

وفي الآية: دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه، لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حَسْبًا له.

وفيها: تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تعالى ذكر التقوى ثم ذكر التوكل؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١] فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوبًا بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجز ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه.

قال: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار؛ وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. رواه البخاري.

قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا. فلا نتوكل إلا عليه. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؟ [الزمر: ٣٦].

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ أي: نعم الموكول إليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] مخصوص «نعم» محذوف تقديره «هو».

فيه مسائل:

الأولى: إن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عِظم شأن هذه الكلمة: أنها قول إبراهيم ومحمد ﷺ في الشدائد.

قال ابن القيم رحمه الله: هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمِّن خوفَ الخائف، ويُجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه؛ وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه، وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه، أمّنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: (قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار) قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٠].

قوله: (وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أحد: «بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكرة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكبًا حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان، فرجع إلى مكة بمن معه، ومَرّ به ركب من عبدالقيس فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: فهل أنتم مبلغون محمدًا عني رسالة؟ قالوا: نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد؛ فأخبروه بالذي قال أبو سفيان. فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل». ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد. وجاء في الحديث: «إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل».

* * *

٣٣ - باب

قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾) [الأعراف: ٩٩].

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب. وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩] أي: الهالكون، وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنِّعَم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

قال الحسن رحمه الله: «من وَسّع الله عليه فلم يَرَ أنه يمكر به فلا رأي له».

وقال قتادة: «بَغَتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قومًا قطُّ إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرّتهم، فلا تغتروا بالله».

وفي الحديث: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنما هو استدراج». رواه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: «من الأمن من مكر الله إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله المغفرة». رواه ابن أبي حاتم.

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: «يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر». وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه.

قال: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾) [الحجر: ٥٦]) القنوط: استبعاد الفرج، واليأس وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم، وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التي قبلها تنبيهًا على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته، بل يكون خائفًا راجيًا، يخاف ذنوبه ويعمل بطاعته، ويرجو

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الحجر: ٥٦].

رحمته، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان، ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفًا من الله تعالى وهربًا من عقابه؛ وطمعًا في المغفرة ورجاء لثوابه.

والمعنى: أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام، لما بَشّرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]. لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا ريب فيه، فإن الله إذا أراد شيئًا إنما يقول له كن فيكون: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي: من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم؛ لكنه - والله أعلم - قال ذلك على وجه التعجب.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون. كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ: سُئِلَ عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله؛ واليأس من رَوْح الله، والأمن من مكر الله»).

هذا الحديث رواه البزار، وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس، ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر، فقال ابن معين: ثقة. ولَيَّنه أبو حاتم، وقال ابن كثير: في إسناده نظر. والأشبه أن يكون موقوفًا.

قوله: (الشرك بالله) هو أكبر الكبائر، قال ابن القيم رحمه الله: الشرك بالله هَضْمٌ للربوبية وتَنقُّصٌ للإلهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى.

ولقد صدق ونصح. قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: (واليأس من روح الله) أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: (والأمن من مكر الله) أي من استدراجه للعبد وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك. وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْر الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة وهذه

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «سُئِلَ عَنِ الكَبائِرِ فَقالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ».

وعن ابن مسعود قال: «أَكْبَرُ الكَبائِرِ: الإشْراكُ باللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والقُنوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ». رواه عبد الرزاق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحِجْر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أو نفي الإيمان.

قلت: ومن برئ منه رسول الله ﷺ، أو قال: «ليس منا من فعل كذا وكذا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار».

قوله: (وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر الإشراك بالله، والأمن من مكر الله؛ والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله». رواه عبدالرزاق).

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله: (أكبر الكبائر الإشراك بالله) أي في ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإجماع قوله: (والقنوط من رحمة الله) قال أبو السعادات: هو أشد اليأس.

وفيه التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله. وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة: الخوف؛ وفي المرض: الرجاء. وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره. قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف؛ فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ [النور: ٣٧] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠، ٦١] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] الآية. قدّم الحذر على الرجاء في هذه الآية.

٣٤ - باب
من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

***

قوله: (باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله).

قال الإمام أحمد: ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعًا من كتابه، وفي الحديث الصحيح: «الصبر ضياء» رواه أحمد، ومسلم، وللبخاري ومسلم مرفوعًا: «ما أُعطِيَ أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر» قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر» رواه البخاري. قال علي رضي الله عنه: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته - فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له».

واشتقاقه: من صبر إذا حبس ومنع، والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب ونحوهما. ذكره ابن القيم رحمه الله.

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدّره من المصائب.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾) [التغابن: ١١].

وأول الآية: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ أي: بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ○ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ○ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

قوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ قال ابن عباس في قوله: (إلا بإذن الله) «إلا بأمر الله» يعني: عن قدره ومشيئته: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ أي: من أصابته مصيبة، فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدًى في قلبه، ويقينًا صادقًا، وقد يخلف [الله] عليه ما كان أخذ منه [أو خيرًا منه].

قوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قوله: (قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسَلِّم).

قال علقمة: «هُوَ الرجُلُ تُصيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعْلَمَ أَنَّها مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى ويَسْلَمُ».

وفي صحيح مسلم: عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثْنَتانِ في النَّاسِ هُما بِهِمْ كفرٌ: الطَّعْنُ في النَّسَبِ، والنِّياحَةُ عَلى المَيتِ».

هذا الأثر رواه ابن جرير، وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم. وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم مات بعد الستين.

قوله: (هو الرجل تصيبه المصيبة) إلخ. هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان، قال: كنا عند علقمة فقرئ عليه هذه الآية: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. هذا سياق ابن جرير. وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان. قال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني يسترجع. يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وفي الآية بيان أن الصبر سبب لهداية القلب، وأنها من ثواب الصابرين.

قوله: (وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»).

أي: هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى ورزقه علمًا وإيمانًا يستضيء به. لكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافرًا كالكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان، يصير مؤمنًا الإيمان المطلق، وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»[1] وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: (الطعن في النسب) أي عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: (والنياحة على الميت) أي: رفع الصوت بالندب وتعداد فضائل الميت، لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك، وفيه دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

قوله: (ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود؛ وشق الجيوب؛ ودعا بدعوى الجاهلية»).

هذا من نصوص الوعيد؛ وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها ليكون أوقع

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن جابر بن عبدالله بألفاظ متقاربة.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعا بِدَعْوى الجاهِلِيَّةِ».

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إِذا أَرادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقوبَةَ في

في النفوس؛ وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: (من ضرب الخدود) وقال الحافظ: خُصَّ الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قوله: (وشق الجيوب) هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزنًا على الميت.

قوله: (ودعا بدعوى الجاهلية) قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هو ندب الميت. وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور، وقال ابن القيم رحمه الله: الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك ويوالي عليه ويعادي، فكل هذا من دعوى الجاهلية.

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أُمامة: «أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقّة جيبها، والداعية بالويل والثبور».

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر؛ وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا وليس على وجه النوح والتسخط نص عليه أحمد رحمه الله، لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما عندما توفي رسول الله ﷺ.

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء، لما في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «تدمع العين ويحزن القلب؛ ولا نقول إلا ما يُرْضي الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون»[١] وفي الصحيحين عن أُسامة بن زيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته[٢] ولها صبي في الموت، فرُفع إليه ونفسه تَقَعقَع كأنها شَنّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يارسول الله؟ قال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء».

قوله: (وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة»).

هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم، وحسنه الترمذي. وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبدالله بن مغفل. وأخرجه ابن عَدي عن أبي هريرة. والطبراني عن عمار بن ياسر.

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) هي زينب، كما في صحيح البخاري.

الدُّنْيا وإذا أرادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتّى يُوافي بِهِ يَوْمَ القِيامَةِ».

وقال ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وإنَّ اللهَ تَعالى إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ. فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخْطُ». حسَّنه الترمذي.

قوله: («إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا») أي: يصب عليه البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: المصائب نعمة، لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها، وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له؛ والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة، فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا، وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك فيكون شرًّا عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتُلي بفقر، أو مرض، أو وجع حصل له من النفاق، والجزع، ومرض القلب، والكفر الظاهر. وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيرًا له من جهة ما أورثته المصيبة لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبرًا وطاعة؛ كانت في حقه نعمة دينه؛ فهي بعينها فعل الرب عز وجل ورحمة للخلق والله تعالى محمود عليها؛ فمن ابتلي فرزق الصبر كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعد ما كفّر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه على ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصًا.

قوله: («وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه») أي: أَخَرَّ عنه العقوبة بذنبه: «حتى يُوافِي به يوم القيامة» وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوبًا بحتى مبنيًّا للفاعل.

قال العزيزي: أي: لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب، وهذه الجملة هي آخر الحديث. فأما قوله: (وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء») إلى آخره، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

قوله: (وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط». حسنه الترمذي).

. . . .

قال الترمذي: حدثنا قتيبة حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد بن سنان، عن أنس، فذكر الحديث السابق ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن عظم الجزاء - الحديث» ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ورواه ابن ماجه. وروى الإمام أحمد عن محمود بن لَبيد رفعه: «إذا أحب الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع» قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: («إن عظم الجزاء») بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع سكون الظاء. أي من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا؛ ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سببًا لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار. فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: («وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم») ولهذا ورد في حديث سعد: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة» رواه الدارمي، وابن ماجه، والترمذي، وصححه.

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا دفعًا، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة، وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: («فمن رضي فله الرضاء») أي: من الله تعالى؛ والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواقع من كتابه كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل: فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسَلِمَ من كل شر، والرضا هو أن يُسْلِم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه؛ وقد يجد لذلك راحة وانبساطًا؛ محبة لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا؛ وجعل الهَمَّ والحزن في الشك والسخط.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

قوله: («ومن سخط») وهو بكسر الخاء، قال أبو السعادات: السخط الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي: من سخط على الله فيما دبره فله السخط؛ أي: من الله، وكفى بذلك عقوبة. وقد يستدل به على وجوب الرضا وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يَجِىءِ الأمر به كما جاء الأمر بالصبر، وإنما جاء الثناء على أصحابه. قال: وأما ما يروى: (من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ ربًّا سوائي) فهذا إسرائيلي لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك - أي من الرضا - أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها. اهـ والله أعلم.

* * *

٣٥ - باب
ما جاء في الرياء

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: (باب ما جاء في الرياء).

أي: من النهي والتحذير. قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية، والمراد به إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها، والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يُرى من العمل كالصلاة. والسمعة لما يُسمع كالقراءة والوعظ والذكر، ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إليّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخافه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ قوله: ﴿أَحَدًۢا﴾ نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: أما اللقاء فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة، وذكر الأدلة على ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية: أي: كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيدُ بالسنة.

وفي الآية دليل على: أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلهيته؛ ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد: أهو حق أم يجوز أن يجعل لله شريكٌ في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم مَنْ قَبلهم؛ لما اشتدت غُرْبَةُ الدين ونُسي العلم بدين المرسلين.

وعن أبي هريرة مرفوعًا: «قالَ اللهُ تَعالى: أَنا أَغْنَى الشُّرَكاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْري تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ». رواه مسلم.

قوله: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك. من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» (رواه مسلم).

قوله: («من عمل عملًا أشرك فيه غيري») أي: من قصد بعمله غيري من المخلوقين تركته وشركه. ولابن ماجه: «فأنا بريء وهو الذي أشرك» قال الطيبي: الضمير المنصوب في قوله: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل.

قال ابن رجب رحمه الله[1]: واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضًا كحال المنافقين: كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢] وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط؛ وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه وذكر أحاديث تدل على ذلك منها: هذا الحديث وحديث شَدّاد بن أوس مرفوعًا: «من صلى يُرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وإن الله عز وجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، فمن أشرك بي شيئًا فإن جِدة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به، أنا عنه غني» رواه أحمد، وذكر أحاديث في المعنى ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلًا نية غير الرياء؛ مثل أخذ أجرة الخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة نقص بذلك أجر جهاده ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رحمه الله: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم؛ ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله ولا يخلط به غيره.

وقال أيضًا فيمن يأخذ جُعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس كأنه خرج لدينه إن أُعطي شيئًا أخذه. وروي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوضه الله رزقًا فلا بأس بذلك، وأما إن أحدكم أُعطي دراهم غزا وإن لم يعط لم يغز فلا خير في ذلك». وروي عن مجاهد رحمه الله: أنه قال في حج الجمّال وحج الأجير، وحج التاجر: «هو تام لا ينقص من أجرهم شيء» أي: لأن قصدهم الأصلي كان هو

---

(١) في شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات» من جامع العلوم والحكم.

وعن أبي سعيد مرفوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِما هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدي مِنَ المَسيحِ الدَّجَّالِ؟ قالوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ. قالَ: الشِّرْكُ الخَفِيُّ: يَقومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّن صَلَاتَهُ لِمَا يَرى مِنْ نَظَرِ رَجلٍ». رواه أحمد.

الحج دون التكسب. قال: وأما إن كان أصل العمل لله ثم طرأ عليه نية الرياء؛ فإن كان خاطرًا ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأن يُجازَى بنيته الأولى؛ وهو مروي عن الحسن وغيره. وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذرّ عن النبي ﷺ: أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: «تلك عاجل بُشرى المؤمن». رواه مسلم. انتهى ملخصًا.

قلت: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

قوله: (وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يَرى من نظر رجل» رواه أحمد).

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن محمود بن لَبِيد قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس؛ إيّاكم وشرِك السرائر، قالوا: يارسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه فذلك شِرْك السرائر».

قوله: (عن أبي سعيد الخدري) وتقدم.

قوله: (الشرك الخفي) سماه خفيًّا لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله، وعن شداد بن أوس قال: «كنا نعدُّ الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر». رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص؛ وابن جرير في التهذيب والطبراني والحاكم وصححه.

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: ماشاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركًا أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى.

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة، كما قال الفضيل ابن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: «أخلصه وأصوبه، قيل: ياأبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا؛

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب، أنه تعالى خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسبر ذلك بأن يصلي المرء لله لكن يُزَيّنها لما يرى من نظر رجل إليه.

فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة».

وفي الحديث من الفوائد: شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال، فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك أصغره وأكبره.

❊ ❊ ❊

٣٦ - باب
من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

قوله: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء؛ فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين. وهو أيضًا إرادة للدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام، ويفارقه الرياء بكونه عمل عملًا صالحًا، أراد به عرضًا من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالًا، كما في الحديث «تعِس عبدُ الدينار» أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله، وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذرًا من هذا وهذا.

قال: (وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ثوابها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي: مالها. ﴿نُوَفِّ﴾ أي: نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون، ثم نسختها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] الآيتين. رواه النحاس في ناسخه.

---

(١) من العجيب جدًّا دعوى النسخ(*). فإن الآيتين في معنى واحد. وتفسير النسخ بتقييد مطلقها - يعني بالمشيئة - كذلك غير واضح، والظاهر أنها لا تثبت رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(*) قوله (من العجيب جدًّا دعوى النسخ) إلخ. أقول ليس في ذلك ما يتعجّب منه لأن معنى النسخ عند السلف أوسع من معناه

. . . .

قوله: (ثم نسختها) أي: قيدتها. فلم تبق الآية على إطلاقها[١].

وقال قتادة: «من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء، وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة» ذكره ابن جرير بسنده، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حَيوة ابن شريح قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عُقبة بن مسلم حدثه أن شُفيّ بن ماتع الأصبحي حدثه: «أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبو هريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه؛ وهو يحدث الناس. فلما سكت وخلا قلت: أنْشُدك بحق وبحقٍّ لما حدثتني حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ عَقَلتَه وعلمته. قال: فقال أبو هريرة: أفعل، لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت، ما فيه أحد غيري وغيره ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغَة[٢]؛ ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثًا حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره. ثم نَشَغ أبو هريرة نَشْغة أخرى، ثم مال خارًّا على وجهه؛ واشتد به طويلًا. ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى [أهل] القيامة ليقضي بينهم؛ وكلُّ أُمّةٍ جاثية. فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قُتل في سبيل الله؛ ورجل كثير المال. فيقول الله تبارك وتعالى للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى يارب. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسّع عليك حتى لم أدَعْك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت؛ وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جواد؛ فقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قُتِلَ في سبيل الله فيقال له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أُمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قُتِلتَ، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جريء وقد قيل ذلك. ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: ياأبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله

عند الفقهاء لأن السلف يطلقون النسخ على تقييد المطلق وتخصيص العام لكونهما غير المعنى المفهوم من النص المطلق والنص العام، ومعلوم أن آية هود مطلقة ظاهرها أن مريد الدنيا بأعماله يعطى مراده، وآية الإسراء بينت أنه لا يعطى من ذلك إلا ما شاء الله وأن ذلك أيضًا لا يحصل إلا لمن أراده الله، فاتضح من ذلك أن طالب الدنيا بأعماله قد يعطي مراده إذا شاء الله ذلك، وقد يعمل ولا يحصل له ما أراد لأن الله سبحانه لم يشأ ذلك، وهذا واضح جدًّا، والله أعلم.

(١) نشغ بفتح النون والشين المعجمة وبعدها غين معجمة؛ أي شهق حتى كاد يغشى عليه أسفًا وخوفًا.

(٢) تمام الحديث عن ابن جرير وغيره «قال أبو عثمان الوليد: فأخبرني عقبة أن شفيا هو الذي دخل على معاوية فأخبره بهذا.

. . . .

تسعّر بهم النار يوم القيامة»[١].

وقد سُئِلَ شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواع مما يفعله الناس اليوم ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصًا لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعم عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف؛ وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه: وهو أن يعمل أعمالًا صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالًا صالحة يقصد بها مالًا، مثل أن يحج لمال يأخذه [لا، لله] أو يهاجر لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضًا هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما تعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيرًا.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصًا في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفّره كفرًا يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله؛ أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية؛ إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة؟ لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم؛ فهذا النوع أيضًا قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره؛ وكان السلف يخافون منها؛ قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالبًا ثواب الآخرة؛ ثم بعد ذلك عمل أعمالًا قاصدًا بها الدنيا، مثل أن يحج

قال أبو عثمان وحدثني العلاء بن أبي حكيم: أنه كان سيافًا لمعاوية قال: فدخل عليه رجل فحدثه بهذا عن أبي هريرة، فقال معاوية: وقد فعل بهؤلاء هذا؟ فكيف بمن بقي من الناس؟ ثم بكي معاوية بكاء شديدًا حتى ظننا أنه هلك، وقلنا: قد جاء هذا الرجل بشر، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه فقال: صدق الله ورسوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ○ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾» [هود: ١٥، ١٦] قال المنذري: ورواه ابن خزيمة في صحيحه.

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتُكِسَ، وإذا شِيكَ فَلَا انْتُقِشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنانِ فَرَسِهِ

فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما. وقد قال بعضهم: القرآن كثيرًا ما يذكر أهل الجنة الخلّص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله. اهـ.

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تَعِس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخَميصة، تعس عبدالخَميلة، إن أُعطي رضي وإن لم يُعط سخط، تعس وانتُكس، وإذا شيك فلا انتُقِش. طُوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه؛ مُغَبّرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة. إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفع لم يشفع»).

قوله (في الصحيح) أي صحيح البخاري.

قوله (تعس) هو بكسر العين ويجوز الفتح، أي سقط، والمراد هنا هلك. قاله الحافظ، وقال في موضع آخر: وهو ضد سَعد. أي شقي. قال أبو السعادات. يقال: تعس يتعس إذا عَثَر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: (عبد الدينار) هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله: (تعس عبدالدرهم) وهو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزنًا، وعندنا منه درهم من ضرب بني أُمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخمس حبة، سماه عبدًا له، لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصده لغير الله، فقد جعله شريكًا له في عبوديته كما هو حال الأكثر.

قوله: (تعس عبدالخميصة) قال أبو السعادات: هي ثوب خَزٍّ أو صوف معلّم، وقيل لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء مُعلّمة؛ وتُجمع على خمائص، والخميلة بفتح الخاء المعجمة. وقال أبو السعادات: ذات الخمل، ثياب لها خَمَل من أي شيء كان.

قوله: (تعس وانتكس) قال الحافظ: هو بالمهملة، أي عاوده المرض. وقال أبو السعادات: أي انقلب على رأسه. وهو دعاء عليه بالخيبة. قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه، لأنه إذا تعس انكبّ على وجهه، وإذا انْتُكس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: (وإذا شيك) أي: أصابته شوكة (فلا انتقش) أي: فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش قاله أبو السعادات.

والمراد أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما يسوؤه في العواقب، ومن

. . . .

كانت هذه حاله فلا بد أن يجد أثر هذه الدعوات من الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل أخراه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فَسمَّاه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم وعبد القطيفة وعبدالخميصة. وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر وهو قوله: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه لم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال. وقد وصف ذلك بأنه: «إن أُعطي رضي، وإن مُنعَ سَخِط» كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاؤهم لغير الله؛ وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقا منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له، إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رِقُّ القلب وعبوديته، فما استرقَّ القلب واستعبده فهو عبده - إلى أن قال:

وهكذا أيضًا طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه وهذه الأمور نوعان: فمنها ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك؛ فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه من غير أن يستعبده فيكون هلوعًا.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي ألا يعلق قلبه بها؛ فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبدًا لها، وربما صار مستعبدًا ومعتمدًا على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدينار؛ تعس عبد الدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبد الخميلة» وهذا هو عبد لهذه الأمور ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضي الله ويسخطه ما يسخط الله ويُحبُّ ما أحبه الله ورسوله ويبغض ما أبغض الله ورسوله؛ ويوالي أولياء الله ويعادي أعداء الله فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصًا.

قوله: (طوبى لعبد) قال أبو السعادات: «طوبى» اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها، ويؤيد هذا ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال: «قال رجل: يارسول الله، وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبد الله ابن لهيعة حدثنا دَرَاج أبو السمح أن أبا

(١) ابن لهيعة وأبو الهيثم ضعيفان. كما صرح بذلك الإمامان أحمد وأبو داود. وقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن

. . . .

الهيثم[١] حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ: «إن رجلًا قال: يارسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك؛ قال: طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني. قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وله شواهد في الصحيحين وغيرهما. وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثرًا غريبًا عجيبًا. قال وهب رحمه الله: «إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام ولا يقطعها: زَهْرها رياط، وورقها برود[٢] وقضبانها عَنْبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووَحْلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة؛ فبينما هم في مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُبًا مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، ووبَرها كخزِّ المرعزي من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس وإستبرق؛ فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، قال: فهي أسرع من الطائر؛ وأوطأ من الفراش. خبًا من غير مِهنة، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أُذن راحلة منها أذن صاحبتها، ولا بَرك راحلة برك صاحبتها، حتى إن الشجرة لتتنحي عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهمَّ أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك، أنا السلام ومني السلام وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري. قال فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فَأْذَنْ لنا بالسجود قدامك. قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلوني ما شئتم، بأن لكل رجل منكم أمنيته: فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: ربي، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني من كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قَصّرت بك اليوم أمنيتك. ولقد سألت دون منزلتك. هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي لأنه ليس في عطائي نكدٌ ولا قِصَر يَدٍ. قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال. قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر

سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

(١) الرياط: جمع ريطة - بفتح الراء المهملة - ثوب كالملاءة. قيل: كل ثوب رقيق لين. والبرد: كالعباءة*.

قوله: (والبرد كالعباءة) فيه نظر، والصواب أن البرد لا يشبه العباءة بل هو نوع آخر، قال في القاموس ما نصه: (البرد بالضم ثوب مخطط جمعه أبراد وبرود، وأكسية يلتحف بها الواحدة بالهاء) انتهى.

(٢) في ابن جرير «حتى يقضوهم أمانيهم» وفي ابن كثير «حتى تقصر به أمانيهم».

. . . .

بهم أمانيهم[١] التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقرّنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة. على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة، في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة. في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهم ثوبان من ثياب الجنة. وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيب إلا قد عَبَق بهما، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة. حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء. يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل. ويرى لهما مثل ذلك. ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفًّا في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أُعِدَّت له».

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد: «فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم؛ فإذا بقباب في الرفيق الأعلى؛ وغرف مبنية بالدر والمرجان، أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت، فرشها من سندس وإستبرق ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها. فلولا أنه مُسَخّر إذن لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مُبَوّبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشرفُها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح؛ تحتها الولدان المخلدون، بيد كل وليد منهم حَكمة برذون من تلك البراذين ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم، فينظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعودًا على منابر من نور؛ ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيا جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان؛ وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تبوؤوا منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: (هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا؟ قالوا: نعم وربِّنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربّنا رضينا فارضَ عنا، قال: فبرضائي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلى وجهي، فعند ذلك قالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

فِي سَبِيلِ اللهِ أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَماهُ. إِنْ كانَ فِي الحِراسَةِ كانَ في الحِراسَةِ. وإِنْ كانَ في السَّاقَةِ كانَ في السَّاقَة. إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ. وإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

---

o ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥] وهذا سياق غريب وأثر عجيب ولبعضه شواهد في الصحيحين[1].

وقال خالد بن مَعدان: «إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، ضُروع كلها، ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سَقْط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة» رواه ابن أبي حاتم.

قوله: (آخذ بعنان فرسه في سبيل الله) أي: في جهاد المشركين.

قوله: (أشعث) مجرور بالفتحة، لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن الفعل، و(رأسه) مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شَغَله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالادهان وتسريح الشعر.

قوله: (مغبرة قدماه) هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: (إن كان في الحراسة) هو بكسر الحاء أي حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: (كان في الحراسة) أي غير مقصر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: (وإن كان في الساقة كان في الساقة) أي في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلًا أو نهارًا، رغبة في ثواب الله وطلبًا لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى ائتماره بما أمر؛ وإقامته حيث أقيم. لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة. انتهى. وفيه فضل الحراسة في سبيل الله.

---

(١) قال هذا الحافظ ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] وقال فيه ابن كثير: إنه سياق غريب وأثر عجيب اهـ. وظاهر عليه صبغة الإسرائيليات الملفقة. وكم لوهب بن منبه وكعب الأحبار من هذه الخرافات والآثار السخيفة التي تمجها الفطر السليمة وقد فتن الناس بهذه الإسرائيليات وفسدت بها عقائد كثير منهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطيَ رضيَ، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله «تَعِسَ وانتكس».

قوله: (إن استأذن لم يؤذن له) أي إن استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له، لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة، لأنه ليس من طلابها؛ وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله: (وإن شفع) بفتح أوله وثانيه قوله: (لم يشفّع) بفتح الفاء مشددة. يعني لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعًا: «رُبّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبَرّه».

وروى الإمام أحمد أيضًا عن مصعب بن ثابت بن عبد الله بن الزبير قال: قال عثمان رضي الله عنه وهو يخطب على منبره: إني مُحدثكم حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ، لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الضن بكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حرسُ ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها».

وروى الحافظ ابن عساكر - في ترجمة عبد الله بن المبارك - قال عبدالله بن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سُكينة أنه أملى عليه عبدالله بن المبارك هذه الأبيات بطَرْسوس وواعده الخروج. وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. وقال:

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا	لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه	فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل	فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا	وَهَج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا	قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في	أنف امرئ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا	ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام فلما قرأه ذرفت عيناه فقال: صدق أبو عبدالرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم، قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملى عليّ الفضيلُ بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رجلًا قال: يارسول الله علمني عملًا أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله؛ فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر، وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يارسول الله أنا أضعف من

السادسة: قوله «وإذا شيك فلا انتقش».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طُوِّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد لَيسْتَنُّ في طِوَله فيكتب له بذلك حسنات»[١].

* * *

(١) روى البخاري حديث سؤال الرجل هذا عن أبي هريرة. وفيه: فقال أبو هريرة: «فإن فرس المجاهد ليستن يمرح في طوله فليكتب له حسنات» والطول: الحبل. والاستنان: العدو، وروى مسلم مثله قريبًا منه في فضل الجهاد في سبيل الله.

٣٧ - باب
من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

وقال ابن عباس: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُم حِجارَةٌ مِنَ السَّماءِ، أَقولُ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وتَقولونَ: قالَ أَبو بَكْر وعُمَرُ؟».

قوله: (باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله؛ فقد اتخذهم أربابًا من دون الله).

لقول الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وتقدم تفسير هذا في أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

قوله: (وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء. أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر»).

قوله: (يوشك) بضم أوله وكسر الشين المعجمة أي: يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال له: إن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل، أو ما هو معنى هذا؛ وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حلَّ من عمرته شاء أم أبى» لحديث سُراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويُحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة: يارسول الله ألعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: «بل للأبد» والحديث في الصحيحين، وحينئذ فلا عذر لمن استفتي أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وللبخاري ومسلم وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت»[١] هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله

---

(١) قال ذلك حين أمرهم في حجة الوداع أن يفسخوا حجهم إلى العمرة، ليكونوا متمتعين. ووجدوا في أنفسهم من ذلك لقرب ذهابهم إلى منى، وقصر المدة التي يقيمونها في مكة متمتعين بنسائهم حتى قالوا: نذهب إلى منى ومذاكيرنا تقطر منيًّا. انظر

وقال الإمام أحمد: عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحتَه، ويذهبون إلى رأي سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

عنها. ولفظه في حديث جابر: «افعلوا ما أمرتكم به فلولا أني سُقتُ الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم» في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء» الحديث.

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ.

وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

وما زال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما في الحديث[1]، لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك فحينئذ يسوغ للإمام أن يجتهد. وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللُّقى والسماع؛ ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين، ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث ورووها بأسانيدها، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها، والفقهاء صنفوا في كل مذهب؛ وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم، وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده، وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من يبلغه الدليل فلم يأخذ به - تقليدًا لإمامه - فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمرو البزاز، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبو عبيدة الحداد عن مالك بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال: «ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ».

وعلى هذا فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء كائنًا من كان، ونص الأئمة على هذا؛ وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة فيجب الرد عليه كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه، كما تقدم في كلام الشافعي رحمه الله تعالى.

قوله: (وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان

زاد المعاد في حجة الرسول ﷺ.

(١) «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر».

أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]. أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبو طالب. قال الفضل عن أحمد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية فذكر من قوله: الفتنة: الشرك إلى قوله فيهلك. ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال أبو طالب عن أحمد وقيل له: إن قومًا يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره؛ فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧] فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي. ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

قوله: (عرفوا الإسناد) أي إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري الإمام الزاهد العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمهم الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كالتمهيد لابن عبدالبر، والاستذكار له، وكتاب الإشراف على مذاهب الأشراف لابن المنذر، والمحلى لابن حزم، والمغني لأبي محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة الحنبلي. وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه الله: (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته) إلخ إنكار منه لذلك. وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافرًا. وقد عمت البلوى بهذا المنكر خصوصًا ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا الناس عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه؛ فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد.

والاجتهاد قد انقطع[1] ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه؛

---

(١) في قرة العيون: وقد أخطأوا في ذلك. وقد استدل الإمام أحمد رحمه الله بقوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق

. . . .

ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى؛ والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه، ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله. فالواجب على كل مكلف إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضًا أبو عمر بن عبدالبر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة؛ ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم. كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذمن، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفها لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما ينشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله، والإقبال على كتب من تأخروا، والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم، فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لا بد أن يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم؛ فالمصنف جعل النظر في كلامهم وتأمله، طريقًا إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهنًا وتمييزًا للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه، والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفي السنة كذلك، كما أخرج أبو داود بسنده عن أُناس من أصحاب معاذ أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذًا إلى اليمن قال: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟» قال: أقضي بكتاب الله تعالى، قال: «فإن لم تجد في كتاب الله؟» قال: فبسنة رسول الله ﷺ قال: «فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟» قال: أجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله» وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أُناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ

منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك» أن الاجتهاد لا ينقطع.

. . . .

لما بعثه إلى اليمن - بمعناه.

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئًا لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال.

وقال: إذا قلت قولًا وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ. وقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ، فخذوا سُنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديث بما يخالف قولي، فاضربوا بقولي الحائط.

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا، ولو استقصينا كلام العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى[1].

قوله: (لعله إذا رد بعض قوله) أي قول الرسول ﷺ: (أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور: ٦٣] فإذا كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك؛ أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضيًا إلى الكفر والعذاب الأليم، ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الآمر؛ كما فعل إبليس لعنة الله تعالى عليه. اهـ.

وقال أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ قال: يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه.

---

(١) في قرة العيون: فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال المخالفين وما استدلوا به، فيكون مُتبعًا للدليل مع من كان معه. وبالله التوفيق.

عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

قال أبو جعفر بن جرير: أدخلت ﴿عَنْ﴾ لأن معنى الكلام فليحذر الذين يلوذون عن أمره ويدبرون عنه معرضين.

قوله: (أو يصيبهم) في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

قوله: (عن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ - الآية [التوبة: ٣١] فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟» فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه).

هذا الحديث قد روي من طرق؛ فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي.

قوله: (عن عدي بن حاتم) أي الطائي المشهور. وحاتم هو ابن عبد الله بن سعد بن الحشرج - بفتح الحاء المهملة - المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة. فأسلم وعاش مائة وعشرين سنة.

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] وهذا قد وقع فيه كثير من الناس مع أنهم قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلَّد وهو من هذا الشرك. ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يُكره، أو يُحرم؛ فعظمت الفتنة، ويقول: هم أعلم منا بالأدلة. ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل؛ ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل.

فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله فقد عمت بها البلوى قديمًا وحديثًا في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرّا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ

فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أَلَيْسَ يحرِّمونَ ما أَحَلَّ اللهُ، فَتحرِّمونَهُ ويُحِلُّونَ ما حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ: بَلى. قالَ: «فَتِلْكَ عِبادَتهُمْ». رواه أحمد والترمذي وحسنه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين. وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حُدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: «هل تعرف ما يهدمُ الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زَلّة العالم؛ وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين» رواه الدارمي.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق، وبه يعدلون.

* * *

٣٨ - باب

قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ

باب (قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾) الآيات [النساء: ٦٠].

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب. والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل؛ وهو المراد بالطاغوت ههنا.

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله في حده للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به؛ فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومن كان يحكم بهما، فمن تحاكم إلى غيرهما فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ وأنزله منزلة لا يستحقها، وكذلك من عبد شيئًا دون الله فإنما عبد الطاغوت؛ فإن كان المعبود صالحًا صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۝ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ۝ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠] وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا أو غير ذلك مما يتخذه المشركون لهم أصنامًا على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن يكفروا بعبادته، ويتبرؤوا منه؛ ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزيّنه لمن فعله؛ وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله. فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت ما عُبد من دون الله.

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه،

ﮋضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًاﮊ [النساء: ٦٠-٦٢].

وجعل لله شريكًا في الطاعة وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﮋوَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَﮊ [المائدة: ٤٩] وقوله تعالى: ﮋفَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًاﮊ [النساء: ٦٥] فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله؛ أو طلب ذلك اتباعًا لما يهواه ويريده فقد خلع رِبْقة الإسلام والإيمان من عنقه، وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: ﮋيَزْعُمُونَﮊ من نفي إيمانهم، فإن ﮋيَزْعُمُونَﮊ إنما يقال غالبًا لمن ادعى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها وعمله بما ينافيها، يحقق هذا قوله: ﮋوَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦﮊ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحدًا. والتوحيد: هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه. كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﮋفَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰﮊ الآية [البقرة: ٢٥٦] وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

وقوله: ﮋوَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًاﮊ يبين تعالى في هذه الآية أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله؛ وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد. فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي هذه الآية أربعة أمور: الأول: أنه من إرادة الشيطان: الثاني: أنه ضلال. الثالث: تأكيده بالمصدر. الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله ما أعظم هذا القرآن! وما أبلغه! وما أدله على أنه كلام رب العالمين! أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليهما.

قوله: ﮋوَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًاﮊ بيّن تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد عن الإيمان.

قال العلّامة ابن القيم رحمه الله تعالى: هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين.

قوله: ﮋيَصُدُّونَﮊ لازم وهو بمعنى يعرضون. لأن مصدره: ﮋصُدُودًاﮊ فما أكثر من اتصف بهذا الوصف! خصوصًا ممن يدعي العلم، فإنهم صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريبًا، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١] قال أبو العالية في الآية: يعني لا تعصوا في الأرض، لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض، لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله، وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ - إلى قوله - ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٠-٧٣] فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين وهو من الفساد في الأرض.

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى، وفيها التحذير من الاغترار بالرأي ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذ جاءه! وهذا من الفساد في الأرض ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة، تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله ومنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلًا كاملًا عند ورود الشهوات؛ وبصرًا نافذًا عند ورود الشبهات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦] قال أبو بكر بن عياش في الآية: إن الله بعث محمدًا ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

غير طاعة الله بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ؛ هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود المطاع؛ والدعوة له لا لغيره؛ والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة. ومن تدبّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شرّ في العالم وفتنة، وبلاء وقحط، وتسليط عدو، وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله. اهـ.

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾) [المائدة: ٥٠].

قال ابن كثير رحمه الله: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيزخان الذي وضع لهم الياسق وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه، فصارت في بنيه شرعًا يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة، فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير[١].

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؟ استفهام إنكار، أي: لا حكم أحسن من حكمه تعالى. وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك؛ أي: ومن أعدل من الله حكمًا لمن عقل عن الله شرعه وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم

---

(١) ومثل هذا وشر منه من اتخذ من كلام الفرنجية قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصر عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله. ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكونَ هَواهُ تبعًا لِما جِئْت بِهِ» قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره؟.

وفي الآية؛ التحذير من حكم الجاهلية واختياره على حكم الله ورسوله؛ فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضده من الباطل.

قوله: (عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح كما قاله المصنف رحمه الله عن النووي. ورواه الطبراني وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في الأربعين التي شرط لها أن تكون من صحيح الأخبار، وشاهده في القرآن قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] ونحوه هذه الآيات.

قوله: (لا يؤمن أحدكم) أي: لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار، وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: (حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به). «الهوى» بالقصر، أي ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه، فإن كان الذي تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعًا لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يخالفه. فهذه صفة أهل الإيمان المطلق، وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»[1] يعني أنه بالمعصية ينتفي عنه كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته؛ فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به[2]. كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) في قرة العيون: وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر. وهذا هو الذي يذهب إليه أهل السنة والجماعة خلافًا

. . . .

رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها: أن الإيمان قول وعمل ونية يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ أكثر من أن تحصر، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبدالقيس: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله» الحديث، وهو في الصحيحين والسنن. والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ [المدثر: ٣١] الآية. وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة: ١٢٤] الآية. خلافًا لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ومن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة. ومن المعلوم عقلًا وشرعًا أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق وقول الحق تصديق وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة ولله الحمد والمنة. قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ - إلى قوله -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة، وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة، وقد سمى الله تعالى الهوى المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهًا، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] قال بعض المفسرين: لا يهوى شيئًا إلا ركبه.

قال ابن رجب رحمه الله: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمنًا كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به رسول الله ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها، فيحب ما أمر به ويكره ما نُهي عنه، وقد ورد القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله أو أحب ما كره الله كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨] فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه؛ فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلًا، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلًا. فمن أحب

للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يكفرون بالذنوب والمعتزلون لا يطلقون عليه الإيمان ويقولون بتخليده في النار، وكلتا الطائفتين ابتدع في الدين وترك ما دلَّ عليه الكتاب والسنة. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨] فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة، فقيد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة، فقد أخرج البخاري وغيره عن أنس عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير؛ ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير».

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد - لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة - وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود، لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جُهينة فيتحاكما إليه.

الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه ما يحبه الله ورسوله ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضي ما يرضى به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئًا يخالف ذلك؛ بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله وترك ما يحبه الله ورسوله مع وجوبه والقدرة عليه، دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت، فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله. وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠] وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع. ولهذا سمي أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وكذلك حب الأشخاص: الواجبُ فيه أن يكون تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة ما يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عمومًا؛ ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله[1] فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عمومًا، وبهذا يكون الدين كله لله. ومن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه كان ذلك نقصًا في إيمانه الواجب، فتجب التوبة من ذلك: انتهى ملخصًا.

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإرادتهم.

قوله: (وقال الشعبي) هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظًا علّامة ذا فنون. كان يقول: ما كتبت سوداء في بيضاء[2]، وأدرك خلقًا كثيرًا من الصحابة وعاش بضعًا وثمانين سنة. قاله الذهبي.

وفيما قال الشعبي ما يُبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى، ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان. كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة العدو على المسلمين. وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان: ومن تدبر ما في

---

(١) لما روى البخاري وغيره: «ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله. وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يقذف في النار».

(٢) لشدة حفظه واستغنائه به عن الكتابة.

فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

وقيل: نَزَلَتْ في رَجُلَيْنِ اخْتَصَما فَقالَ أَحَدُهُما: نَترافَعُ إلى النَّبِيِّ ﷺ، وقالَ الآخر: إِلى كَعبِ بْنِ الأَشْرَفِ ثُمَّ تَرافَعا إلى عُمَر، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُما القِصَّةَ، فَقالَ للَّذي لَمْ يَرضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَكَذٰلِكَ؟ قالَ: نَعَمْ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديمًا وحديثًا، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم؛ وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩] الآية وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له والإظهار لعدوانه فانتقض به عهده، وحلّ به قتله، وروى مسلم في صحيحه عن عمرو: سمعت جابرًا يقول: قال رسول الله ﷺ: «من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله»، قال محمد بن مسْلمة: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال «نعم» قال: ائذن لي فلأقلْ، قال: «قل»، فأتاه فقال له، وذكر ما بينهما وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنّانا، فلما سمعه قال: وأيضًا والله لتملُّنّه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، قال: وقد أردتُ أن تُسلفني سلفًا؛ قال: فما ترهنني؟ قال: ما تريد. قال: ترهنني نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم؟ قال: يُسبُّ ابن أحدنا فيقال: رُهن في وَسْقين من تمر، ولكن نرهنك اللأمة - يعني السلاح - قال: فنعم. وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عبس بن جبر وعباد بن بشر. قال: فجاؤوا فدعوه ليلًا فنزل إليهم قال سفيان قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني لأسمع صوتًا كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبو نائلة[1] إن الكريم لو دُعِي إلى طعنة ليلًا لأجاب، قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه؛ فإذا استمكنت منه فدونكم، قال فلما نزل، نزل وهو متوشح. فقالوا: نجد منك ريح الطيب؛ قال: نعم، تحتى فلانة أعطر نساء العرب، قال: أتأذن لي أن أَشُمّ منه؟ قال: نعم. فشم؛ فتناول فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟ قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم قال: فقتلوه».

وفي قصة عمر: بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قُتِلَ، كما في الصحيحين وغيرهما: «أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفًا للناس، فإنه قال: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه» فصلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) قال النووي: هكذا هو في جمع النسخ. قال القاضي رحمه الله: قال لنا شيخنا القاضي الشهيد: صوابه أن يُقال: إنما هو محمد ورضيعه أبو نائلة. وكذا ذكر أهل السير أن أبا نائلة كان رضيعًا لمحمد بن مسلمة. ووقع في صحيح البخاري «ورضيعي أبو نائلة».

٣٩ - باب

من جحد شيئًا من الأسماء والصفات: وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قوله: (باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات) - وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها، وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم: ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ عنادًا؛ وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠] «والرحمن» اسمه وصفته، دل هذا الاسم على أن الرحمة وصفه سبحانه؛ وهي من صفات الكمال، فإذا كان المشركون جحدوا اسمًا من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جَهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم. فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة. قال العلّامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان

واللالكائيّ الإمام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم؛ فقالوا: هذه الصفات هي صفات الأجسام. فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسمًا، هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه من صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات؛ فشبهوا أولًا وعطلوا ثانيًا. وشبهوه ثالثًا بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته، وهذه هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها، فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فأهل السنة يقولون ذلك ويثبتون ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ من صفات كماله ونعوت جلاله لا تشبه صفاته صفات خلقه؛ فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا، وأُولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، وتناقضوا. فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل ولله الحمد والمنة، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم

وفي صحيح البخاري قال علي: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِما يَعْرِفونَ، أَتُرِيدونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟».

وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت: كالإمام أحمد رحمه الله تعالى في رده المشهور، وكتاب السنة لابنه عبدالله، وصاحب الحيدة عبدالعزيز الكناني في رده على بشر المريسي، وكتاب السنة لأبي عبدالله المروزي، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد. وهو بشر المريسي، وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي؛ وكتاب السنة لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني الشافعي، وشيخ الإسلام الأنصاري؛ وأبي عمر بن عبدالبر النمري، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم؛ وأهل الحديث ومن متأخريهم أبو محمد عبدالله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى. فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهله مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء. والله أعلم.

قوله: (وفي صحيح البخاري عن علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذَّب الله ورسوله).

علي: هو أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول - والله أعلم - ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل[1]؛ فربما استنكرها بعض الناس وردها وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال والحرام الذي كلفوا به علمًا وعملًا، دون ما يشغل عن ذلك مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله فيفضي بهم إلى التكذيب، ولا سيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلا ما ينفعهم في أصل دينهم وعباداتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي: كالمنعش، والمرعش، والتبصرة لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده. والمعصوم من عصمه الله.

---

(١) وقد كان هؤلاء القصاص لعدم تحريهم الصدق سببًا في وضع كثير من الأحاديث على رسول الله ﷺ؛ ذكرها أئمة الجرح والتعديل، وحذروا الناس منها. ودونوا دواوين الصحاح والسنن والمساند. فلا ينبغي لأحد اليوم أن ينسب إلى النبي ﷺ حديثًا إلا بذكر من خرجه، وخير وأولى أن يشفعه ببيان درجته من الصحة أو الضعف؛ إذا كان في غير الصحيحين.

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَا سَمِعَ حَديثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ في الصِّفاتِ - اسْتِنْكارًا لِذٰلِكَ - فَقالَ: ما فَرَقُ هٰؤلاءِ؟ يَجِدونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، ويَهْلِكونَ عِنْدَ مُتَشابِهِه» انتهى.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى القُصَّاصَ عن القصص، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك؛ ويقول: «لا يقص إلا أمير أو مأمور» وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علمًا وعملًا ونية وقصدًا، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قوله: (وروى عبدالرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس «أنه رأى رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي ﷺ في الصفات استنكارًا لذلك، فقال: ما فَرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه»).

قوله: (وروى عبدالرزاق) هو ابن همام الصنعاني المحدث محدث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري. وهو شيخ عبدالرزاق يروي عنه كثيرًا.

ومعمر - بفتح الميمين وسكون العين - أبو عروة بن أبي عَمرو راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري يروي عنه كثيرًا.

قوله: (وعن ابن طاوس) هو عبدالله بن طاوس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عُيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: (عن أبيه) هو طاوس بن كَيْسان الجَنَدي بفتح الجيم والنون - الإمام العلم، قيل: اسمه ذَكوان، قاله ابن الجوزي.

قلت: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم، قال في تهذيب الكمال: عن الوليد الموقري عن الزهري قال: قدمت على عبدالملك بن مروان فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خَلّفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك. قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول؛ قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت من الموالي،

. . . .

عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مِهْران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين: مَن حفظه ساد ومن ضيعه سقط».

قوله: (عن ابن عباس) قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وروى عنه أصحابه أئمة التفسير: كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم.

قوله: (ما فرق هؤلاء) يستفهم من أصحابه، يشير إلى أُناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئًا من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرَق أي خوف، فإذا سمعوا شيئًا من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين(١) قال الذهبي: حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: إذا جلس الرب على الكرسي، فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها، أخرجه عبدالله بن أحمد في كتاب الرد على الجهمية. وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان به؛ فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك من الإيمان بكتاب الله كله واليقين كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس رضي الله عنهما تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن؛ وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله فيحمله على غير معناه؛ كما جرى لأهل البدع؛ كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعض

---

(١) قال الشيخ رحمه الله في قرة عيون الموحدين: وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس بدعة القدرية كما في صحيح مسلم وغيره. فقُتِل من دعاتهم غيلان. قتله هشام بن عبدالملك لما أصر على قوله بنفي القد، ثم بعد ذلك أظهر الجعد بن درهم بدعة الجهمية فقتل، قتله خالد بن عبدالله القسري يوم الأضحى بعد صلاة العيد بمكة. اهـ.

. . . .

آيات القرآن على بدعته، وقد وقع منهم ما وقع من الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم؛ فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص؛ والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضًا، ورد المتشابه إلى المحكم، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان؛ فلله الحمد لا نحصي ثناء عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه

قال في الدر المنثور: أخرج الحاكم - وصححه - عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، فافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا».

قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة؛ وطلبوا ما تشابه منه فهلكوا بين ذلك.

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ قال: منهن قوله تعالى ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣] إلى ثلاث آيات، ومنهن ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣-٣٩] إلى آخر الآيات.

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم: المحكمات الناسخات التي يُعمَلُ بهن، والمتشابهات المنسوخات.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يَعْمُر وأبا فاختة تراجعا هذا الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقال أبو فاختة: هن فواتح السور. منها يستخرج القرآن: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ منها استخرجت البقرة و﴿الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ منها استخرجت آل عمران. وقال يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال والحرام. والحدود وعماد الدين[1].

(١) تمام الأثر عند ابن جرير «وضرب لذلك مثلًا فقال: أم القرى مكة. وأم خراسان مرو. وأم المسافرين: الذي يجعلون إليه أمرهم. ويعني بهم في سفرهم. قال فذاك أمهم».

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: «الرَّحْمَن» أنكروا ذلك. فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرّعْد.

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: ﴿المحكمات﴾ فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل؛ ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ في الصدق، لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله بهن العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرفن عن الحق.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان: إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ يعني فيما بلغنا: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿الٓمٓصٓ﴾ و﴿الٓمٓر﴾.

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قاله النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

قوله (ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرحمن أنكروا ذلك فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾) [الرعد: ٣٠]. روى ابن جرير عن قتادة: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشًا كتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله ﷺ؛ فقال مشركو قريش[1]: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله. فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله دعنا نقاتلهم. فقال: لا. اكتبوا كما يريدون: إني محمد بن عبدالله فلما كتب الكاتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه. وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم. فقال أصحابه: يا رسول الله! دعنا نقاتلهم. قال: لا. ولكن اكتبوا كما يريدون» روى أيضًا عن مجاهد قال قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] قال: «هذا لما كاتب رسول الله ﷺ قريشًا في الحديبية؛ كتب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالوا: لا تكتب الرحمن؛ لا ندري ما الرحمن؟ لا نكتب إلا باسمك اللهم». قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية.

---

(١) الذي كان يقول ذلك. هو سهيل بن عمرو الذي ندبته قريش ليتولى عنها عقد هذا الصلح مع رسول الله.

الثالثة: ترْكُ التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العِلّة أنه يُفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك وأنه أهلكه.

وروى، أيضًا، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يدعو ساجدًا: يا رحمن يا رحيم. فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحدًا وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ١١٠].

* * *

٤٠ - باب

قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾) [النحل: ٨٣].

ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء في معناها، وقال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة، فذكر عن سفيان عن السدي ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: محمد ﷺ. وقال آخرون بل معنى ذلك أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فَوَرَّثُونا إياه. وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟ أقروا بأن الله هو الذي يرزقهم ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة وهو أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدّينَوري قاضي مصر[(١)] النحوي اللغوي، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة، اشتغل ببغداد وسمع الحديث على إسحاق بن راهويه وطبقته. توفى سنة ست وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنف (عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي) أبو عبدالله الكوفي الزاد [روى] عن أبيه وعائشة وابن عباس وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقه أحمد وابن معين قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: إنكارهم إياه أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا. واختار ابن جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها. وهو الصواب والله أعلم.

قوله: (قال مجاهد) هو شيخ التفسير: الإمام الرباني، مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهدًا يقول: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث مرات؛ أقفه عند كل آية وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفى سنة اثنتين ومائة. وله ثلاث وثمانون سنة - رحمه الله -.

---

(١) لعله قاضي الدينور؛ فإنه لم يتولَّ القضاء إلا فيها.

قال مجاهد ما معناه: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هٰذا مالي وَرِثْتُهُ عَنْ آبائِي».

وقال عَون بن عبدالله: «يَقُولونَ لَولَا فُلَانِ لَمْ يَكُنْ كَذا».

وقال ابن قتيبة: «يَقُولونَ: هٰذا بِشَفاعَةِ آلِهَتِنا».

وقال أبو العباس بعد حديث زَيْد بن خالد الذي فيه أن الله تعالى قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبادي مُؤْمِنٌ بِي وكافِرٌ». الحديث. وقد تقدم: وهذا كثير في الكتاب والسنة يَذُم سبحانه مَنْ يُضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسِنة كثير.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

قوله: (وقال أبو العباس) هو شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الإمام الجليل رحمه الله - بعد حديث زيد بن خالد - وقد تقدم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء قال: وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف هو كقولهم: كانت الريح طيبة؛ والملاح حاذقًا. ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير. اهـ.

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.

قال شيخنا رحمه الله: وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.

* * *

٤١ - باب

قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: (باب قول الله تعالى) ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

الند: المثل والنظير. وجعل الند لله: هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله؛ كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دعوه ورجوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم؛ ويشفع لهم. وهذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢] قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: لا تشركوا بالله شيئًا من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. وكذلك قال قتادة وعن قتادة ومجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله. وقال ابن زيد: الأنداد هي الآلهة التي جعلوها معه وجعلوا لها مثل ما جعلوا له. وعن ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أشباهًا. وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وذكر حديثًا في معنى هذه الآية الكريمة. وهو ما في مسند أحمد عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ بها. فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن فإما أن تبلغهن وإما أن أُبلغهن، فقال: يا أخي؛ إني أخشى إن سبقتني أن أُعذب أو يخسف بي، قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقُعد على الشُّرَف. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: أُولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فجعل يعمل ويؤدي غَلّته إلى غير سيده، فأيُّكم يَسُرّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت. فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في

قال ابن عباس في الآية: «الأَنْدادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلى صَفاة سَوْداء في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ. وهُوَ أَنْ تَقولَ: واللهِ، وحياتك يَا فُلان، وحياتي، وتَقولُ: لَوْلَا كُلَيْبَة هٰذا لَأَتانا اللُّصوص، ولَوْلَا البَطُّ في الدَّارِ لَأَتانا اللُّصوص، وَقَوْلُ الرَّجُلِ

عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وآمركم بذكر الله كثيرًا، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعًا في أثره، فأتى حصنًا حصينًا فتحصَّن فيه، وإن العبدَ أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله. قال: وقال رسول الله ﷺ: وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: الجماعة والسمع والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيْدَ شبر فقد خلع ربْقَة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثى[1] جهنم، قالوا: يا رسول الله وإن صلّى وصام؟ فقال: وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل».

وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: (إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئًا) وهذه الآية دالّة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع؛ وهي دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جدًّا. وسُئِلَ أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لُجين ناظرات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قُضُب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجبًا، كيف يُعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحد؟
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: الأنداد هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي؛ وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانًا. هذا كله به شرك. رواه ابن أبي حاتم) بين ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك، وهو

---

(١) الجثىٰ: بضم الجيم وفتح الثاء المثلثة مقصورًا - جميع جثو بضم الجيم - وهو الشيء المجموع قال ابن الأثير: وتروى هذه الكلمة «جُثِيٍّ» بضم الجيم وكسر الثاء وتشديد الياء - جمع جاثٍ: هو الذي يجلس على ركبتيه.

لِصاحِبِهِ: ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ، وقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وفُلان لَا تَجْعَل فِيها فُلانًا، هٰذا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ، أَوْ أَشْرَكَ». رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم.

الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك: فتنبه لهذه الأمور، فإنها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه لكونه من أكبر الكبائر، وهذا من ابن عباس رضي الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

قوله: (وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[(١)] رواه الترمذي وحسنه وصححه الحاكم).

قوله: (فقد كفر أو أشرك) يحتمل لي أن يكون شكًّا من الراوي ويحتمل أن تكون أو بمعنى الواو فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر، كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

قوله: (وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا»).

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا كبيرة من الكبائر لكن الشرك أكبر من الكبائر، وإن كان أصغر كما تقدم بيان ذلك، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به؛ كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخاذها أوثانًا، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بُنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال والأعمال، وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل عليه القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٣٧] كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونه من دونه في دار الدنيا. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] وقال

---

(١) وذلك لأن حقيقة اليمين والقصد منه: إنما هو تأكيد الحالف قوله بالقسم بالمحلوف به الذي يعتقد أنه يقدر أن ينتقم منه ويعاقبه إن كان كاذبًا، ولذلك ترى أكثر العامة يحلفون بالله كذبًا غير مبالين، فإذا استحلفوا بمن يعظمونه من الموتى والأولياء ويعتقدون له السر والتصرف تكعكعوا وصدقوا وإن كان في ذلك ذهاب بعض ما يحرصون عليه من منفعة، يضحون بها خوفًا من عقاب وانتقام وتصرف ذلك الولي فيهم، ويؤكدون اعتقادهم هذا بحكايات مكذوبة يذيعها سدنة هذه المعابد الوثنية لجر النفع المادي في اعتقاد العامة في أوليائهم، فيحكون أن رجلًا سرق سمكة مملحة، وأكلها فاستحلفه المسروق منه بالله فأقسم بالله ثلاث مرات بأنه لم يأخذها ولم يرها، فلم يحصل له شيء، فاستحلفه بأحمد البدوي، فما كان يلفظ الاسم حتى سبقت السمكة من بطنه ولفظها، وذلك منهم اعتقاد أن البدوي أغير وأعز وأقدر من الله الحي القيوم العزيز الحكيم.

وقال ابن مسعود: «لأَنْ أَحْلفَ باللهِ كاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صادِقًا».

وعن حُذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَا تَقولوا: ما شاءَ اللهُ وشاءَ فُلانٌ ولٰكِنْ قولوا: ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شاءَ فُلَانٌ». رواه أبو داود بسند صحيح.

وجاء عن إبراهيم النَّخْعِي أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢٠، ٢١] وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر فخالفوا ما بلغ به الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله حتى قال قائلهم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا؛ وإلا فقل: يا زلة القدم

فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء الذي نهى عنه ﷺ بقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبدالله ورسوله» رواه مالك وغيره[١]، وقد قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة والمحادة لله ورسوله. وهذا الذي يقوله هذا الشاعر[٢] هو الذي في نفوس كثير خصوصًا ممن يدعون العلم والمعرفة. ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: (وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله؛ ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح).

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساويًا للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع. فلا تقتضي ترتيبًا ولا تعقيبًا. وتسوية المخلوق بالخالق شرك؛ إن كان في الأصغر - مثل هذا - فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر. كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] بخلاف المعطوف بثم. فإن المعطوف بها يكون متراخيًا عن المعطوف عليه بمهملة. فلا محذور لكونه صار تابعًا.

قوله: (وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن

---

(١) رواه البخاري عن ابن عباس عن عمر في باب قول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ في كتاب أحاديث الأنبياء وفي كتاب الحدود في باب رجم الحبلى في الزنى إذا أحصنت. قال الحافظ في الفتح: ج ٦ ص ٣١٤. تقول: أطريت فلانًا. مدحته فأفرطت في مدحه.

(٢) هو البوصيري في قصيدته المشهورة بالبردة، التي هي عند الناس بمنزلة القرآن وربما عظمها بعضهم أكثر، فإنه يواظب على قراءتها أكثر مما يواظب على قراءة القرآن.

ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا فهو أكبر من اليمين الغَموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثُمّ في اللفظ.

يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان. ولا تقولوا لولا الله وفلان).

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك، هذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء، وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك، وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر، فلا يقال في حقهم شيء من ذلك، فلا يجوز التعلّق عليه بشيء ما بوجه من الوجوه؛ والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئًا من ذلك؛ أو رغب إليهم أحد بقوله أو عمله الباطن أو الظاهر، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قسرًا وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله:

أخي، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان

ذكاء وحرص، واجتهاد وبلغة ... وإرشاد أستاذ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ؛ وأتعب نفسه في تحصيله فهو الموفق لمن شاء من عباده. كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ولقد أحسن العلّامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال:

والجهل داء قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان

نص من القرآن، أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني

والعلم أقسام ثلاث، ما لها ... من رابع، والحق ذو تبيان

علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالقرآن

والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

٤٢ - باب
ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَحْلِفوا بِآبائِكُمْ، مَنْ حُلِفَ لَهُ باللهِ فَلْيُصَدِّقْ، ومَنْ حُلِفَ لَهُ باللهِ فَلْيَرْضَ، ومَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» رواه ابن ماجه بسند حسن.

قوله: (باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله).

(عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم من حلف له بالله فليصدق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» رواه ابن ماجه بسند حسن).

قوله: (لا تحلفوا بآبائكم) تقدم النهي عن الحلف بغير الله عمومًا.

قوله: (من حلف به بالله فليصدق) هذا مما أوجبه الله على عباده وحضّهم عليه في كتابه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وقال: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١] وهو حال أهل البر، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ - إلى قوله - ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله: (من حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله) أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه فلا ريب أنه يجب عليه الرضا، وأما إذا كان فيما يجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم: أن يقبل منه إذا حلف له معتذرًا أو متبرئًا من تهمة ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما في الأثر عن عمر رضي الله عنه: ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملًا.

وفيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم، وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله، ثم إنه يدخل في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد، كما في الحديث[1] وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه وحقوق عباده، وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم، فإن فيه من الضرر ما

---

(١) رواه الترمذي - وقال: حسن صحيح - وابن حبان، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء» ورواه أبو داود مختصرًا.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

لا يخطر بالبال ولا يدور بالخيال. وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها. فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك، دل على وفور دينه، وكمال عقله. والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين. والله أعلم.

* * *

٤٣ - باب
قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتَيلة: «أَنَّ يهودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقالَ: إِنَّكُمْ تشْرِكونَ، تَقولونَ: مَا شاءَ اللهُ وشِئْتَ، وتَقولونَ: والكعْبَة. فَأَمَرَهُم النَّبِيُّ ﷺ إِذا أَرادوا أَنْ يَحْلِفوا أَنْ يَقولوا: وَربِّ الكعْبَةِ. وأَنْ يَقولوا: ما شاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ» رواه النسائي وصححه.

قوله: (باب قول ما شاء الله وشئت).

(عن قُتَيلة «أن يهوديًّا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت؛ وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أنْ يقولوا: ورب الكعبة وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه).

قوله: (عن قتيلة) - بمثناة مصغرة - بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث في سنن النسائي، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبد الله بن يسار الجعفي.

وفيه: قبول الحق مما جاء به كائنًا من كان، وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة، وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب ولا نبي مرسل، ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه، وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها، وجعلها للأمة قبلة: فالطواف بها مشروع والحلف بها ودعاؤها ممنوع، فميِّز أيها المكلف بين ما شرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلًا.

قوله: (إنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشئت) والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله؛ ولا قدرة له على أن يشاء شيئًا إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨، ٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩، ٣٠].

وفي هذه الآيات والأحاديث: الرد على القدرية والمعتزلة نُفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه، وسيأتي ما يُبطِلُ قولهم في «باب ما جاء في منكري القدر» إن شاء الله تعالى، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن

وله أيضًا عن ابن عباس: أَنَّ رَجُلًا قالَ للنَّبِيِّ ﷺ: ما شاءَ اللهُ وشِئْتَ، فَقالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا، بَلْ ما شاءَ اللهُ وحدَهُ».

ولابن ماجه: عن الطُّفيل - أخي عائشة لأمها - قال: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلى نَفَرٍ

مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه؛ من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئة الله وإرادته، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه من العبد، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ الآية [الزمر: ٧] وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك، فإن النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله: «إنكم تشركون».

قوله: (وله أيضًا عن ابن عباس رضي الله عنهما[١]: أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده»).

هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك، لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: (أجعلتني لله ندًّا) فيه: بيان أن من سوّى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله ندًّا لله، شاء أم أبى، خلافًا لما يقوله الجاهلون، مما يختص بالله تعالى من عبادة، وما يجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين.

قوله[٢]: (ولابن ماجه عن الطفيل - أخي عائشة لأمها - قال: «رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود؛ فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله: قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله؛ قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: هل أخبرت بها أحدًا؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: أما بعد؛ فإن طفيلًا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها. فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»).

قوله: (عن الطفيل - أخي عائشة لأمها -) هو الطفيل بن عبدالله بن سَخْبرة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

---

(١) قال ابن كثير: ج ١ ص ١٠٤. وقال سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلح - عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس - وساقه. رواه ابن مردويه وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح عنه. وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد. والله أعلم.

(٢) قال ابن كثير في التفسير: ج ١ ص ١٠٤. وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيل ابن سخبرة أخي عائشة لأمها - وساقه - ثم قال: هكذا رواه ابن مردويه في تفسير الآية. وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبدالملك بن عمير به بنحوه.

مِنَ اليَهودِ قُلْتُ: إنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُم تَقولونَ: عُزَيْر ابنُ اللهِ. قالوا: وإنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمِ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقولونَ: ما شاءَ اللهُ وشاءَ مُحمَّد. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصارَى فَقُلْتُ: إنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُم تَقولونَ: المسيحُ ابنُ اللهِ. قالوا: وإنَّكُمْ لأَنْتُم القَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقولونَ: ما شاءَ اللهُ وشاءَ مُحَمَّدُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِها مَنْ أَخْبَرْتُ ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قالَ: هَلْ أَخْبَرْتَ بِها أَحَدًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنى عَلَيْهِ، ثُمَّ قالَ: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإنَّ طُفَيْلًا رَأى رُؤْيا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وإنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كانَ يَمْنَعُني كَذا وكَذا أَنْ أَنْهاكُمْ عَنْها. فَلا تَقولوا: ما شاءَ اللهُ وشاءَ مُحَمَّد، ولٰكِنْ قولوا: ما شاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

وهذه الرؤيا حق، أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله وحده».

وهذا الحديث والذي قبله: أمرهم فيه أن يقولوا: «ما شاء الله وحده». ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: «ثم شاء فلان» لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه، فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

قوله: (كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها) ورد في بعض الطرق: «أنه كان يمنعه الحياء منهم»[(١)] وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيل عن رؤياه، خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهيًا بليغًا، فما زال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلّغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وفيه معنى قوله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[(٢)].

---

(١) لعلّ الذي كان يمنعه ﷺ أنه لم يكن الله أوحى إليه فيها شيئًا. فلما أوحى إليه بلغه أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي[(*)]، فهذا ما لا يليق برسول الله ﷺ والله أعلم.

(*) قوله: «أما الحياء في تبليغ الأوامر والنواهي» إلخ. أقول: هذا كلام جيد، والجواب عن الرواية التي ذكرها الشارح وهي قوله: (ورد في بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم) أن يُقال: إن صحت هذه الرواية فمعنى ذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يستحيي منهم أن ينهاهم عن شيء لم يوحَ إليه أن ينهي عنه، وإن كان هو يستحسن تركه، فلما جاءه الوحي بالنهي عنه بسبب الرؤيا المذكورة نهاهم عن ذلك، كما أمرهم ﷺ بالتماس ليلة القدر في السبع الأواخر من رمضان لما تواطأت رؤياهم على أنها في السبع الأواخر وكان ذلك سببًا لشرعية مزيد الاجتهاد في السبع المذكورة.

(٢) هذا الحديث إنما يخبر به النبي ﷺ عما كان يرى قبل النبوة[(*)] وهو يتحنث في غار حراء من الرؤيا التي كانت تجيء مثل فلق الصبح. وذلك في الدور الذي كان يهيئه الله فيه لتلقي الوحي، وكان ذلك الدور ستة أشهر. وهي بالنسبة إلى مدة النبوة الثلاثة والعشرين سنة جزء من ستة وأربعين جزءًا منها. والله اعلم.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا» فَكَيْفَ بِمَنْ قالَ: «مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِواكَ» والبيتين بعده.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يَمْنَعُنِي كَذا وكَذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهي وحي، يثبت بها ما يثبت بالوحي أمرًا ونهيًا. والله أعلم.

* * *

(*) قوله: «هذا الحديث إنما يخبر به النبي ﷺ عمَّا كان يرى قبل النبوة» إلخ. يريد الشيخ حامد رحمه الله بهذا الكلام أن قول النبي ﷺ عن الرؤيا الصالحة أنها جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، أنه خبر عما قد وقع ومضى، وليس الأمر كذلك بل الروايات الواردة في هذا الباب تدل على أن مراد النبي ﷺ، الخبر عن جنس الرؤيا في الماضي والمستقبل وأنها تفيد وتحصل بها البشرى وأن فائدتها جزء من أجزاء النبوة المتضمنة الإخبار عن المغيبات، ولهذا اختلفت ألفاظ الروايات في ذلك ففي بعضها جزء من خمسة وأربعين جزءًا، وفي بعضها جزء من ستة وأربعين جزءًا وفي بعضها جزء من سبعين جزءًا من النبوة، وفي بعضها غير ذلك ولو كان المراد ما قاله الشيخ حامد لم تتنوع العبارات عنها، ووجه التنوع والله أعلم أن الرؤيا الصالحة في حد ذاتها تختلف بحسب صلاح الرائي وما يكتنف رؤياه من القرائن والشواهد، الدالة على صدق الرؤيا وقد نص العلماء على ما ذكرناه قال النووي رحمه الله في شرح مسلم ما نصه: (قال القاضي أشار الطبري إلى أن هذا الاختلاف راجع إلى اختلاف حال الرائي فالمرء الصالح تكون رؤياه جزءًا من ستة وأربعين جزءًا والفاسق جزء من سبعين جزءًا، وقيل المراد أن الخفي منها جزء من سبعين والجلي جزء من ستة وأربعين) ثم نقل عن الخطابي عن بعض أهل العلم نحو ما قاله الشيخ حامد، ثم نقل عن المازري ما نصه: (وقيل المراد أن للمنامات شبهًا مما حصل له وميز به من النبوة بجزء من ستة وأربعين) انتهى والله أعلم.

٤٤ - باب
من سَبَّ الدهرَ فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قوله: (باب من سب الدهر فقد آذى الله).

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤].

قال العماد ابن كثير في تفسيره: يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون؛ وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة، وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية؛ المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى؛ فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: يتوهمون ويتخيلون، فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي من رواية سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يَسُب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»[(١)]. وفي رواية «لا تسبوا الدهر فإني أنا الدهر» وفي رواية «لا يقل ابن آدم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار؛ فإذا شئت قبضتهما»[(٢)] اهـ.

قال في شرح السنة: حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي: سبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر؛ فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها فكان مرجع سبها إلى الله عز وجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر. اهـ باختصار.

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جدًّا بهذا الطريق[(٣)]. قال: «كان أهل الجاهلية

---

(١) في ابن كثير «أقلب ليله ونهاره».

(٢) هذه الرواية ليس في نسخ ابن كثير المطبوعة بأيدينا. وهي في تفسير البغوي.

(٣) أي من طريق سفيان بن عيينة عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «كان أهل الجاهلية إلخ».

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قالَ اللهُ تَعالى: يُؤْذِيني ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ وأَنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ والنَّهارَ».

وفي رواية: «لَا تَسبوا الدَّهْرَ. فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. ويسبون الدهر. فقال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور عن سريج بن النعمان عن ابن عيينة مثله. ثم روى عن يونس عن ابن وهب عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار». وأخرجه صاحب الصحيح والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله عز وجل: استقرضت عبدي فلم يعطني، ويسبني عبدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر».

قال الشافعي وأبو عبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: يا خيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنهم إنما سبوا الله سبحانه، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال، هذا أحسن ما قيل في تفسيره - وهو المراد - والله أعلم.

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدّهم «الدهر» من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث. اهـ.

وقد بين معناه في الحديث بقوله: «أُقلِّبُ الليل والنهار» وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى، وهي قوله «بيدي الأمر».

قوله: (وفي رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»).

معنى هذه الرواية: هو ما صرح به في الحديث من قوله: «وأنا الدهر؛ أقلب الليل والنهار» يعني أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره، بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره. ما شاء وكان وما لم يشأ لم يكن، فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده؛ والرجوع إليه بالتوبة والإنابة. كما قال تعالى:

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سَبِّ الدهر.

الثانية: تسميته أذى الله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سابًّا ولو لم يقصده بقلبه.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة، كما في أشعار المولدين؛ كابن المعتز والمتنبي وغيرهما. وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الآية [يوسف: ٤٨] وقال بعض الشعراء:

إن الليالي من الزمان مهولة ... تُطوَى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وقال أبو تمام:

أعوام وصلٍ كاد يُنسى طيبها ... ذكر النوى، فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت ... نحوي أسًى، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

* * *

٤٥ - باب
التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إِنْ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تُسَمَّى ملكُ الأَمْلَاكِ، لَا مالِك إِلَّا اللهُ».

قال سفيان: «مثلُ شاهانَ شاهْ».

قوله: (باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه).

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياسًا على ما في حديث الباب. لكونه [يُشبِهُه] في المعنى فينهى عنه.

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك؛ لا مالك إلا الله»)(١).

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى. فهو ملك الأملاك لا ملك أعظم ولا أكبر منه، مالك الملك ذو الجلال والإكرام، وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير، وهو الله تعالى، ينزع المَلِكَ من مُلْكِه تارة وينزع المُلْكَ منه تارة(٢) فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه، وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لا انتهاء له بيده القسط يخفضه ويرفعه؛ ويحفظ على عباده أعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى، وما تكتبه الحفظة عليهم. فيجازي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر، كما ورد في الحديث «اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله».

قوله: (قال سفيان) يعني ابن عيينة (مثل شاهنشاه(٣) عند العجم عبارة عن ملك الأملاك.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي. قال العزيزي في الشرح الكبير. وفي الباب غيره أيضًا، وفي قرة العيون: لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله فهو ملك الأملاك، لأنه هو الملك في الحقيقة: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] يتصرّف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾[آل عمران: ٢٦] الآية. فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يعظم به الخالق جل وعلا، وما كان مثل ذلك فينهى عنه كالذي ترجم به المصنف؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق، لأن كل لفظ يقتضى التعظيم والكمال لا يكون إلا له تعالى وتقدس دون غيره.

(٢) قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[آل عمران: ٢٦].

(٣) قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: ج ١٢ ص ٤٣. في حوادث سنة ٤٢٩هـ: وفي رمضان منها لقب جلال الدولة - السلجوقي - شاهنشاه الأعظم؛ ملك الملوك بأمر الخليفة القائم لله، وخطب له بذلك على المنابر، فنفرت العامة من ذلك، ورموا الخطباء بالآجر، ووقعت فتنة شديدة بسبب ذلك، واستفتوا القضاة والفقهاء في ذلك؛ فأفتى أبو عبدالله الصيمري - الشافعي - أن هذه الأسماء يعتبر فيها القصد والنية. وقال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ

. . . .

ولهذا مثل به سفيان لأنه عبارة عنه بلغة العجم).

مَلِكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] وقال: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩] وإذا كان في الأرض ملوك جاز أن يكون بعضهم فوق بعض وأعظم من بعض. وليس في ذلك ما يوجب النكير؛ والمماثلة بين الخالق والمخلوق.

وكتب القاضي أبو الطيب الطبري: «إن إطلاق (ملك الملوك) جائز. ويكون معناه: مالك ملوك الأرض. وإذا جاز أن يقال: كافي الكفاة، وقاضي القضاة؛ جاز أن يقال ملك الملوك، وإذا كان في اللفظ ما يدل على أن المراد به ملك الأرض زالت الشبهة، ومنه قولهم: اللهم أصلح الملط، فيصرف الكلام إلى المخلوقين». وكتب التميمي الحنبلي نحو ذلك.

وأما الماوردي صاحب الحاوي الكبير فقد نقل عنه أنه أجاز ذلك أيضًا. والمشهور عنه ما نقله ابن الجوزي والشيخ أبو منصور بن الصلاح في أدب المفتي أنه منع من ذلك وأصر على المنع منه، مع صحبته للملك جلال الدولة، وكثرة تردداه عليه ووجاهته عنده، وأنه امتنع من الحضور في مجلسه حتى استدعاه جلال الدولة في يوم عيد: فلما دخل عليه دخل وهو وجل خائف أن يوقع به مكروهًا، فلما واجهه قال له جلال الدولة: قد علمت أنه إنما منعك من موافقة الذين جوزوا ذلك مع صحبتك إياي ووجاهتك عندي: دينك واتباعك الحق وأن الحق آثر عندك من كل أحد؛ ولو حابيت أحدًا من الناس لحابيتني، وقد زادك ذلك عندي صحبة ومحبة وعلو مكانة. قال ابن كثير والذي حمل القاضي الماوردي على ذلك المنع هو اتباع السنة التي وردت بها الأحاديث الصحيحة من غير وجه. قال الإمام أحمد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي الزناد عن الأعراج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (أخنع اسم عند الله يوم القيامة رجل تسمى بملك الأملاك) قال الزهري: سألت أبا عمرو الشيباني عن «أخنع اسم» قال «أوضع» وقد رواه البخاري عن علي بن المديني عن ابن عيينة. وأخرجه مسلم من طرق همام عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه رجل تسمى ملك الأملاك. لا ملك إلا الله عز وجل» وقال الإمام أحمد حدثني محمد بن جعفر حدثنا عوف عن جلاس عن أبي هريرة قال: رسول الله ﷺ «اشتد غضب الله على من قتله نبي، واشتد غضب الله على رجل تسمى بملك الأملاك، لا ملك إلا الله عز وجل» اهـ. وقال العزيزي في الشرح الكبير: أي: سمي نفسه؛ أو سمَّاه غيره فرضي به وأقرَّه ونحوه وما في معناه شاه شاهان، والعجم تقدم المضاف إليه على المضاف، وألحق به ملك شاه. قيل: وإذا امتنع التسمي بما ذكر فباسم من له هذا الوصف كالله والجبال والرحمن أولى.

قال القرطبي: وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق لما ثبت في الفكرة أنه لا مالك لجميع الخلائق إلا الله، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق، والمالك من له الملك؛ والملك أمدح، والمالك أخص. وكلاهما واجب لله تعالى.

وقال الطيبي: قوله «لا مالك إلا الله» استئناف لبيان تعليل تحريم التسمية، فنفى جنس الملاك بالكلية، لأن المالك الحقيقي ليس إلا هو؛ ومالكية الغير مستردة إلى مالك الملوك، فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه، واستنكف أن يكون عبده، لأن وصف المالكية مختص بالله عز وجل لا يتجاوزه، والملوكية بالعبد لا تتجاوزه، فمن تعدى طوره فله الخزي في الدنيا والعار؛ وفي الآخرة الإلقاء في النار اهـ.

ومن العجايب التي لا تخطر بالبال ما نقله ابن بزيزة عن بعض شيوخه أن أبا العتاهية - الشاعر المشهور كان له ابنتان سمي إحداهما الله، وسمي الأخرى الرحمن. وهذا من أعظم القبائح، وأشد الجرائم والفضائح. وقيل: إنه تاب.

وألحق بعض المتأخرين بملك الأملاك: حاكم الحكام، وقد شدد الزمخشري النكير عليه فقال في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾: رب غريق في الجهل والجور من متقلدي الحكومة في زمننا قد لقب أقضى القضاة ومعناه

وفي رواية: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلى اللهِ يَوْمَ القِيامَةِ وأَخْبَثُهُ».

قوله: «أَخْنَعْ» يعني أوضع.

قوله: (وفي رواية «أغيظ رجل على الله وأخبثه»).

قوله: (أغيظ) من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض. فيكون بغيضًا إلى الله مغضوبًا عليه[1]. والله أعلم.

قوله: (وأخبثه) وهو يدل أيضًا على أن هذا خبيث عند الله فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم، لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم، لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله.

قوله: (أخنع: يعني أوضع)[2] هذا هو معنى: «أخنع» فيفيد ما ذكرنا في معنى: «أغيظ» أنه يكون حقيرًا بغيضًا عند الله.

وفيه: التحذير من كل ما فيه تعاظم. كما أخرج أبو داود عن أبي مِجلز قال: «خرج

أحكم الحاكمين. فاعتبر واستعبر اهـ. واعترضه ابن المنير بأن خبر: «أقضاكم علي» يؤخذ منه جواز أن يقال لأعدل القضاة وأعلمهم في زمنه: «قاضي القضاة» ورد عليه وشنع العالم العراقي منتصرًا للزمخشري. ومن النوادر: أن العز ابن جماعة رأى أباه في النوم، فسأله عن حاله فقال: ما كان علي أضر من هذا الاسم، فنهى الموثقين أن يكتبوا له في الأسجال: قاضي القضاة. بل قاضي المسلمين.

وقال ابن القيم: وتحرم التسمية بسيد الناس؛ وسيدة الكل، كما تحرم بسيد ولد آدم، فإن ذا ليس لأحد إلا للرسول ﷺ اهـ.

قال أبو طاهر - غفر الله لهما - ولعله يلحق بذلك ما تعارف عليه الناس في بعض البلدان الإسلامية: كصاحب العزة؛ وصاحب الجلالة، ونحو ذلك، وكل هذه الألقاب إنما شاعت في الناس من وقت دخول الأعاجم وتمكن دولتهم في البلاد الإسلامية، وأنهم لم يكن لهم من العدل والدين والاستقامة والعلم والفضل ما يتزينون به عند الله والناس، بل لعلّه كان لهم ضد ذلك؛ فخشوا أن يسقطوا من أعين العامة فاخترعوا لهم من تلك الأسماء والألقاب ما يلقى في نفوسهم الوهم والتعظيم المتكلف والتبجيل المصطنع، ولقد كان السلف الصالح رضي الله عنهم يدعون بعضهم بعضًا بأسمائهم أو بوظائفهم، وقلوبهم مملوءة بالمحبة والتوقير والإجلال لعلمائهم وأمرائهم، لما لهم من العلم والفضل والعدل والبر والإحسان التي جملهم الله بها. نسأل الله أن يعيد للناس هذا فهو أنفع وأصلح مما هم عليه اليوم من هذه المداهنات والتملقات المتكلفة بالباطل.

(١) ويؤيده «اشتد غضب الله على من زعم أنه ملك الأملاك» أخرجه الطبراني.

(٢) «أخنع» بفتح الهمزة والنون بينهما معجمة ساكنة أي: أدخلها في الخنوع؛ وهو الذُّلُّ والضعة والهوان، ذكره الزمخشري. وفي رواية «أخنى» من الخنا بمعنى الفحش في القول ويحتمل أن يكون من قولهم: أخنى عليه الدهر أي أهلكه، وذكر أبو عبيد أنه ورد بلفظ «أنخع» بتقديم النون على الخاء المعجمة وهو بمعنى أهلك، قال ابن بطال: وإذا كان الاسم أذل الأسماء كان من تسمى به أشد ذلًّا يوم القيامة أي: أشدَّهم ذلًّا وصغارًا. وفي قرة العيون: وهذا من الصفات التي تمر كما جاءت من غير تحريف ولا تأويل، ولا تشبيه ولا تمثيل، والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: إن ما في معناه مثله كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأنَّ القلبَ لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر، فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير، فقال معاوية لابن عامر: اجلس؛ فإن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أحب أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار» وأخرجه الترمذي أيضًا، وقال: حسن. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متكئًا على عصا، فقمنا إليه. فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضًا» رواه أبو داود.

قوله: (أغيظ رجل) هذا من الصفات التي تُمَرُّ كما جاءت، وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل كما تقدم، والباب كله واحد. وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة. وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم؛ والله المستعان.

* * *

٤٦ - باب
احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح: «أَنَّهُ كانَ يُكْنَى أَبا الحَكَمِ. فَقالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ. وإِلَيْهِ الحُكْم. فَقالَ: إِنَّ قَوْمي إِذا اخْتَلَفوا في شَيْءٍ أَتوني فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَيْنِ. فَقالَ: ما أَحْسَنَ هٰذا: فَما لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟ قالَ: شُرَيْح، ومسلم، وعَبْدُاللهِ.

قوله: (باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك).

(عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟ قلت شريح ومسلم وعبدالله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح» رواه أبو داود وغيره).

قوله: (عن أبي شريح) قال في خلاصة التذهيب: هو أبو شريح الخزاعي، اسمه خويلد ابن عمرو[1] أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثًا، اتفقنا على حديثين وانفرَد البخاري بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة، قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين. قال الشارح: اسمه هانئ بن يزيد الكندي، قاله الحافظ، وقيل: الحارث الضبابي، قاله المِزّي.

قوله: (يكنى) الكنية ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك، واللقب ما ليس كذلك[2]، كزين العابدين ونحوه.

وقول النبي ﷺ: (إن الله هو الحكم وإليه الحكم) فهو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أُنزِلَ على أنبيائه ورسله؛ وما من قضية إلا ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة، وقد يسر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحدًا، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، يسر له ذلك بفضله ومنِّه عليه وإحسانه إليه، فما أجَلّها من عطية، فنسأل الله من فضله.

---

(١) وبهامش الخلاصة: وقيل: عمرو بن خويلد: وقيل: هانئ بن عمرو، وقيل: خويلد بن شريح بن عمرو، كذا في الكنى من كتاب ابن الملقن وجامع الأصول.

(٢) في كتب العربية: اللقب. ما أشعر بمدح أو ذم، كزين العابدين ونحوه.

قالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ شَرِيح. قالَ: فَأَنْتَ أَبو شُرَيْح». رواه أبو داود وغيره.

قوله: (وإليه الحكم) في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] فالحكم إلى الله: هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله: هو الحكم إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته[١].

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «بِمَ تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي. فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله» فمعاذ من أجَلّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة. ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكمًا في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ، بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام، ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل بأحكام الكتاب والسنة وهيهات[٢].

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل، إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه. وهو الذي لا تخفى عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم، فطرح على سيئات الظالم، لا يزيد على هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: (فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين فقال: ما أحسن هذا) فالمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرّ للعدل بينهم، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين، صار عندهم مرضيًّا. وهذا هو الصلح: لأن مداره على الرضى لا على الإلزام، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية: من أحكام كبرائهم وأسلافهم، التي تخالف حكم الكتاب والسنة. كما قد يقع اليوم كثيرًا؛ كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم

---

(١) يعني رد الحكم إلى الله: رد الحكم إلى كتابه، ورد الحكم إلى الرسول ﷺ رد الحكم إليه في حياته، ثم رده إلى سنته بعد وفاته ﷺ.

(٢) وبخلاف الصنف الآخر: الذين يعنون بأقوال الناس وآرائهم فيحفظونها متونًا وشروحًا مهما كانت معقدة وطويلة، ثم يقدمونها في العبادات والأحكام بين يدي الله ورسوله، فإنه لله وإنا إليه راجعون، ماذا حرم الناس من خير وهدى وعز وسلطان لهذا العزل لكتاب الله وسنة رسوله عن وظيفتها.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للْكُنْية.

الله ولا إلى حكم رسوله، وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم(١)

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده، فيعتمد على قول من قلده ويترك ما هو الصواب الموافق لأصول الكتاب والسنة. والله المستعان.

وقول رسول الله ﷺ: «فما لك من الولد؟ قال: شريح، ومسلم؛ وعبدالله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح» فيه تقديم الأكبر في الكنية وغيرها غالبًا. وجاء هذا المعنى في غير ما حديث والله أعلم.

* * *

(١) في قرة العيون: وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب، ونحوهم من سوالف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب، لما فيه من النهي الشديد، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه ويحكم بما كانوا يحكمون به، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا. اهـ.
والنص الصريح في إبطال حكم السوالف من حكام البدو غير المتدينين: هو قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وأبو شريح كان من قضاة الجاهلية قبل الإسلام، ولذلك كنوه: «بأبي الحكم» فأنكرها عليه النبي ﷺ وغيرها، ولفظ «الحكم» بفتحتين لا ينهى عنه في الإسلام لقوله تعالى: ﴿فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: ٣٥] وذلك لأنه يحكم بما شرعه الله من صلح وإصلاح، وقد أذن الله للمؤمنين بأن يحكموا بين الناس بالعدل.

٤٧ - باب
من هَزَل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

قوله: (باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول) أي: فقد كفر.

قوله: (وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾؟).

قال العماد ابن كثير رحمه الله في تفسيره: قال أبو مَعْشَر المدني عن محمد بن كعب القُرظي وغيره: «قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى مثل قُرّائنا هؤلاء؟ أرغبنا بطونًا(١)؛ وأكذبنا ألسنًا، وأجبننا عند اللقاء، فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركبَ ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب؛ ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] وإن رجليه ليسفعان(٢) الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بنِسْعَة ناقة رسول الله ﷺ»(٣). وقال عبدالله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبدالله بن عمر قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر: وأنا رأيته متعلقًا بحِقْب ناقة رسول الله ﷺ تنْكُبه الحجارة، وهو يقول يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله يقول: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وقد رواه

---

(١) في تفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير: «ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونًا»

(٢) سفع الطائر ضريبته - كمنع - لطمها بجناحيه، وسفع فلان فلانًا لطمه وضربه، والمعنى أن الحجارة تضرب رجليه من سرعة المسير وأنه مشغول عن ذلك.

(٣) النسعة بكسر النون وسكون المهملة، سير مضفور يجعل زمامًا للبعير وغيره(*).

(*) قوله: (النسعة بكسر النون وسكون المهملة سير مضفور يُجعل زمامًا للبعير وغيره) أقول في قوله يُجعل زمامًا للبعير نظر والصواب أن النسعة حبل يشد به الرحل ولا يطلق على الزمام قال في القاموس: (النسع بالكسر سير ينسج عريضًا على هيئة أعنة النعال، يشد به الرحال والقطعة منه نسعة، وسمي نسعًا لطوله انتهى المقصود.

عن ابن عمر، ومحمد بن كعبٍ، وزيد بن أَسْلَم، وقتادة - دخل حديثُ بعضهم في بعض - أنه قال رجل في غَزْوة تبوك: «مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنا هٰؤلاءِ أَرْغَبُ بُطونًا، وَلَا أَكْذَبُ أَلْسُنًا، ولَا أَجْبَنُ عِنْدَ اللِّقاءِ؛ يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وأَصْحابه القُرَّاء، فَقالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مالِكٍ: كَذبْتَ، ولٰكِنَّكَ مُنافِقٌ، لأخبرنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، فَذَهَبَ عَوْف إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجدَ القُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجاءَ ذٰلِكَ الرَّجُلُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ وقَدِ ارْتَحلَ ورَكِبَ ناقَتَهُ، فَقالَ: يا رَسُولَ اللهِ، إنَّما كُنَّا نَخوضُ ونَتَحدَّثُ حَديثَ الرَّكْبِ

الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق: «وقد كان جماعة من المنافقين، منهم: وَديعة بن ثابت أخو بني أمية ابن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع، حليف لبني سلمة، يقال له: مُخْشِيُّ بن حِمْير، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنا بكم غدًا مُقرّنين في الجبال؛ إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين، فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أني أقاضي على أن يُضْرَبَ كلُّ رجل منا مائة جلدة؛ وإنا نتفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغني - لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فسلهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بَلىٰ قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت - ورسول الله ﷺ واقف على راحلته - فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي، فكأن الذي عناه أي: بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ في هذه الآية: مخشي بن حمير فسُمِّي عبدالرحمن، وسأل الله أن يُقتل شهيدًا لا يُعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أثر».

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: «كان رجل ممن - إن شاء الله - عفا عنه يقول: اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها تَقْشَعِرُّ منها الجلود، وتَجِلُ منها القلوب، اللهم فاجعل وفاتي قتلًا في سبيلك، لا يقول أحد أنا غَسَّلْتُ، أنا كفنت، أنا دفنت، قال: فأصيب يوم اليمامة، فما أحد من المسلمين إلا وقد وُجدَ غيرُه».

وقوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أي: بهذه المقالة التي استهزأتم بها ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أي: مخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أي: لا يعفى عن جميعكم؛ ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ أي: بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة. انتهى.

نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ. قالَ ابْنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ ناقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وإِنَّ الحِجارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وهُوَ يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخوضُ ونَلْعَبُ. فَيَقولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ ما يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وما يَزيدهُ عَلَيْهِ».

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة - أن مَنْ هزَلَ بهذا إنه كافر.

قال شيخ الإسلام: وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولًا بقلوبهم: لا يصح لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم؛ فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أُريد أنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم؛ وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين.

وقال رحمه الله في موضع آخر: فقد أخبر أنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له؛ بل إنما كنا نخوض ونلعب، وبين أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلا ممن شرح صدرًا بهذا الكلام؛ ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أن يتكلم بهذا الكلام؛ والقرآن يبين أن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه. كقوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ - إلى قوله - ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور:٤٧-٥١] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول، وأخبر أن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأطاعوا، فبين أن هذا من لوازم الإيمان، انتهى.

وفيه: بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أو عمل يعمل به[1] وأشدها خطرًا

---

(١) ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله؛ وعدم احترامهم لأجلهم(*).

(*) قوله: (ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله وعدم احترامهم لأجله) أقول: هذا القول فيه إجمال، والصواب التفصيل فإن كان الاستهزاء بالعلم الشرعي أو بالعلماء لأجله فلا شك أن ذلك ردة عن الإسلام، لأنه تنقص لما عظمه الله واستخفاف به، وفي ضمن ذلك احتقاره والتكذيب به، أما إن كان الاستهزاء بالعلماء يرجع إلى أمر آخر كالملابس أو حرص بعضهم على الدنيا أو اعتيادهم خلاف ما عليه الناس من العوائد التي لا تعلق لها بالشرع أو لما يشبه ذلك فهذا وأشباهه لا يكون ردة عن الإسلام لأنه لا يرجع إلى الدين وإنما يرجع إلى أمور أخرى والله سبحانه وتعالى أعلم.

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

الثالثة: الفرقُ بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الاعتذارِ ما لا ينبغي أن يُقبل.

إرادات القلوب. فهي كالبحر الذي لا ساحل له. ويفيد الخوف من النفاق الأكبر. فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيمانًا قبل أن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أبي مُليكة: «أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه». نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

* * *

٤٨ - باب

قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

قال مجاهد: «هٰذا بِعَمَلِي وأَنا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وقال ابن عباس: «يُريدُ مِنْ عِنْدي».

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال قتادة: «عَلى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجوهِ المَكاسِبِ».

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾) [فصلت: ٥٠].

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها، ما يكفي في المعنى ويشفي.

قوله: (قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به. وقال ابن عباس: يريد: من عندي).

وقوله: (﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب» وقال آخرون: «على علم من الله أني له أهل» وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف»).

وليس فيما ذكروه اختلاف وإنما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩] يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى وبغى و﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خولني هذا[١]. قال تعالى: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي: ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي؟! مع علمنا المتقدم بذلك ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾[٢] أي اختبار ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون؛ ويدعون ما يدعون: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم، وما كانوا يكسبون. كما قال تعالى مخبرًا عن قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى

---

(١) في تفسير ابن كثير زيادة: قال قتادة: «﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾: على خير عندي».

(٢) في ابن كثير: «مع علمنا بذلك فهي فتنة».

وقال آخرون: «عَلى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ» وهذا معنى قول مجاهد: «أُوتِيتُهُ عَلى شَرَفٍ».

وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرائيل: أَبْرَصَ، وأَقْرَعَ، وأَعْمَى. فَأَرادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا. فَأَتى الأَبْرصَ، فَقالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وجِلْدٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ. قالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وجِلْدًا حَسَنًا. قالَ: فَأَيُّ المالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: الإِبْلُ أَوِ البَقَر - شَكَّ إِسْحاقُ - فَأُعْطِيَ ناقَةً عُشَراءَ، وقالَ: بارَكَ اللهُ لَكَ فِيها. قالَ فَأَتى الأَقْرَعَ، فَقالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، ويَذْهَبُ عَنِّي الَّذي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ بِهِ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا.

ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٦-٧٨]

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

قوله: (وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن سمع رسول الله ﷺ يقول: إن ثلاثة)[١] - الحديث.

(أخرجاه) أي: البخاري ومسلم. والناقة العشراء - بضم العين وفتح الشين وبالمد - هي: الحامل.

قوله: (أُنتج) وفي رواية: (فنتّج) معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله: (ولّد هذا) وهو بتشديد اللام، أي: تولى ولادتها، وهو بمعنى (أُنتج) في الناقة؛ فالمَولّد والناتج والقابلة بمعنى واحد؛ لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره وقوله: (انقطعت بي الحبال) هو بالحاء المهملة والباء الموحدة: هي الأسباب. قوله: (لا أجهدك) معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذ، أو تطلبه من مالي. ذكره النووي.

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر: فإن الأولَين جحدا نعمة الله، فما أقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إلى المنعم بها، ولا أديا حق الله فيها، فحلّ عليهما السخط، وأما الأعمى فاعترف بنعمة الله؛ ونسبها إلى من أنعم عليه بها، وأدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أتى بأركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إلا بها، وهي: الإقرار بالنعمة ونسبتها إلى المنعم، وبذلها فيما [يحب].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله[٢]: أصل الشكر هو: الاعتراف بإنعام المنعم على وجه

---

(١) وقد حذفناه من الشرح منعًا للتكرار.

(٢) في مدارج السالكين ج ٢ ص ١٣٥-١٤٤.

فَقالَ: أَيُّ المالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: البَقَرُ أَوِ الإبْلُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حامِلًا، قالَ: بارَكَ اللهُ لَكَ فِيها، فَأَتى الأَعْمى، فَقالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَري فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قالَ: فَأَيُّ المالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قالَ: الغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شاةً والِدًا. فَأَنْتَجَ هٰذانِ ووَلَّدَ هٰذا. فَكانَ لِهٰذا وادٍ مِنَ الإبْلِ، ولِهٰذا وادٍ مِنَ البَقَرِ، ولِهٰذا وادٍ مِنَ الغَنَمِ، قالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتى الأَبْرَصَ في صورَتِهِ وهَيْئَتِهِ. فَقالَ: رَجُلٌ مِسْكينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِي الحِبالُ في سَفَري فَلَا بَلَاغَ لِي اليَوْمَ إِلَّا باللهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذي أَعْطاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ والجِلْدَ الحَسَنَ والمالَ - بعيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَري، فَقالَ: الحُقوقُ كَثيرَةٌ، فَقالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ. فَقيرًا، فَأَعْطاكَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ المالَ، فَقالَ: إِنَّما وَرِثْتُ هٰذا المالَ كابِرًا عَنْ كابِرٍ. فَقالَ: إِنْ كُنْتَ كاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلى ما كُنْتَ.

وأَتى الأَقْرَعَ في صورَتِهِ [وهَيْئَتِهِ]، فَقالَ لَهُ مِثْلَ ما قالَ لِهٰذا، ورَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ ما رَدَّ عَلَيْهِ هٰذا. فَقالَ: إِنْ كُنْتَ كاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلى ما كُنْتَ. قالَ: وأَتى الأَعْمى في صورَتِهِ وهَيْئَتِهِ، فَقالَ: رَجُلٌ مِسْكينٌ وابْنُ سَبيلٍ. قَدِ انْقَطَعَتْ بِي الحِبالُ في سَفَري. فَلَا بَلاغَ لِي اليَوْمَ إِلَّا باللهِ ثُمَّ بِكَ. أَسْأَلُكَ بِالَّذي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شاةً أَتَبَلَّغُ بِها في سَفَري. فَقالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَري، فَخُذْ ما شِئْتَ ودَعْ ما شِئْتَ، فَواللهِ لَا أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ. فَقالَ: أَمْسِكْ مالَكَ، فَإِنَّما ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وسَخِطَ عَلى صاحِبَيْكَ» أخرجاه.

الخضوع له؛ والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلًا بها لم يشكرها؛ ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، [ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها]، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأقرّ بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ولم يرض به وعنه، لم يشكره أيضًا. ومن عرفها وعرف المنعم بها وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له.

قوله: (قذرني الناس) بكراهة رؤيته وقربه منهم.)

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العِبَرِ العظيمة.

* * *

٤٩ - باب

قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قوله: (باب قول الله ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال الإمام أحمد رحمه الله في معنى هذه الآية: حدثنا عبدالصمد: حدثنا عمر بن إبراهيم حدَّثنا قتادة عن الحسن عن سَمُرة عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال: سَمِّيه عبدالحارث فإنه يعيش، فسمته عبدالحارث فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره» وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار بُندار، عن عبدالصمد بن عبدالوارث به. ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبدالصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه. ورواه الحاكم في مستدركه من حديث عبدالصمد مرفوعًا، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في تفسيره عن أبي زرعة الرازي، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم. به مرفوعًا[1].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع حدثنا سهيل بن يوسف عن عمرو، عن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ قال: «كان هذا في بعض أهل الملل ولم يكن بآدم». وحدثنا بشر بن معاذ قال: حدثني يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: «هم اليهود والنصارى،

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: والغرض أن هذا الحديث معلول من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن عمر بن إبراهيم هذا هو البصري، وقد وثقه ابن معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي: لا يُحتَجُّ به.

ولكن رواه ابن مردويه من حديث المعتمر عن أبيه، عن الحسن، عن سمرة مرفوعًا. فالله أعلم.

الثاني: أنه قد روى من قول سمرة نفسه، وليس مرفوعًا. كما قال ابن جرير.

الثالث: أن الحسن نفسه فسر الآية بغير هذا. فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعًا لما عدل عنه - ثم ساق ابن كثير الروايات عن الحسن، بمثل ما روى ابن جرير عنه ثم قال: هذه أسانيد صحيحة عن الحسن: أنه فسر الآية بذلك؛ وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية.

ولو كان هذا الحديث عنده محفوظًا عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه وورعه. فهذا يدلك على أنه موقوف على الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه عن بعض أهل الكتاب من آمن منهم، مثل: كعب أو وهب ابن منبه أو غيرهما كما سيأتي بيانه إن شاء الله، إلا أننا برئنا من عهدة المرفوع. والله أعلم اهـ. وقال الإمام أبو محمد بن حزم في كتاب الملل والنحل: وهذا الذي نسبوه إلى آدم من أنه سمى ابنه عبدالحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لا دين له ولا حياء؛ ولم يصح سندها قط وإنما نزلت الآية في المشركين على ظاهرها. اهـ.

قال ابن حزم: «اتَّفَقُوا عَلى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْم مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ. كَعَبْدِ عَمْرو وعَبْدِ الكَعْبَة. وما أَشْبَهَ ذٰلِكَ، حاشا عَبْد المُطَّلِبِ».

رزقهم الله أولادًا فهوّدوا ونَصَّروا» وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله.

قال العماد ابن كثير في تفسيره وأما الآثار فقال محمد بن إسحاق: عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولادًا فتُعبِّدهم لله وتُسمِّيهم عبدالله وعبيدالله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت، فأتاهما إبليس فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت له رجلًا فسماه عبدالحارث، ففيه أنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٩] وقال العوفي عن ابن عباس: «فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون، أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل، إنه لَغَوِيٌّ مبين؛ وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سويًّا، ومات كما مات الأول. فسميا ولدهما عبدالحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾».

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ورواه ابن أبي حاتم، وقد تلقَّى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ومن الطبقة الثانية: قتادة والسدي وجماعة من الخلف؛ ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، قال العماد ابن كثير: وكأن أصله - والله أعلم - مأخوذ من أهل الكتاب[(١)].

قلت: وهذا بعيد جدًّا.

قوله: (قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله كعبد عمرو وعبدالكعبة، وما أشبه ذلك، حاشَا عبدالمطلب).

ابن حزم: هو عالم الأندلس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأربعمائة وله اثنتان وسبعون سنة.

وعبدالمطلب هذا: هو جد رسول الله ﷺ، وهو ابن هاشم بن عبدمناف بن قُصَيِّ بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزيمة بن

---

(١) قال ابن كثير: وهذه الآثار يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، أما نحن فعلى مذهب الحسن البصري في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المشركون من ذريته؛ ولهذا قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[(*)].

(*) فائدة: قال شيخنا العلامة الشيخ عبدالله بن حسن آل الشيخ - أطال الله حياته لنفع المسلمين - أما قوله تعالى في آخر الآية: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس المراد به آدم وحواء، لأن الكلام قد تم قبله، وهذا ابتداء كلام مستأنف، وإنما المراد به المشركون؛ وما ساقه الشارح رحمه الله في قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ هو القول المعتمد الذي يدل عليه ظاهر القرآن اهـ.

. . . .

مُدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبّد لغير الله، لأنه شرك في الربوبية والإلهية، لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبد الله ووحده في ربوبيته وإلهيته؛ ومنهم من أشرك به في إلهيته وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامُه القدَرية جاريةٌ عليهم ولا بد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] فهذه هي العبودية العامة، وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ونحوها.

قوله: (حاشا عبدالمطلب) هذا استثناء من العموم المستفاد من «كل» وذلك أن تسميته بهذا الاسم لا محذور فيها، لأن أصله من عبودية الرق؛ وذلك أن المطلب أخو هاشم قدم المدينة؛ وكان ابن أخيه «شيبة» - هذا - قد نشأ في أخواله بني النجار من الخزرج، لأن هاشمًا تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن، فلما شب في أخواله؛ وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إلى مكة بلد أبيه وعشيرته[١] فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أهل مكة وقد تغير لونه بالسفر، فحسبوه عبدًا للمطلب، فقالوا: هذا عبد المطلب، فعَلِق به هذا الاسم وركبه؛ فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به[٢]، فلم يبق للأصل معنى مقصود. وقد قال النبي ﷺ: «أنا ابن عبدالمطلب»[٣] وقد صار معظمًا في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأشرفهم في جاهليته؛ وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده. و«عبدالله» والد رسول الله ﷺ أحد بني عبدالمطلب، وتوفي في حياة أبيه، قال الحافظ صلاح الدين العلائي في كتاب الدرة السنية في مولد خير البرية: كان سن أبيه عبدالله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عامًا؛ ثم ذهب إلى المدينة ليمتار منها تمرًا لأهله فمات بها عند أخواله بني عدي بن النجار، والنبي ﷺ حملٌ على الصحيح. انتهى.

---

(١) وكانت أمه سلمى قد شرط أبوها عمرو بن زيد الخزرجي النجاري على هاشم أن تلد عنده بالمدينة، فولدت له شيبة، ومات هاشم في الشام فبقي شيبة بالمدينة عند أخواله بني عدي بن النجار سبع سنين حتى ذهب عمه المطلب إليه وأحضره إلى مكة.

(٢) واسمه العلم: شيبة الحمد.

(٣) روى البخاري ومسلم عن البراء بن عازب - وسأله رجل من قيس: «أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟ فقال: لكن رسول الله لم يفر، كانت هوازن رماة وإنا لما حملنا عليهم انكشفوا؛ فأكببنا على الغنائم فاستقبلتنا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإن أبا سفيان آخذ بزمامها يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب، اللهم نزل نصرك. وكنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله، وإن الشجاع الذي يحاذي به».

وعن ابن عباس في الآية: «قالَ: لَما تَغَشّاها آدَمُ حَمِلَتْ، فأَتاهُما إِبْلِيسَ، فَقالَ: إِنِّي صاحِبكُما الَّذي أَخْرَجْتُكُما مِنَ الجَنَّةِ لتُطيعُنني أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَي أيْلٍ. فَيَخْرُج مِنْ بَطْنِك فَيَشُقُّهُ، ولأفعلنَّ ولأفعلنَّ، يُخَوِّفَهُما، سَمِّياهُ عَبْدَ الحارِثِ، فَأَبَيا أَنْ يُطيعاهُ، فَخَرَجَ مَيْتًا، ثُمَّ حَملَتْ، فَأَتاهُما، فَقالَ مِثْلَ قَوْلِهِ، فَأَبَيا أَنْ يُطيعاهُ، فَخَرَجَ مَيْتًا، ثُمَّ حَملَتْ فَأَتاهُما، فَذَكَرَ لَهُما فَأَدْرَكَهُما حُبُّ الوَلَد، فَسَمَّياهُ عَبْدَ الحارِثِ فَذلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شُرَكاءُ في طاعَتِهِ، ولَمْ يَكُنْ في عِبادَتِهِ».

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: «أَشْفِقا أَنْ لَا يَكونَ إِنْسانًا» وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

قلت: وصار النبي ﷺ لما وضعته أمه في كفالة جده عبدالمطلب، قال الحافظ الذهبي: وتوفي أبوه عبدالله وللنبي ﷺ ثمانية وعشرون شهرًا، وقيل أقل من ذلك، وقيل: وهو حمل. توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار تمرًا، وقيل: بل مرّ بها راجعًا؛ من الشام، وعاش خمسًا وعشرين سنة، قال الواقدي: وذلك أثبت الأقاويل في سنه ووفاته، وتوفيت أمه آمنة بالأبواء، وهي راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أخوال أبيه بني عدي بن النجار، وهو يومئذٍ ابن ست سنين ومائة يوم؛ وقيل: ابن أربع سنين. فلما ماتت أمه حملته أم أيمن مولاته إلى جده؛ فكان في كفالته إلى أن توفي جده، وللنبي ﷺ ثمان سنين فأوصى به إلى عمه أبي طالب اهـ.

قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية) قد قدمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى.

قوله: (وله بسند صحيح عن قتادة قال «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته») قال شيخنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس، وهو محمل حسن يبين أن ما وقع من الأبوين من تسميتهما ابنهما عبدالحارث إنما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله[١].

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

الرابعة: إن هِبةَ الله للرجل البنتَ السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

* * *

(١) كتسمية عبدعلي وعبدحسين وغلام الحسين، وعبدالنبي وعبدالرسول.

٥٠ - باب

قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠].

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] الآية[١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر». أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة. ورواه البخاري عن أبي اليمان، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عنه. وأخرجه الجوزجاني عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله. وزاد بعد قوله «يحب الوتر -: هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارئ، المصور، القهار، الغفار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفوّ، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب. وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث. والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه. وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبدالملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك. أي: أنهم جمعوها من القرآن: كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان وأبي زيد اللغوي والله أعلم.

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في تفسيره. ثم قال: ليعلم أن الأسماء الحسنى ليست

---

(١) في قرة عيون الموحدين: أراد رحمه الله بهذه الترجمة الرد على من يتوسل بالأموات وأن المشروع هو التوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا، والأعمال الصالحة.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ يُشْرِكونَ».

وعنه سَمَّوا اللاتَ من الإله، والعُزَّى من العزيز.

منحصرة في تسعة وتسعين. بدليل ما رواه أحمد عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني، عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن عبدالله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال: «ما أصاب أحدًا قط هَمٌّ ولا حَزَن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك؛ ابن أمتك، ناصيتي بيدك. ماضٍ فِيَّ حكمك. عَدلٌ فِيَّ قضاؤك. أسألك اللهم بكل اسم هو لك. سميت به نفسك. أو أنزلته في كتابك. أو علمته أحدًا من خلقك. أو استأثرت به في علم الغيب عندك. أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري. وجلاء حزني. وذهاب هَمِّي وغمي. إلا أذهب الله همه وحزنه. وأبدله مكانه فرحًا. فقيل: يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ فقال: بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها» وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه.

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال: «إلحاد الملحدين: أن دعوا اللات في أسماء الله» وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال: «اشتقوا اللّات من الله، واشتقوا العزّى من العزيز».

وقال قتادة: «يلحدون: يشركون» وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: «الإلحاد»: التكذيب.

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد. والميل والجور والانحراف. ومنه اللحد في القبر، لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر. قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشـــ ـــراك والتعطيل والنكران

وأسماء الرب تعالى كلها أسماء، وأوصاف تعرّف بها تعالى إلى عباده ودلت على كماله جل وعلا.

وقال رحمه الله: فالإلحاد إما بجحدها وإنكارها، وإما بجحد معانيها وتعطيلها وإما بتحريفها عن الصواب، وإخراجها عن الحق بالتأويلات، وإما أن يجعلها أسماء لهذه المخلوقات كإلحاد أهل الاتحاد، فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون محمودها ومذمومها حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلًا وشرعًا وعرفًا، وبكل اسم مذموم عقلًا وشرعًا وعرفًا، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، انتهى.

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة متقدمهم ومتأخرهم: إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته. إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل. كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

وعن الأعمش: «يدْخلونَ فِيهَا ما لَيْسَ مِنْها».

[الشورى: ١١] وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات. يحتذي حذوه ومثاله. فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتًا حقيقة لا تشبه شيئًا من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئًا من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئًا مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فائدة جليلة

ما يجري صفة أو خبر على الرب تباركْ وتعالى أقسام.

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته؛ كالعليم والقدير، والسميع والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله. كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بد من تضمنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس والسلام.

الخامس: - ولم يذكره أكثر الناس - وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد العظيم الصمد، فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال؛ ولفظه يدل على هذا. فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه: «استمجد المرخ والعفار»[1] وأمجد الناقة، علفها. ومنه (رب العرش المجيد) صفة للعرش لسعته وعظمته وشرفه، وتأمل كيف جاء هذا الاسم مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علمناه ﷺ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه. فأتى في هذا المطلب باسم يقتضيه؛ كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها. ومنه الحديث الذي في الترمذي: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام» ومنه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام» فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده وأنه لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة وأعظمه موقعًا عند المسؤول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

---

(١) المرخ: شجر سريع الوري والاشتعال. والعفار - كسحاب -: شجر يتخذ منه الزناد، والمراد: كثرت النار، ويضرب المثل للكثرة.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر. وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو: الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن. فإن: «الغني» صفة كمال و«الحمد»، واجتماع: «الغنى» مع «الحمد» كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله فإنه أشرف المعارف.

* * *

٥١ - باب
لا يقال: السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كُنَّا إِذا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في الصَّلَاةِ قُلْنا: السَّلَامُ عَلى اللهِ مِنْ عِبادِهِ، السَّلَامُ عَلى فُلَانٍ وفُلَانٍ. فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا تَقولوا السَّلَامُ عَلى اللهِ. فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ».

قوله: (باب لا يقال: السلام على الله).

قوله: (في الصحيح عن ابن مسعود الخ) هذا الحديث رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه من حديث شقيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله قبل عباده؛ السلام على فلان وفلان - الحديث» وفي آخره ذكر التشهد الأخير. رواه الترمذي من حديث الأسود ابن يزيد عن ابن مسعود، وذكر في الحديث سبب النهي عن ذلك بقوله: «فإن الله هو السلام ومنه السلام» وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثًا ويقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام». وفي الحديث: «إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى» وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة. كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

ومعنى قوله: «إن الله هو السلام» أن الله سالم من كل نقص ومن كل تمثيل. فهو الموصوف بكل كمال؛ المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: السلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء. يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبر فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية. وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل. ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم ونحو ذلك. فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم «السلام» دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة. وهو المطلوب المدعو به عند التحية ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي مُنكرًا، فيقول المسلّم: «سلام عليكم» ولو كان اسمًا من أسماء الله لم يستعمل كذلك، ومن حجتهم: أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى؛ وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبرًا ودعاء.

قال العلّامة ابن القيم رحمه الله: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين. فكل منهما بعض الحق؛ والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهي: أن حق

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه. فإذا قال: رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الغفور، فقد سأله أمرين وتوسل إليه باسمين من أسمائه؛ مقتضيين لحصول مطلوبه، وقال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وقد سأله ما يدعو به: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك؛ وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في طلبها بصيغة اسم من أسماء الله تعالى وهو «السلام» الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما: ذكر الله، والثاني: طلب السلامة وهو مقصود المسلم. فقد تضمن «سلام عليكم» اسمًا من أسماء الله وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة. وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذاك قولهم: سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: «رب سلم سلم» ومنه سلم الشيء لفلان، أي خلص له وحده. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] أي: خالصًا له وحده لا يملكه معه غيره، ومنه السِّلم ضد الحرب: لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بنى فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل المشاركة ومنه: القلب السليم وهو النقي من الدغل والعيب. وحقيقته: الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته، ومنه أخذ الإسلام، فإنه من هذه المادة، لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك؛ فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه وللمشرك به.

* * *

٥٢ - باب
قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا مُكْرِه لَهُ».

قوله: (باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت).

يعني: أن ذلك لا يجوز لورود النهي عنه في حديث الباب.

قوله: (في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت. ليَعْزِم المسألة فإن الله لا مُكره له»). بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته، لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره. فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلِّق حصول حاجته على مشيئة المسؤول؛ مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام. وفي الحديث: «يَمينُ الله مَلأى لا يَغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق السمٰوات والأرض؟ فإنه لم يَغِضْ ما في يمينه؛ وفي يده الأخرى القِسْطُ يَخفضه ويرفعه»[1] يعطي تعالى لحكمة ويمنع لحكمة وهو الحكيم الخبير. فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئًا عن كراهة ولا عن عظم مسألة، وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم في عين الصغير صغارها ... ويصغر في عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة ويمنع أكثر، ويعطي كرهًا؛ والبخل عليه أغلب، وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال من حين وضعت النطفة في الرحم، فنعمه على الجنين في بطن أُمه دارّة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعته أُمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أشدّه، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ما كان عليه في الدنيا

---

(١) رواه البخاري في عدة مواضع من الجامع، ومسلم عن أبي هريرة وفيه زيادة: «وكان عرشه على الماء» بعد «خلق السموات والأرض» وفي تفسير سورة هود من البخاري أول الحديث: «أنفق أنفق عليك، وقال: يد الله ملأى - الحديث» قال الحافظ في الفتح: وترد رواية «يمين الله» على من فسر اليد هنا بالنعمة، وأبعد منه من فسرها بالخزائن. اهـ. ومعنى «يغيضها» ينقصها، يقال: غاض الماء إذا نقص؛ ومعنى «سحاء» أي دائمة الصب والعطاء الكبير.

ولمسلم: «وليُعْظِمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطاهُ».

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: «لِيَعْزِمِ المَسْأَلَة».

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين، وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدّرها وأجراها عن كرمه وجوده وفضله، فله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣] وقد يمنع سبحانه عبده إذا سأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدر، أو ليعطيه أكثر. فتبارك الله رب العالمين.

وقوله: (ولمسلم: وليعظم الرغبة) أي: في سؤاله ربّه حاجته؛ فإنه يعطي العظائم كرمًا وجودًا وإحسانًا. فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه، أي: ليس شيء عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق. لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله بخلاف رب العالمين، فإن عطاءه كلام ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يسٓ: ٨٢] فسبحان من لا يقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولا رب سواه.

* * *

٥٣ - باب
لا يقول: عبدي وأمَتي

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَقولَنَّ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ، ولْيَقُلْ: سَيِّدي ومَوْلَايَ، ولَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدي وأَمَتِي، ولْيَقُلْ: فَتايَ وفَتاتِي وغُلَامي».

قوله: (باب لا يقول: عبدي وأمَتي).

ذكر الحديث الذي في الصحيح: (عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقولن أحدكم: أطعم رَبَّك. وضِّئْ ربك. وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»).

هذه الألفاظ المنهي عنها، وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد وسدًّا لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ. لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم. فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه ذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له. فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار، فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ. وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى؛ وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: «سيدي ومولاي» وكذا قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي» لأن العبيد عبيدالله، والإماء إماء الله. قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى وأدبًا وبعدًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا: «فتاي وفتاتي وغلامي» وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلّغ ﷺ أُمته كل ما فيه لهم نفع؛ ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين، فلا خير إلا دَلّهم عليه؛ خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا وإن لم يقصد به. وبالله التوفيق.

فيه مسائل:

الأولى: النهيُ عن قولِ: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: رَبِّي، ولا يقال له: أطْعِمْ رَبّك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي، وفتاتي، وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

* * *

٥٤ - باب
لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ باللهِ فَأَعْطوه، ومَنِ اسْتعاذَ باللهِ فَأَعيذُوه، ومَنْ دَعاكُمْ فَأَجيبوه، ومَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْروفًا فَكافِئوه، فَإِنْ

قوله: (باب لا يردُّ من سأل بالله).

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله، لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة، فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوبًا؛ وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضلٌ، فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته، خصوصًا إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضر به ولا يضر عائلته، وإن كان مضطرًّا وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ما جبلوا عليه من الكرم والجود وضدِّهما من البخل والشح. فالأول محمود في الكتاب والسنة، والثاني مذموم فيهما. وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه، وتعديه، وكثرة ثوابه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۞ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧، ٢٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ [الحديد: ٧]. وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة. ذلك - والله أعلم - لتعدي نفعه. وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده. وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء، نصحًا للأمة وحثًّا لهم على ما ينفعهم عاجلًا وآجلًا، وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضي الله عنهم بالإيثار؛ فقال

لَمْ تَجِدوا ما تُكافِئونَهُ فَادْعوا لَهُ، حَتّى تَرَوا أَنَّكُمْ كافَأْتُموه» رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جدًّا، ومن كان سعيه للآخرة رغب في هذا ورغّب؛ وبالله التوفيق.

قوله: (من دعاكم فأجيبوه) هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين.

قوله: (ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه) ندبهم ﷺ على المكافأة على المعروف، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس؛ وبعض اللئام يكافئ على الإحسان بالإساءة؛ كما يقع كثيرًا من بعضهم. نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة، بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة.

قوله: (فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له) أرشدهم ﷺ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة مكافأة للمعروف فيدعو له على حسب معروفه.

قوله: (تُروا - بضم التاء تظنوا - أنكم قد كافأتموه) ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى تعلموا. ويؤيده ما في سنن أبي داود من حديث ابن عمر «حتى تعلموا» فتعين الثاني للتصريح به. وفيه: «من سألكم بالله فأجيبوه» أي: إلى ما سأل، فيكون بمعنى: أعطوه، وعند أبي داود

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: «حَتّى تَرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كافَأْتُموه».

في رواية أبي نُهيك عن ابن عباس: «من سألكم بوجه الله فأعطوه» وفي رواية عبيدالله القواريري لهذا الحديث: «ومن سألكم بالله» كما في حديث ابن عمر.

* * *

٥٥ - باب
لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّة». رواه أبو داود.

قوله: (باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة).

ذكر فيه حديث جابر - (رواه أبو داود عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»).

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف، حين كذبه أهل الطائف ومن في الطائف من أهل مكة، فدعا ﷺ بالدعاء المأثور: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي؛ إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يَتَجهّمني؛ أو إلى عدو مَلكته أمري؟ إن لم يك بك غضب عليّ فلا أُبالي؛ غير أن عافيتك هي أوسع لي» وفي آخره «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة. أن يَحُلّ عليّ غضبك، أو ينزلَ بي سَخطك. لك العُتْبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1] والحديث المروي في الأذكار: «اللهم أنت أحق من ذُكر وأحق من عُبد - وفي آخره - أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض» وفي حديث آخر: «أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم وبكلماته التامة من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت، أي رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة». وأمثال ذلك من الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يُقَرِّب إلى الجنة أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الصحيح: «اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل». بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا؛ مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة. فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله. وعلى هذا فلا تعارض بين الأحاديث. كما لا يخفى. والله أعلم.

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى. فإنه صفة كمال وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها.

---

(١) رواه ابن إسحاق والطبراني، عن عبدالله بن جعفر.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يُسأَلَ بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثباتُ صفةِ الوجه.

فوقعوا في أعظم مما فروا منه، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا. وطريقة أهل السنة والجماعة سلفًا وخلفًا: الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله ﷺ في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون له ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق، فكما أن ذات الرب لا تشبه الذوات فصفاته كذلك لا تشبه الصفات؛ فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

* * *

٥٦ - باب
ما جاء في اللّو

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].
وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قوله: (باب ما جاء في اللّو).

أي: من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات، مما لا يمكن استدراكه، فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة وهو الصبر على ما أصاب العبد مما يكره، والإيمان بالقدر أصل من أصول الإيمان الستة، وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على «لو» وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفًا كنظائرها، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركًا ... شديدًا بأعباء الخلافة كاهله

وقوله: (وقول الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال بعض المنافقين يوم أُحد، لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه، عن عبدالله بن الزبير قال: قال الزبير: «لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير ما أسمعه إلا كالحُلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا، فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عزّ وجلّ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب» رواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي: هذا قدر مقدّر من الله عزّ وجلّ وحكم حتم لازم لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقوله ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨] الآية.

قال العماد ابن كثير: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ أي: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت؛ فينبغي لكم ألا تموتوا، والموت لا بد آت إليكم؛ ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، قال مجاهد عن جابر بن عبدالله: «نزلت هذه الآية في عبدالله بن أُبيّ وأصحابه» يعني: أنه هو الذي قال ذلك. وأخرج البيهقي عن أنس: أن أبا

في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «احْرَصْ عَلى مَا يَنْفَعُكَ

طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أُحد، فجعل يسقط سيفي وآخذه ويسقط وآخذه. قال: والطائفة الأخرى - المنافقون - ليس لهم هَمٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم؛ وأرعبه، وأخذله للحق ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] إنما هم أهل ريب وشك بالله عز وجل».

قوله: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس عن القلق والجزع والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما وقع من عبد الله بن أُبي في غزوة أُحد قال: فلما انخذل يوم أُحد وقال: «يَدَعُ رأيي ورأيه ويأخذ برأي الصبيان»؟ أو كما قال. انخذل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك. فأولئك كانوا مسلمين وكان معهم إيمان، هو الضوء الذي ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقًّا الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقًّا الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة، وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيرًا وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالبًا، وقد رأينا من هذا ورأى غيرنا من هذا ما فيه عبرة، وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطنًا وظاهرًا، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة؛ ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض، وانتهاك المحارم وهؤلاء من الذين قالوا آمنا، فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] أي: الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقًّا، فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب، انتهى.

قوله: وقد رأينا من هذا - ورأى غيرنا من هذا - ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو؛ من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة؛ وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره. والله المستعان.

قوله: (في الصحيح) أي صحيح مسلم (عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احرص... الحديث»).

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث، وتمامه: عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك» أي:

واسْتَعِنْ باللهِ ولَا تَعْجزَن وإنْ أَصابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنَّني فَعَلْتُ كَذا لَكانَ كَذا وكَذا، ولٰكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وما شاءَ فَعَل. فَإن لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطانِ».

في معاشك ومعادك. والمراد: الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة؛ ويكون العبد في حال فعله السبب مستعينًا بالله وحده دون كل ما سواه ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك، لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون اعتماده في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما تم له مراده بإذن الله.

قوله: (ولا تعجزن) النون نون التأكيد الخفيفة. نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعًا وعقلًا، وفي الحديث: «الكيّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت؛ والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»(١) فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره ألا يقول: لو أنني فعلت كذا لكان كذا وكذا. ولكن يقول: قدّر الله وما شاء فعل، أي: هذا قدر الله والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قوله: (فإن «لو» تفتح عمل الشيطان) أي: لما فيها من التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد» وقال الإمام أحمد «ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن».

قال شيخ الإسلام رحمه الله - وذكر حديث الباب بتمامه - ثم قال في معناه: لا تعجز عن مأمور، ولا تجزع عن مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب؛ ونهى عن العجز وقال: «إن الله يلوم على العجز» والعاجز ضد (الذين هم ينتصرون) فالأمر بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمر بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه ويستعين الله ولا يعجز، وأمرٌ أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه؛ ولهذا قال بعض العقلاء - ابن المقفع أو غيره - الأمور أمران:

---

(١) رواه أحمد والترمذي - وحسّنه - والحاكم؛ وقال: صحيح على شرط البخاري وتعقبه الذهبي بأن فيه ابن أبي مريم وهو واهٍ. وهذا من حديث شداد بن أوس. وهو عندهم بدون كلمة «الأماني».

. . . .

أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه، وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له، فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها؛ وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله. واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين: فالأفعال مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]. ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]. ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١]. إلى آيات كثيرة من هذا الجنس والله أعلم.

والقسم الثاني: ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب. كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩]. والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم؛ والسيئة: المصائب. هذا هو الثاني من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع ولعل الناسخ أسقطه والله أعلم.

ثم قال رحمه الله: فإن الإنسان ليس مأمورًا أن ينظر إلى القدر عندما يؤمر به من الأفعال ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، ما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه وارض وسلم. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن: ١١] ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن أُخلَق بأربعين سنة؟ فَحَجَّ آدم موسى» لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة»[1] فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذنبًا. وأما كونه لأجل الذنب - كما يظنه طوائف من الناس - فليس مرادًا بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس. انتهى.

قال العلّامة ابن القيم رحمه الله: فتضمن هذا الحديث أصولًا عظيمة من أصول الإيمان. أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة. الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو القوي ويحب المؤمن القوي، وهو وتر ويحب الوتر، وجميل يحب الجمال؛ وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين؛ وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

---

(١) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، عن عمر بن الخطاب.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لَوْ» إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع، مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محمودًا وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصًا، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن حرص على ما لا ينفعه أو فعل ما ينفعه من غير حرص فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى، ولا يتم إلا بمعونته فأمره أن يعبده وأن يستعين به، فالحريص على ما ينفعه، المستعين بالله ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله؛ وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمَّة الأمور بيده ومصدرها منه وموردها إليه.

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» ههنا بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية. وهي النظر إلى القدر وملاحظته وأنه لو قدر له لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له ههنا أنفع من شهود القدر ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده؛ ولهذا قال: «فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أنني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حالة حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لا يستغني عنه العبد أبدًا، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر والكسب والاختيار والقيام بالعبودية ظاهرًا وباطنًا في حالتي حصول المطلوب وعدمه؛ وبالله التوفيق.

* * *

٥٧ - باب
النهي عن سب الريح

عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَسبوا الرِّيحَ فَإِذا رَأَيْتُمْ ما تَكْرَهونَ فَقولوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هٰذِهِ الرِّيحِ وخَيْرِ ما فيها، وخَيْرِ ما أُمِرَتْ بِهِ، ونَعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هٰذِهِ الرِّيحِ وشَرِّ ما فيها وشَرِّ ما أُمِرَتْ بِهِ» صححه الترمذي.

قوله: (باب النهي عن سب الريح).

عن أبي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أُمرت به». صححه الترمذي).

لأنها - أي الريح - إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها وأمره، لأنه هو الذي أوجدها وأمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه، كما تقدم في النهي عن سب الدهر وهذا يشبهه، ولا يفعله إلا أهل الجهل بالله ودينه وبما شرعه لعباده؛ فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أهل الجهل والجفاء وأرشدهم إلى ما يجب أن يقال عند هبوب الرياح، فقال: «إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به» يعني إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أمرت به. ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به» ففي هذا عبودية لله وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به؛ وتعرض لفضله ونعمته وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافًا لحال أهل الفسوق والعصيان الذين حُرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

* * *

٥٨ - باب

قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: (باب قول الله تعالى ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] الآية).

وهذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أُحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ﴾ يعني: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق؛ وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني: لا يغشاهم النُّعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة؛ وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة، عن ابن جريج قال: قيل: لعبدالله بن أُبيّ: «قُتل بنو الخزرج اليوم؟ قال: وهل لنا من الأمور من شيء»؟.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أُحد[1]: وقد فسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل وأنه يسلمه للقتل، وفُسّر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره ولا حكمة له فيه، ففسر بإنكار الحكمة. وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله ﷺ وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]. وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية - وهو المنسوب إلى أهل الجهل - وظن غير الحق، لأنه ظن غير ما يليق بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوء، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإلهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أنه ينصرهم ولا

---

(١) زاد المعاد: ج٢ ص ١٠٣-١٠٦. وقد بسط القول في ذلك أيضًا في إغاثة اللهفان.

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّر هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنْصُر رسوله، وأن أمره سيضمحلُّ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله وأن يظهره الله على الدين كله، وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظن السوء لأنه

يخذلهم، ولجنده بأنهم هم الغالبون، فمن ظن به أنه لا ينصر رسله ولا يتم أمره ولا يؤيده حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائهم ويظهرهم، وأنه لا ينصر دينه وكتابه، وأنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا. فقد ظن بالله ظن السوء؛ ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك وتأبى أن يذل حزبَه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به. فمن ظن به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله. وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره. فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته. وكذلك من أنكر أن يكون قَدّر ما قدره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة عن حكمة وغاية مطلوبة هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها، لا يخرج تقديرها عن الحكمة، لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثًا ولا خلقها باطلًا ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه فقد ظن به ظن السوء، ومن جَوّز عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يترك خلقه سُدًى معطلين عن الأمر والنهي، لا يرسل إليهم رسله ولا ينزل عليهم كتبه بل يتركهم هَمَلًا كالأنعام فقد ظن به ظن السوء؛ ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه والمسيء بإساءته، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه ويظهر للعالمين كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصًا لوجهه على امتثال أمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له على حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أو ظن به أنه يجوز عليه أن يؤيد أعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أنبياءه ورسله، ويجريها على أيديهم ليضلوا بها عباده؛ وأنه

ظن غير ما يليق به سبحانه وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يُديلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكونَ ما جَرَى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قَدرُه لحكمةٍ بالغة يستحق عليها الحمد، بل زَعَم أن ذلك لمشيئةٍ مجرَّدة، فذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظَنَّ السّوء فيما يختصُّ بهم، وفيما يَفْعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك مَنْ عَرَف الله وأسماءه وصفاته، وموجِب حِكمته وحمده، فَلْيَعْتَنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا ولْيَتُبْ إلى الله ولْيَسْتَغْفِره من ظنه بربه ظَنَّ السوء، ولو فَتَّشْتَ مَنْ

يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أفنى عمره في طاعته فيخلده في الجحيم في أسفل سافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلى عليين، وكلا الأمرين في الحسن عنده سواء؛ ولا يعرف امتناع أحدهما ووقوع الآخر إلا بخبر صادق، وإلا فالعقل لا يقضي بقبح أحدهما وحسن الآخر. فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أنه أخبر عن نفسه وصفاته وأفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنما رمز إليه رموزًا بعيدة، وأشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائمًا بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأراد من خلقه أن يتعبوا أذهانهم وقواهم وأفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه؛ وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي[1] أشبه منها بالكشف والبيان، وأحالهم في معرفة أسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أراد منهم أن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل؛ بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان. فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال إنه قادر ولم يبين، وعدَل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم؛ بل يوقع في الباطل المحال والاعتقاد الفاسد. فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم وأما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال وظاهر كلام المتَهَوِّكين الحيَارى هو الهدى والحق فهذا من أسوأ الظن بالله.

---

(١) يقال: كلمة محجية: مخالفة المعنى للفظ. وهي إما من معنى الناحية، وتقديرها أنها جاءت من غير حجاها، أو من معنى الفطنة وهي الأحجية والأحجوة. قال صاحب المثل السائر: وأما اللغز والأحجية فإنهما شيء واحد، وهو كل معنى يستخرج بالحدس والحزر لا بدلالة اللفظ عليه حقيقة ولا مجازًا، ولا يفهم منه غرضه. انتهى من هامش الأصل نقلًا عن سر الليال.

فَتَّشْتَ لرأيت عنده تَعَنُّتًا على القَدَر وملامَةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمُستَقِلٌّ ومستكثِرٌ، وفَتِّشْ نفسك، هل أنتَ سالم؟

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمةٍ   وإلا فـإنـي لا إخـالُـك نـاجـيًـا

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية، ومن ظن به أن يكون في مُلكه ما لا يشاء ولا يقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه كان معطلًا من الأزل إلى الأبد عن أن يفعل، ولا يوصف حينئذٍ بالقدرة على الفعل ثم صار قادرًا عليه بعد أن لم يكن قادرًا؛ فقد ظن به ظن لاسوء.

ومن ظن أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السمٰوات ولا النجوم، ولا بني آدم وحركاتهم وأفعالهم، ولا يعلم شيئًا من الموجودات في الأعيان، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا سمع له ولا بصر ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأنه لا يكلم أحدًا من الخلق ولا يتكلم أبدًا؛ ولا قال، ولا يقول، ولا له أمر ولا نهي يقوم به، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ليس فوق سمٰواته على عرشه بائن من خلقه، وأن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أسفل سافلين، وإلى الأمكنة التي يرغب عن ذكرها؛ وأنه أسفل كما أنه أعلى؛ وأن من قال: سبحان ربي الأسفل كان كمن قال: سبحان ربي الأعلى. فقد ظن به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن أنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإيمان والبر والطاعة والإصلاح. فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه لا يحب ولا يرضى؛ ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرُب من أحد من خلقه؛ ولا يقرب منه أحد، وأن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يسوي بين المتضادين؛ أو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلده في العذاب كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره في مساخطة ومعاداة رسله ودينه، فقط ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أن له ولدًا أو شريكًا، أو أن أحدًا يشفع عنده بدون إذنه، أو أن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إليه، وأنه نصب لعباده أولياء من دونه يتقربون بهم إليه، ويتوصلون بهم إليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم؛ فيدعونهم ويخافونهم ويرجونهم فقد ظن

. . . .

به أقبح الظن وأسوأه.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إليه، فقد ظن به خلاف حكمته وخلاف موجب أسمائه وصفاته وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا ترك شيئًا من أجله لم يعوضه خيرًا منه، أو من فعل شيئًا لأجله لم يعطه أفضل منه، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدقه في الرغبة والرهبة وتضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله، فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أهله.

ومن ظن أنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أطاعه، وسأله ذلك في دعائه، فقد ظن به خلاف ما تقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أنه إذا أغضبه وأسخطه وأوضع في معاصيه ثم اتخذ من دونه أولياء ودعا من دونه ملَكًا أو بشرًا حيًّا أو ميتًا يرجو بذلك أن ينفعه عند ربه ويخلصه من عذابه، فقد ظن به ظن السوء.

فأكثر الخلق بل كلهم - إلا من شاء الله - يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوص الحق ناقص الحظ؛ وأنه يستحق فوق ما شاء الله وأعطاه، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحقه ونفسه تشهد عليه بذلك؛ وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به. ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامنًا كمون النار في الزناد، فأقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتًا [وتعتُّبًا] على القدر وملامة له واقتراحًا عليه خلاف ما جرى به، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك هل أنت سالم من ذلك.

فإن تَنْجُ منها تنجُ من ذي عظيمة ... وإلا فإني لا إخالك ناجيًا

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، ولْيَتُبْ إلى الله ويستغفره في كل وقتٍ من ظنه بربه ظن السوء؛ وليظن لاسوء بنفسه التي هي مادة كل سوء ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم. فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه وصفاته كذلك وأفعاله كله حكمة ومصلحة ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

فلا تَظْنُنْ بربك ظنّ سوء ... فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قطُّ خيرًا ... فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل: يا نفس مأوى كل سوء ... أترجو الخير من ميت بخيل
وظُنّ بنفسك السوأى تجدها ... كذاك وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقى فيها وخير ... فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها ولكن ... من الرحمن فاشكر للدليل. اهـ

قوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾ قال ابن جرير في تفسيره: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾ الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يُظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع، يقول تعالى ذكره: على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء، يعني دائرة العذاب تدور عليهم به. واختلف القراء في قراءة ذلك: فقرأته عامة قراء الكوفة: (دائرة السوء) بفتح السين. وقرأ بعض قراء البصرة: (دائرة السوء) بالضم. وكان الفراء يقول: الفتح أفشى في السين. وقلّ ما تقول العرب: (دائرة السوء) بضم السين.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾ يعني: ونالهم الله بغضب منه ولعنهم. يقول: وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ﴾ يقول: وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ يقول: وساءت جهنم منزلًا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات.

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ﴾: أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية. قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ﴾ وذكر في معنى الآية الأخرى نحوًا مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى.

قوله: (قال ابن القيم رحمه الله تعالى) الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجه في كلامه الذي سقته من أوله إلى آخره.

❊ ❊ ❊

٥٩ - باب
ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر: «والَّذي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كانَ لأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُد ذَهَبًا ثُمَّ أَنْفَقَهُ في سَبِيلِ اللهِ ما قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ، حَتى يُؤْمِنَ بالقَدَرِ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإيمانُ أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ ومَلَائِكَتِهِ وكُتُبِه ورُسُلِه واليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ». رواه مسلم.

قوله: (باب ما جاء في منكري القدر) أي: من الوعيد الشديد ونحو ذلك. أخرج أبو داود عن عبدالعزيز بن أبي حازم، عن أبيه، عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «القدَرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[(١)].

وعن عمر - مولى غُفرة - عن رجل من الأنصار عن حذيفة - وهو ابن اليمان - رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»[(٢)].

قوله: (وقول ابن عمر: والذي نفسي بيده الخ) حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن يحيى بن يعمَر قال: «كان أول من تكلم في القدر بالبصرة مَعبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبدالرحمن الحِميري حاجين، أو معتمرين. فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟. فوفق الله تعالى لنا عبدالله بن عمر داخلًا في المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكِل الكلام إليّ، فقلت: أبا عبدالرحمن؛ إنه قد ظهر قِبلنا أناس يقرؤون القرآن، ويتقفّرون العلم[(٣)] يزعمون ألا قدر، وأن الأمر أُنف، فقال: إذا لقيتَ أولئك فأخبِرْهم أني منهم بريء، وأنهم مني براء، والذي يحلف به عبدالله بن عمر! لو أن لأحدهم مثل أُحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم قال: حدثني عمر بن الخطاب

---

(١) قال في عون المعبود: ج٤ ص٣٥٧. قال الخطابي: إنما جعلهم مجوسًا لمضاهاة مذهبهم مذاهب المجوس في قولهم بالأصلين، وهما النور والظلمة، يزعمون أن الخير من فعل النور، والشر من فعل الظلمة، وكذلك القدرية يضيفون الخير إلى الله، والشر إلى غيره. اهـ وقال المنذري هذا منقطع. أبو حازم - سلمة بن دينار - لم يسمع من ابن عمر. وقد روي هذا الحديث من طرق عن ابن عمر؛ ليس فيها شيء يثبت. اهـ.

(٢) قال المنذري: عمر مولى غفرة - بضم الغين وسكون الفاء - لا يحتج بحديثه. ورجل من الأنصار: مجهول، وقد رُوِيَ من طرق أخرى عن حذيفة، ولا يثبت.

(٣) يقال: اقتفرتُ الأثر، أي تَتَبَّعْتهُ وقفوتُهُ، فمعنى يتقفرون العلم أي: يتطلبونه.

وعن عُبادة بن الصَّامِت أنه قال لابنه: «يا بُنَيَّ إنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإيمانِ حَتّى تَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُن لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقالَ لَهُ: اكْتُبْ. فَقالَ: رَبِّ وماذا أَكْتُبُ؟ قالَ:

رضي الله عنه قال: «بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرَى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد. حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه. وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام. قال رسول الله ﷺ: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا قال: صدقتَ. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال: صدقت. قال فأخبرني عن الإحسان؛ قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال فأخبرني عن الساعة؛ قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: أن تَلد الأمةُ رَبّتها، وأن تَرى الحُفاة العُراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان. قال: فانطلق. فلبثت ثلاثًا، وفي رواية: مليًّا، ثم قال: يا عمر أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم؛ قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

ففي هذا الحديث: أن الإيمان بالقدر من أُصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أصلًا من أُصول الدين وجحده؛ فيشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ الآية [البقرة: ٨٥].

قوله: (وعن عُبادة) قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد، وحديثه هذا رواه أبو داود، ورواه الإمام أحمد بكماله[١] قال: حدثنا الحسن بن سوار حدثنا ليث عن معاوية، عن أيوب ابن زياد: حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة حدثني أبي قال: «دخلت على عبادة وهو مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت يا أبتاه فكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم؛ فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. يا بني، إن مت ولست

---

(١) المسند: ج٥ ص٣١٧. وهو عند أبي داود أخصر مما عند أحمد ومن طريق جعفر بن مسافر الهذلي أخبرنا يحيى بن حسان: أخبرنا الوليد بن رباح عن إبراهيم بن أبي جميلة، عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه الحديث. وسكت عنه المنذري.

اكْتُبْ مَقاديرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى تَقومَ السَّاعَة، يا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَقولُ: مَنْ ماتَ عَلى غَيْرِ هٰذا فَلَيْسَ مِنِّي.

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ ما خَلَقَ اللهُ تَعالى القَلَمَ، فَقالَ لَهُ: اكْتُبْ فَجَرى في تِلْكَ السَّاعَةِ بِما هُوَ كائِنٌ إِلى يَوْمِ القِيامَةِ».

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ».

على ذلك دخلت النار». ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أبيه، وقال: حسن صحيح وغريب.

وفي هذا الحديث ونحوه: بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[1] [الطلاق: ١٢].

وقد قال الإمام أحمد رحمه الله - لما سُئِلَ عن القدر قال -: «القدر قدرة الرحمن» واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى فضلوا عن سواء السبيل. وقد قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا وإن جحدوه كفروا.

قوله: (وفي المسند وسنن أبي داود عن ابن الديلمي) وهو أبو بسر - بالسين المهملة، وبالباء المضمومة. ويقال: أبو بشر - بالشين المعجمة وكسر الباء - وبعضهم صحح الأول. واسمه عبدالله بن فيروز. ولفظ أبي داود قال: «لو أن الله عذب أهل سمٰواته وأهل أرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم. ولو رحمهم لكانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار. قال: فأتيتُ عبدالله بن مسعود، فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان، فقال مثل ذلك؛ قال: ثم أتيت زيد بن ثابت؛ قال: فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك»[2] وأخرجه ابن ماجه.

وقال العماد ابن كثير رحمه الله: عن سفيان عن منصور عن رِبعي بن حراش عن رجل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يؤمن عبد حتى يؤمن

---

(١) في قرة العيون: والآيات في إثبات القدر كثيرة، وقد استدل العلماء على إثبات القدر بشمول القدرة والعلم، كما في الآية.

(٢) قال في عون المعبود: ج٤ ص٣٦٢. فيصير الحديث مرفوعًا. قال المنذري: وفي إسناده أبو سفيان الشيباني وثقه ابن معين وغيره وتكلم فيه أحمد وغيره.

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعب فَقُلْتُ: في نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ فَحَدِّثْني بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحد ذَهَبًا ما قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتّى تُؤْمِنَ بالقَدَرِ، وتَعْلَمَ أَنَّ ما أَصابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وما أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَكَ، ولَوْ مُتَّ عَلى غَيْرِ هٰذا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَاللهِ بْنَ مَسْعود، وحذيفَةَ بْنَ اليَمانِ، وزَيْد بْنَ ثابِت، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَني بِمِثْلِ ذٰلك عَنِ النَّبِيِّ ﷺ». حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه.

بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره». وكذا رواه الترمذي عن النضر ابن شميل عن شعبة عن منصور به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة عن ربعي عن علي فذكره.

وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية عبدالله بن وهب وغيره عن أبي هانئ الخولاني عن أبي عبدالرحمن الحُبْلي عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف سنة - زاد ابن وهب -: وكان عرشه على الماء». رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

وكل هذه الأحاديث وما في معناها، فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم. ومن مذهبهم: تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم المعاصي.

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، فقد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أهل الكبائر من الموحدين في النار[1].

---

(١) في قرة العيون: وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع، وكثير منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب تعالى وتقدَّس.

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذِكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: بَراءَته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادَةُ السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: إن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

* * *

٦٠ - باب
ما جاءَ في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ يَخْلُقُ كَخَلْقِي فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً أو لِيَخْلُقوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقوا شَعيرَة». أخرجاه.

ولهما عن عائشة رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذابًا يَوْمَ القِيامَةِ الَّذين يُضاهِئونَ بِخَلْقِ اللهِ».

قوله: (باب ما جاء في المصورين) أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه.

وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله، لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء وهو الذي صور جميع المخلوقات؛ وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياكة، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٧-٩] فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهئًا لخلق الله. فصار ما صوره عذابًا له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ، فكان أشد الناس عذابًا؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان؛ فكيف بحال من سوّى المخلوق برب العالمين وشبهه بخلقه، وصرف له شيئًا من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه، فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه؛ وجعله شريكًا له فيما اختص به تعالى وتقدس؛ هو أعظم ذنب عُصي الله تعالى به، ولهذا أرسل رسله وأنزل كتبه لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجي الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

قوله: (ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي - حيان بن حصين - قال: قال لي علي رضي الله عنه) هو أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: (ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا

ولهما عن ابن عباس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ مُصَوِّرٍ في النَّارِ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صورَةٍ صَوَّرَها نَفْسٌ يُعذبُ بِها في جَهَنَّم».

ولهما عنه مرفوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صورَةً في الدُّنْيا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيها الرُّوحَ ولَيْسَ بنافِخٍ».

ولمسلم عن أبي الهيّاج قال: «قالَ لِي عَلِيٌّ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلى ما بَعَثَني عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! أَلَّا تَدَعَ صورَةً إِلَّا طَمَسْتَها، ولَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

قبرًا مشرفًا إلا سويته»(١).

فيه تصريح بأن النبي ﷺ بعث عليًّا لذلك، أما الصور فلمضاهاتها لخلق الله، وأما تسوية القبور فلِما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله. فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدين ومقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور؛ وعظمت الفتنة بأرباب القبور، وصارت محطًّا لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جلّ العبادة، من الدعاء والاستعانة والاستغاثة؛ والتضرع لها، والذبح لها، والنذور؛ وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلَّامة ابن القيم رحمه الله(٢): ومَن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور، وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه؛ وبين ما عليه أكثر الناس اليوم، رأى أحدهما مضادًّا للآخر، مناقضًا له بحيث لا يجتمعان أبدًا. فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها، ونهى عن اتخاذها مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد، ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله، ونهى عن إيقاد السرج عليها وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها، ونهى عن أن تتخذ عيدًا، وهؤلاء يتخذونها أعيادًا ومناسك؛ ويجتمعون لها كاجتماعاتهم للعيد أو أكثر. وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي - فذكر حديث الباب - وحديث ثمامة بن شُفَي. وهو عند مسلم أيضًا قال: «كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برودس، فتُوفي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسُوِّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها» وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت؛ ويعقدون عليها القباب. ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه. كما روى مسلم في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله ﷺ

---

(١) في قرة العيون: فهذا ما صح عن النبي ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] فأكثروا التصوير واستعملوه وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها وجعلوها أوثانًا؛ وزعموه دينًا وهو أعظم المنكرات وأكبر السيئات، تعظيمًا للأموات وغلوًّا، وعبادة لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده.

(٢) في إغاثة اللهفان الجزء الأول.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: «وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله: «فَلْيَخْلُقوا ذَرَّةً أَوْ حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

الرابعة: التصريح بأنهم أَشَدُّ الناس عذابًا.

عن تجصيص القبر وأن يعقد عليه، وأن يبنى عليه» ونهى عن الكتابة عليها، كما روى أبو داود في سننه عن جابر: أن رسول الله ﷺ: «نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها». قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره، ونهى أن يزاد عليها غير ترابها. كما روى أبو داود عن جابر أيضًا أن رسول الله ﷺ: «نهى أن يجصص القبر؛ أو يكتب عليه، أو يزاد عليه» وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار[1]. قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينَها أعيادًا؛ الموقدين عليها السرج؛ الذين يبنون عليها المساجد والقباب، مناقضون لما أمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها وهو من الكبائر. وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أُبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعًا للمال في غير فائدة وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام، قال: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذّر ما صنعوا» متفق عليه. ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها؛ وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجًّا، ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتابًا وسماه: «مناسك حج المشاهد» مضاهاة منه

---

(١) اختصر المؤلف كلام ابن القيم هنا وحذف منه ما يأتي:

«ونهى عمر بن عبدالعزيز أن يبني القبر بآجر، وأوصى ألا يفعل ذلك لقبره، وأوصى الأسود بن يزيد ألا تجعلوا على قبري آجرًا، وأوصى أبو هريرة حين الوفاة ألا يضربوا على قبره فسطاطًا. وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطًا» اهـ إغاثة اللهفان «ج١ ص١٠٣».

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلَّف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

القبور بالبيت الحرام؛ ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عبّاد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده، من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيمها الموقع في الافتتان بها، ومنها: اتخاذها أعيادًا، ومنها السفر إليها، ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعُبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام؛ ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفئ القنديل المعلق عليها، ومنها: النذر لها ولسدنتها، ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء؛ ويستنزل غيث السماء؛ وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك، ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله باتخاذ المساجد عليها وإيقاد السرج عليها، ومنها: الشرك الأكبر الذي يُفْعَلُ عندها.

ومنها: إيذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يُفْعَلُ عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره[١]، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم، ويوم القيامة يتبرؤون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٧، ١٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

ومنها[٢]: إماتة السنن وإحياء البدع.

---

(١) وهو قبره المزعوم في فلسطين. الناشر.

(٢) اختصر المؤلف من كلام ابن القيم ما يأتي: ومنها مشابهة اليهود والنصارى في اتخاذ المساجد والسرج عليها ومنها محادة الله ورسوله؛ ومناقضة ما شرعه فيها، ومنها التعب العظيم والوزر الكبير والإثم العظيم.

. . . .

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عُبّاد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب، والعكوف بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريبٌ منه.

ومنها[١]: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تَذَكُّر الآخرة، والإحسانُ إلى الْمَزْورِ بالدعاء له؛ والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له؛ فيكون الزائر محسنًا إلى نفسه وإلى الميت، فقلَب هؤلاء المشركون الأمر وعكسوا الدين، وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء. ونحو ذلك. فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت. وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سدًّا للذريعة، فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجرًا، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولًا وفعلًا.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكّر الموت»[٢] وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة؛ فأقبل عليهم بوجهه فقال: السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر» رواه أحمد والترمذي وحسنه[٣].

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلَّمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لِما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه؛ حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا[٤] ونص على ذلك

---

(١) زاد في الإغاثة: ومنها أن ذلك يتضمن عمارة المشاهد وخراب المساجد، ودين الله الذي بعث به رسوله بضد ذلك. ولهذا لما كانت الرافضة من أبعد الناس عن العلم والدين، عمروا المشاهد وخربوا المساجد.

(٢) حذف المؤلف رحمه الله من كلام ابن القيم حديث علي عند الإمام أحمد: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر الآخرة».

(٣) ذكر ابن القيم هنا حديث علي عند الإمام أحمد: «إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة». كما ذكر حديث ابن مسعود: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة». رواه ابن ماجه. وذكر حديث أبي سعيد: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها فيها عبرة». رواه الإمام أحمد.

(٤) قال ابن القيم: فقال سلمة بن وردان: «رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يسلم على النبي ﷺ ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو».

. . . .

الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة. وفي الترمذي وغيره «الدعاء هو العبادة» فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ: من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم، وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» وإسناده جيد ورواته ثقات مشاهير. وقوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا» أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور فأمر بتحري النافلة في البيوت ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن[1] في تعظيم القبور واتخاذها أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله، ما يغضب لأجله كلُّ من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد وتهجين وتقبيح للشرك؛ ولكن:

ما لجرحٍ بميتٍ إيلام . . . .

فمن المفاسد: اتخاذها أعيادًا والصلاة إليها والطواف بها وتقبيلها واستلامها وتعفير الخدود على ترابها وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الدين، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا، وقد نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج؛ ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج؛ فاستغاثوا بمن لا يبدئ ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبور ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين!! فتراهم حول القبر رُكعًا وسجدًا يبتغون فضلًا من الميت ورضوانًا، وقد ملأوا أكفهم خيبة وخسرانًا.

فلغير الله - بل للشيطان - ما يُراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت الحاجات، ويُسأل من تفريج الكربات؛ وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافات ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهًا له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركًا وهدى للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام، أرأيت الحجر الأسود وما يَفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي علم

(١) الذي في إغاثة اللهفان التي بأيدينا المخطوطة والمطبوعة أن قول المؤلف رحمه الله: «ثم إن في تعظيم القبور الخ» فصل متقدم قبل ما نقله المؤلف هنا.

. . . .

الله أنها لم تُعفَّر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحِلاق واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يُهَنِّئ بعضهم بعضًا ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًّا، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى بيت الحرام، فيقول: لا، ولا بحجك كل عام.

هذا - ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم. وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور: سد الذريعة إلى هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه؛ وأحكم في نهيه عنه وتوعُّده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته. اهـ كلامه رحمه الله تعالى[1].

❊ ❊ ❊

(١) اختصره المؤلف رحمه الله تعالى؛ وتصرف فيه بالتقديم والتأخير على حسب ما بيدنا من نسخ إغاثة اللهفان. والله يرحم الجميع ويغفر لنا ولهم.

٦١ - باب
ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحِلْفُ مَنْفَقَةٌ للسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ» أخرجاه.

وعن سلمان أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُم اللهُ ولَا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذابٌ

قوله: (باب ما جاء في كثرة الحلف) أي: من النهي عنه والوعيد.

(وقول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير. وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس يريد: لا تحلفوا. وقال آخرون: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ عن الحنث فلا تحنثوا. والمصنف أراد من الآية: المعنى الذي ذكره ابن عباس، فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

(عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب» أخرجاه).

أي البخاري ومسلم. وأخرجه أبو داود والنسائي، والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أُعطي فيها كذا وكذا؛ أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقًا فيما حلف عليه فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب وحلف طمعًا في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى؛ فيعاقب بمحق البركة؛ فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأسًا. وما عند الله لا يُنالُ إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.

قوله: (وعن سلمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح).

وسلمان - لعله سلمان الفارسي - أبو عبدالله؛ أسلم [عند] مقدم النبي ﷺ المدينة، وشهد الخندق؛ روى عنه أبو عثمان النهدي وشرحبيل بن السمط وغيرهما. قال النبي ﷺ: «سلمان منا أهل البيت، إن الله يحب من أصحابي أربعة: عليًّا وأبا ذرٍّ، وسلمان، والمقداد» أخرجه الترمذي وابن ماجه. قال الحسن: كان سلمان أميرًا على ثلاثين ألفًا يخطب بهم في

أَليمٌ: أُشَيْمِط زانٍ، وعائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، ورَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضاعَتَهُ لَا يَشْتَري إِلَّا بِيَمينِهِ، ولَا يَبيعُ إِلَّا بِيَمينِهِ». رواه الطبراني بسند صحيح.

عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه. قال أبو عبيدة سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة. ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي.

قوله: (ثلاثة لا يكلمهم الله)[١] نفيُ كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء العصاة دليل على: أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة من المحققين: قيام الأفعال بالله سبحانه، وأن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئًا فشيئًا ولم يزل متصفًا به، فهو حادث الآحاد قديم النوع، كما يقول ذلك أئمة أصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضًا. وذلك في القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا - يعني النفاة -: فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به، قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة؟! ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل. ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك، ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك: مما دل عليه الكتاب والسنة. والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلمًا إذا شاء، كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة، اهـ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها وإيجاده لها بمشيئته وأمره. والله أعلم.

قوله: (ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: (أشيمطٌ زانٍ) صغره تحيرًا له[٢] وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور، وعدم خوفه من الله؛ وضَعفُ الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه؛ بخلاف الشاب، فإن قوة داعي الشهوة منه

---

(١) في قرة العيون: هذا وعيد شديد في حقهم. لأنه قد تواتر أنه تعالى يكلم أهل الإيمان ويكلمونه في عرصات القيامة. والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه. وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة صفة الكلام.

(٢) تصغير أشمط؛ وهو الذي بشعره شمط أي شيب.

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ أمتِي قَرْني ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ - قالَ عِمْرانُ فلَا أَدْري: أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا؟ - ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدونَ ولَا يُسْتَشْهدونَ ويَخُونونَ ولَا يُؤْتَمنونَ،

قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهي ويراجع.

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر، لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة. و«العائل»: الفقير، لا داعي له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته، لعدم الداعي إلى هذا الخلُق الذميم الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله: (ورجل جعل الله بضاعته) بنصب الاسم الشريف؛ أي الحلف به، جعله بضاعته لملازمته له وغلبته عليه. وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحدًا فتوحيده ضعيف وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها. نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه.

قوله: (وفي الصحيح) أي صحيح مسلم. وأخرجه أبو داود، والترمذي، ورواه البخاري بلفظ «خيركم»[1].

قوله: (عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا - ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهن السِّمَنُ».

قوله: (خير أُمتي قرني) لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون، فغلب الخير فيها وكثر أهله، وقلّ الشر فيها وأهله واعتز فيها الإسلام والإيمان؛ وكثر فيها العلم والعلماء (ثم الذين يلونهم) فضّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع: أنكر واستعظم وأُزيل؛ كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان. والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله: (فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا) هذا شك من راوي الحديث عمران بن

---

(١) بل رواه باللفظين، فرواية «خير أمتي أهل قرني» في فضائل الصحابة. ورواية «خيركم» في عدة مواضع منه.

وَيَنْذُرونَ ولَا يوفونَ، وَيَظْهَرُ فيهِم السِّمَن».

وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْني ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ، ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ، ثُمَّ يَجيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ويَمينُهُ شَهادَتَهُ».

حصين رضي الله عنه. والمشهور في الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين في الفضل، لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون والإسلام - فيه ظاهر والجهاد - فيه قائم.

ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدين، وكثرة الأهواء. فقال: «ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون» لاستخفافهم بأمر الشهادة وعدم تحريهم للصدق، وذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

قوله: (ويخونون ولا يؤتمون) يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم.

قوله: (وينذرون ولا يوفون) أي: لا يؤدون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: (ويظهر فيهم السمن) لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعم بها، وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها. وفي حديث أنس: «لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم» قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ، فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدر للتعليم والتصنيف[1].

قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظمًا ونثرًا فنعوذ بالله من موجبات غضبه.

قوله: (وفيه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أن النبي ﷺ قال: «خيرُ الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»)[2].

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد، فخَفَّ أمر الشهادة واليمين عنده تحملًا وأداءً، لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب على الأكثر، والله المستعان. فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأول ففيما بعده أكثر بأضعاف، فكن من الناس على حذر.

---

(١) في قرة العيون: فحدث التفرق والاختلاف في الدين وحدث الغلو في أهل البيت من بني بويه في المشرق لما كان لهم دولة وبنوا المساجد على القبور وغلوا في أربابها وظهرت دولة القرامطة وظهر فيها الكفر والإلحاد في شرائع الدين، ومذهبهم معروف وظهر فيهم من البدع ما يطول عده وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين، وما زال أهل السنة على الحق ولكن كثرت البدع والأهواء، حتى عاد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا نشأ على هذا الصغير وهرم عليه الكبير.

(٢) في قرة العيون: في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة بلا شك.

وقال إبراهيم: «كانوا يَضْرِبونَنا عَلى الشَّهادَةِ والعَهْدِ ونَحْنُ صِغارٌ».

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأَيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذَمُّ الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة، وذكر ما يحدث.

السابعة: ذَمُّ الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

قوله: (قال إبراهيم - هو النَّخَعي - كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار) وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنه من أفضل الجهاد ولا يقوم الدين إلا به. وفي هذا: الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

❊ ❊ ❊

٦٢ - باب
ما جاء في ذمّة الله وذمّة نبيه

وقوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

وعن بُريدة قال: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا أَمَّرَ أميرًا عَلى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصاهُ بِتَقْوى

قوله: (باب ما جاء في ذمة الله وذمة رسوله وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ - الآية) [النحل: ٩١].

قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به وهو الوفاء بالعهود والمواثيق؛ والمحافظة على الأيمان المؤكدة. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩] أي: لا تتركوها بلا تكفير. وبَيْن قوله ﷺ في الصحيحين «إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها - وفي رواية - وكفرّت عن يميني». لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي: ﴿وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حثٍّ أو منع، ولهذا قال مجاهد في الآية: يعني الحلف أي حِلْف الجاهلية. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حِلف في الإسلام؛ وأيما حلفٍ كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة». وكذا رواه مسلم. ومعناه: أن الإسلام لا يحتاج معه إلى الحلف الذي كان أهل الجاهلية يفعلونه؛ فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

قوله: (عن بُريدة) هو ابن الحُصيب الأسلمي. وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله في المُفهم.

قوله: (قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى) فيه من الفقه: تأمير الأمراء ووصيتهم.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها. والجيش ما كان أكثر من ذلك. وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته.

قلت: وذلك بالعمل بما أمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

قوله: (ومن معه من المسلمين خيرًا) أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا: من الرفق بيهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم؛ وترك التعاظم عليهم.

اللهِ ومَنْ مَعَهُ مِنَ المُسْلِمِينَ خَيْرًا فَقالَ: اغْزوا بِسْمِ اللهِ، في سَبيلِ اللهِ قاتِلوا مَنْ كَفَرَ باللهِ اغْزوا ولَا تَغُلُّوا ولَا تَغْدِروا، ولَا تُمثِّلوا، ولَا تَقْتُلوا وَلِيدًا، وإذا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكينَ فادْعُهمْ إلى ثَلاثِ خِصالٍ - أو خِلَالٍ - فَأَيتَهُن ما أَجابوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ

قوله: (اغزوا باسم الله) هذا أي: اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله، مخلصين له.

قلت: فتكون الباء في «بسم الله» هنا للاستعانة، والتوكل على الله.

قوله: (قاتلوا من كفر بالله) هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين وغيرهم، وقد خُصِّص منهم من له عهد والرهبان والنسوان، ومن لم يبلغ الحلُم، وقد قال متصلًا به: «ولا [تقتلوا] وليدًا» وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان لأنه لا يكون منهم قتال غالبًا، وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري والأولاد.

قوله: (ولا تَغلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا) الغلول: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها. والغدر: نقض العهد. والتمثيل هنا: التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأُذنه والعبث به. ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي كراهية المثلة.

قوله: (وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال) الرواية [بأو] بالشك وهو من بعض الرواة. ومعنى الخلال والخصال واحد.

قوله: (فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم) قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب «أيتهن» على أن يعمل فيها «أجابوك»، لا على إسقاط حرف الجر. و«ما» زائدة. ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهن أجابوك فاقبل منهم، كما تقول: جئتك إلى كذا و[في] كذا. فيعدي إلى الثاني بحرف جر.

قلت: فيكون في ناصب «أيتهن» وجهان: ذكرهما الشارح. الأول: منصوب على الاشتغال. والثاني: على نزع الخافض.

قوله: (ثم ادعهم إلى الإسلام) كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم» بزيادة «ثم» والصواب إسقاطها. كما روى في غير كتاب مسلم كمصنف أبي داود، وكتاب الأموال لأبي عبيد. لأن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال.

وقوله: (ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين) يعني المدينة. وكان في أول الأمر [وقت] وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام. وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم[1].

---

(١) في قرة العيون: وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلدة. نص عليه الفقهاء في كتبهم اهـ. يعني إذا غلبت المعاصي وأهلها ولم يقدر ولم يجد سبيلًا للإنكار عليهم: أما إذا وجد السبيل لإقامة الحجة، فإن بقاءه يكون واجبًا لتبليغ الدين خصوصًا إذا

عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهمْ إِلى الإِسْلَام. فَإِنْ أَجابوكَ فاقْبَلْ مِنْهُم. ثُمَّ ادْعُهمْ إِلى التَّحَوُّلِ مِنْ دارِهِمْ إِلى دارِ المُهاجِرينَ، وأَخْبِرْهِمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلوا ذٰلِكَ فَلَهُمْ ما للمُهاجِرينَ وعَلَيْهِمْ ما عَلى المُهاجِرينَ. فإِنْ أَبَوا أَنْ يَتَحَوَّلوا مِنْها فَأَخْبِرْهِمْ: أَنَّهُمْ يَكونونَ كَأَعْرابِ المُسْلِمينَ، يَجْري عَلَيْهِمْ حكمُ اللهِ تَعالى ولَا يَكونُ لَهُمْ في الغَنيمَةِ والفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجاهِدوا مَعَ المُسْلِمينَ. فَإِنْ هُمْ أَبَوا فاسْأَلْهُم الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُم. فَإِنْ

قوله: (فإن أبوا أن يتحولوا) يعني أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفيء شيئًا. وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب، فلم ير لهم من الفيء شيئًا، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده؛ ومصرف كل مال في أهله، وسوّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين، وجوزّا صرفهما للضعيف.

قوله: (فإن هم أبوا فاسألهم الجزية) فيه حجة لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر: عربيًا كان أو غيره؛ كتابيًّا كان أو غيره، وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع إلا من مشركي العرب ومجوسهم، وقال الشافعي. لا تُؤْخَذُ إلا من أهل الكتاب عربًا كانوا أو عجمًا، وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتُؤْخَذُ من المجوس.

قلت: لأن النبي ﷺ أخذها منهم وقال: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب».

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية: فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب؟ وأربعون درهمًا على أهل الورق، وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. وقال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير. وقال أبو حنيفة - رحمه الله - والكوفيون: على الغني ثمانية وأربعون درهمًا والوسط أربعة وعشرون درهمًا، والفقير اثنا عشر درهمًا. وهو قول أحمد بن حنبل رحمه الله.

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله:

وقاتل يهودًا والنصارى وعصبة المجـ ـــوس، فإن هم سلموا الجزية اصدد
على الأدون اثني عشر درهمًا افرضن وأربعة من بعد عشرين زيِّد
لأوسطهم حالًا. ومن كان موسرًا ثمانية مع أربعين لتنقد
وتسقط عن صبيانهم ونسائهم وشيخ لهم فانٍ وأعمى ومقعد
وذي الفقر والمجنون أو عبد مسلم ومن وجبت منهم عليه فيهتدي

وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم؛ وإنما

كان يدعو إلى التوحيد ومحاربة الشرك والبدع، ويجد من يسمع له ويصغي إليه وينتفع بدعوته. والله الموفق.

هُمْ أَبوا فاسْتَعِنْ باللهِ وقاتِلْهِمْ. وإذا حاصَرْتَ أَهْلَ حصن فأَرادوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبيِّهِ، فَلَا تَجْعَل لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبيِّهِ ولٰكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَك وذمَّةَ أَصْحابِكَ. فَإنَّكُمْ أَنْ تُخْفِروا ذِمَمَكُمْ وذِمَّةَ أَصْحابِكُمْ: أَهْوَنُ منْ أَنْ تُخْفِروا ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ نَبيِّهِ. وإذا حاصَرْتَ أَهْلَ حصن، فَأَرادوكَ أَنْ تنْزلَهُمْ عَلى حُكْمِ اللهِ فَلَا تنْزِلهُمْ، ولٰكِنْ أَنْزِلهُمْ عَلى حُكْمكَ. فَإِنَّكَ لَا تَدْري: أَتُصيب فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا؟». رواه مسلم.

تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن) الكلام إلى آخره، فيه حجة لمن يقولون من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره، ووجه الاستدلال به أنه ﷺ قد نص على أن الله تعالى قد حكم حكمًا معينًا في المجتهدات فمن وافقه فهو المصيب ومن لم يوافقه فهو المخطئ.

قوله: (وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه) الحديث، الذمة: العهد، وتُخفِر: تنقض يقال: أخفرت الرجل إذا: نقضت عهده، وخفَرْتَه، أجرْتَه، ومعناه أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، [كجهلة] الأعراب، فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهونَ من نقض عهد الله تعالى. والله أعلم.

قوله: (وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال[1]) وذكر فيه أن مذهب مالك: يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال؛ قال - وهو أن مالكًا قال -: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح، لأن فائدة الدعوة، أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سببًا مميلًا لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزدادون عتوًّا وبغضًا. والله أعلم.

---

(١) ليس في نُسَخِ المتن التي بأيدينا قول نافع هذا فليحرر.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا.

الثالثة: قوله: «اغْزُوا بِسْمِ اللهِ في سَبيلِ اللهِ».

الرابعة: قوله: «قاتِلوا مَنْ كَفَرَ باللهِ».

الخامسة: قوله: «اسْتَعِنْ باللهِ وقاتِلْهمْ».

السادسة: الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حكم الله أم لا؟

* * *

٦٣ - باب
ما جاء في الإِقسام على الله

عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: واللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَان، فَقالَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ: مَنْ ذا الَّذي يَتأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلان؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ» رواه مسلم.

قوله: (باب ما جاء في الإقسام على الله).

ذكر المصنف فيه حديث (جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك» رواه مسلم).

قوله: (يتألّى) أي: يحلف. والألْيَّة بالتشديد: الحَلِف، وصح من حديث أبي هريرة قال البَغَوي في شرح السنة - وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار - قال: «دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال: يا يمامي، تعال، وما أعرفه؛ قال: لا تقولنَ لرجل: والله لا يغفر الله لك أبدًا ولا يدخلك الجنة. قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر، كأنه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصر عما أنت فيه، قال: فيقول: خلّني وربي، قال: فوجده يومًا على ذنب استعظمه فقال: أقصر، فقال: خلِّني وربي، أبُعِثتَ عليّ رقيبًا، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبدًا، قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده؛ فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي؛ وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا، يا رب، قال اذهبوا به إلى النار. قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، ورواه أبو داود في سننه؛ وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة. فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب فقال له: أقصر، فقال: خلِّني وربي أَبُعِثتَ عليّ رقيبًا؟ قال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما؛ فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؛ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة؛ وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

وفي حديث أبي هريرة: «أَنَّ القائِلَ رَجُلٌ عابِدٌ، قالَ أَبو هُرَيْرَة: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْياهُ وآخِرَتَهُ».

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألّي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شِراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّم بِالكَلِمَةِ» إلخ.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

قوله: (وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد) يشير إلى قوله في هذا الحديث «أحدهما مجتهد في العبادة» وفي [هذه] الأحاديث بيان خطر اللسان وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما في حديث معاذ: «قلت: يا رسول الله؛ وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُبّ الناس في النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم»[1] والله أعلم.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه. وقال الترمذي: حسن صحيح. وفي قرة العيون: وفيه معنى قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه».

٦٤ - باب
ولا يُستشفع بالله على خلقه

عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «جاءَ أَعْرابِيٌّ إِلى النَّبِيِّ ﷺ فَقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ نُهِكَت الأَنْفُسُ، وجاعَ العِيالُ، وهَلكَتِ الأَموالُ، فاسْتَسْقِ لَنا رَبَّكَ، فإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ، وبِكَ عَلى اللهِ، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: سُبْحانَ اللهِ! سُبْحانَ اللهِ! فَما زالَ يسبحُ

قوله: (باب لا يستشفع بالله على خلقه).

وذكر الحديث[1] وسياق أبي داود في سننه أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه:

عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: «أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله؛ جهدت الأنفس؛ وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، [فإنا نستشفع بك على الله] ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: ويحك، أتدري ما تقول؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك؛ إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أتدري ما الله؟ إن عرشه على سمٰواته لهكذا - وقال بأصابعه مثل القبة عليه - وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب» قال ابن بشار[2] في حديثه: «إن الله فوق عرشه وعرشه فوق سمٰواته».

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده، في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار[3].

قوله: (ويحك[4] إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده؛ لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع؛ ولا راد لما قضى؛ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]. ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء وهو الذي يشفع الشافع إليه؛ ولهذا أنكر على الأعرابي.

قوله: وسبح الله كثيرًا وعظمه لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده: «إن شأن

---

(١) يعني أن المصنف ساق حديث جبير بن مطعم ناسبًا له إلى أبي داود ولكنه اختصره.

(٢) «ابن بشار» تحريف، وهو محمد بن إسحاق بن يسار، أبو بكر المطلبي، مولاهم. نقله الدكتور وليد آل فريان في نسخته المحققة لفتح المجيد. (الناشر).

(٣) يشير بذلك إلى ضعف الحديث لأن محمد بن إسحاق مدلس. وانظر الكلام على الحديث وشروح الأئمة له في عون المعبود: ج٤ ص٣٧٠.

(٤) في قرة العيون: ويحك كلمة تقال للزجر. قوله: «أتدري ما الله؟» فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله.

حَتّى عُرِفَ ذٰلِكَ في وُجوهِ أَصْحابِهِ، ثُمَّ قالَ: وَيْحَكَ: أَتَدْري ما اللهُ؟ إنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذٰلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ باللهِ عَلى أَحَدٍ» وذكر الحديث رواه أبو داود.[1]

الله أعظم من ذلك».

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سمٰواته، وفيه تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافًا للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم، كالأشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا، كما عليه السلف الصالح والأئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

قال العلّامة ابن القيم رحمه الله تعالى في مفتاح دار السعادة - بعد كلام سبق فيما يُعرّف العبد - بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته - قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتُفتح له أبواب السماء؛ فيجول أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السمٰوات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافّين من حول العرش لهم زَجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها؛ فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين؛ وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها: من جبر كسير، و[إ]غناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورَدِّ آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، فهي مراسيم، دائرة بين العدل والفضل، والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها و[تباينها] واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحّين، ولا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلّا هو العزيز الحكيم، فحينئذٍ يقوم القلب بين يدي الرحمن مُطرقًا لهيبته خاشعًا لعظمته، عانيًا لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر

---

(١) في قرة العيون: هذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحًا أو حسنًا وسكت عليه اهـ.
أقول: بل تكلم أبو داود على سنده، فخطأ بعض رواته في سياقه وصوب من قال: إنه روى كتابه من نسخة وهب بن جرير لا تحديثًا، وأن مداره فيها على محمد بن إسحاق عنعنة لا سماعًا.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: «نَسْتَشْفِعُ باللهِ [عَلَيْكَ]».

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير سبحان الله.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.

القلب، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه، فيا له من سفر ما أبركه وأروجه، وأعظم ثمرَته وربحَه، وأجل منفعته وأحسن عاقبتَه، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة، وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب. اهـ كلامه رحمه الله.

وأما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته فالمراد استجلاب دعائه، وليس خاصًّا به ﷺ بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبي ﷺ لعمر لما أراد أن يعتمر من المدينة: «لا تنسنا يا أخي من صالح دعائك»[1] وأما الميت فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه فلم يشرع؛ بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ٥ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ﴾ [فاطر:١٣، ١٤] فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة أي: ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦] فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر. والصحابة رضي الله عنهم، لا سيما أهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أوقات الجدب، كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ فأمره أن يستسقي، لأنه حي حار يدعو ربه[2] فلو جاز أن يستسقى بأحد بعد وفاته لاستسقى عمر رضي

---

(١) رواه أبو داود وأحمد في المسند: ج١ ص٢٩ وج٢ ص٥٩. عن عبدالله بن عمر: «أن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة، فأذن له. فقال: يا أخي أشركنا في صالح دعائك؛ ولا تنسنا» قال عبدالرزاق في حديثه. فقال عمر: «ما أحب أن لي بها ما طلعت [عليه] الشمس» لقوله: يا أخي.

(٢) رواه البخاري: وقد حصل ذلك في عام الرمادة سنة ثماني عشرة، ودام القحط تسعة أشهر. قال الحافظ في الفتح: ج٢

. . . .

الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ، وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت، لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضرًا، فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب دعاء من يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل، ولو كان دعاء الميت خيرًا لكان الصحابة إليه أسبق وعليه أحرص، وبهم أليق؛ وبحقه أعلم وأقوم. فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك. وبالله التوفيق.

* * *

ص٣٣٩. وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقعت فيه. فأخرج بإسناده: «أن العباس لما استسقى به عمر قال: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة؛ وقد توجه القوم إليك بي لمكاني من نبيك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث» فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس.

٦٥ - باب
ما جاء في حماية النبي ﷺ حِمى التوحيد، وسدِّه طرق الشرك

عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله عنه[(١)] قال: «انْطَلَقْتُ في وَفْدِ بَنِي عامِرٍ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَقُلْنا: أَنْتَ سَيِّدنا. فَقالَ: السَّيِّدُ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى، قُلْنا: وأَفْضَلنا فَضْلًا، وأَعْظَمنا طولًا. فَقالَ: قولوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ ولَا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيْطانُ». رواه أبو داود بسند جيد.

قوله: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك).

حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أن عبد فقولوا عبدالله ورسوله» وتقدَّم قوله: «إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله عز وجل» ونحو ذلك. ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنسانًا: «ويلك قطعت عنق صاحبك» الحديث أخرجه أبو داود عن عبدالرحمن بن أبي بكرة عن أبيه: «أن رجلًا أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له: قطعت عنق صاحبك» ثلاثًا، وقال: «إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب» أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

وفي هذا الحديث: نهى عن أن يقولوا: أنت سيدنا وقال: «السيد الله تبارك وتعالى» ونهاهم أن يقولوا: وأفضلنا فضلًا وأعظمنا طولًا وقال: «لا يستجرينكم الشيطان».

وكذلك قوله في حديث أنس: «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله يا خيرنا وابن خيرنا» الخ. كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو. وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه - ولو بما هو فيه - من عمل الشيطان؛ لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا

---

(١) قال في أسد الغابة: عبدالله بن الشخير بن عوف بن كعب بن وقَدان بن الحريش العامري ثم الكعبي ثم من بني الحريش وهو بطن من بني عامر بن صعصعة. له صحبة. سكن البصرة - ثم ساق بسنده إلى مطرف بن عبدالله بن الشخير عن أبيه أنه قال: «قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر؛ فقالوا: يا رسول الله أنت سيدنا وأنت والدنا وأنت أفضلنا علينا فضلًا؛ وأنت أطولنا علينا طولًا، وأنت الجفنة الغراء، وأنت وأنت، فقال: قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان» وقولهم «أنت الجفنة الغراء» كانت العرب تدعو السيد المطعام «جفنة» لأنه يضعها ويطعم الناس فيها، فسمي باسمها. و«الغراء»: البيضاء أي: أنها مملوءة بالشحم والدهن، قاله أبو السعادات في النهاية.

(٢) في قرة العيون: وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر ذلك والنهي عما ينافي التوحيد أو يضعفه؛ يعرف ذلك من تدبره وعرف ما تضمنه بابًا بابًا.

وعن أنس رضي الله عنه: «أَنَّ ناسًا قالوا: يَا رَسولَ اللهِ، يا خَيْرَنا، وابنَ خَيْرِنا، وسَيِّدَنا وابْنَ سَيِّدِنا. فَقالَ: يَا أَيُّها النَّاسُ، قولوا بِقَوْلِكُمْ، ولَا يَسْتَهْوِيَنَّكُم الشَّيْطانُ أَنا مُحَمَّد عَبْدُ اللهِ ورَسُوله(١) ما أحبُّ أَنْ تَرْفَعونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتي أَنْزَلَني اللهُ عَزَّ وجَلَّ» رواه النسائي بسند جيد.

تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة؛ وكمال الذل يقتضي: الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى؛ وألَّا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا حصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره ما يكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات.

ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه؛ والمادح يغره من نفسه فيكون آثمًا، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأسًا، والنهي عنه صيانة لهذا المقام؛ فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد. وإذا أدَّاه المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة كما في الحديث: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئًا منهما عذبته» وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سببًا لها وسُلَّمًا إليها، والعُجْب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب، وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلةً لا يستحقها؛ كما يوجد كثيرًا في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك، والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح، صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحًا لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه: من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] ورأوا أن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل

---

(١) رواه مسلم من حديث أبي سعد وأبي هريرة، ورواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان.

(٢) رواه أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص(*) بإسناد رجاله رجال الصحيح.

(*) قوله: (رواه أحمد عن عبدالله بن عمرو بن العاص) الخ. أقول: وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء».

(٣) في قرة العيون: فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان: العبودية الخاصة والرسالة. وللنبي ﷺ أكلمهما. وقد أخبر الله تعالى أنه وملائكته يصلون عليه، وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه، وشرح له صدره ووضع عنه وزره ورفع له ذكره. فلا يذكر في الأذان والتشهد والخطب إلا ذكر معه. صلوات الله وسلامه عليه.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغُلوِّ.

الثانية: ما ينبغي أن يقول مَنْ قيل له أنت سيدنا.

الثالثة: قوله: «لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُم الشَّيْطانُ» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أُحبُّ أَنْ تَرْفَعوني فَوْقَ مَنْزِلَتي».

القربات وحسنة من أعظم الحسنات!.

وأما تسمية العبد بالسيد فاختلف العلماء في ذلك.

قال العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد علي بشر. فمنعه قوم، ونُقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: «يا سيدنا» قال: «السيد الله تبارك وتعالى». وجوّزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم»[1] وهذا أصح من الحديث الأول. قال هؤلاء: السيد أحدُ ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيد كندة، ولا يقال: الملك سيد البشر. قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم؛ وفي هذا نظر؛ فإن السيد إذا أطلق عليه فهو في منزلة المالك، والمولى والرب، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤]: «أي: إلهًا وسيدًا» وقال في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ﴾: «أنه السيد الذي كَمُل في جميع أنواع السؤدد» وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم» فالظاهر أن النبي ﷺ لم يواجه سعدًا به، فيكون في هذا المقام تفصيل والله أعلم.

* * *

---

(١) قال هذا حين رأى سعد بن معاذ آتيًا على حمار قد أسندوه لأنه كان مريضًا من جرح أصابه من المشركين في الخندق، وقد دعا به رسول الله ﷺ ليحكم في بني قريظة بعد أن حاصرهم وقبلوا أن ينزلوا على حكم سعد، فكان هذا القول منه ﷺ لأنه مريض ولا يستطيع أن ينزل عن الحمار وحده، فأمرهم أن يقوموا لينزلوه ولأنه جاء لهذه القضية، فأراد أن يجعل له من التعظيم ما يناسب هذه الواقعة. وكان سعد بن معاذ سيد الأوس ورئيسهم رضي الله عنهم.

٦٦ - باب

ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبارِ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِد أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمٰواتِ عَلى إِصْبَعٍ والأَرْضينَ عَلى إِصْبَعٍ، والشَّجَرَ عَلى إِصْبَعٍ، والماءَ عَلى إِصْبَعٍ، والثَّرَى عَلى إِصْبَعٍ وسائِرَ الخَلْقِ عَلى إِصْبَعٍ. فَيَقولُ:

قوله: (باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه؛ القادر على كل شيء المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السُّدِّي: ما عظَّموه حق عظمته، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذَّبوه، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره؛ ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف؛ وهو: إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحري - وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب قال: ورواه البخاري في غير موضع من صحيحه. والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه.

قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية: حدثنا الأعمش عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله قال: «جاء رجل من أهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع والسمٰوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع فيقول أنا الملك؟ فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر. قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية».

وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدثنا أبو كدينه[1] عن عطاء عن

---

(١) اسمه يحيى بن المهلب البجلي الكوفي، قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: صدوق من السابعة روى له الترمذي والنسائي أيضًا.

أَنا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتّى بَدَتْ نَواجِذُهُ تَصْديقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ». ثُمَّ قَرأَ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وفي رواية لمسلم: «والجِبالَ والشَّجَرَ عَلى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُهُنَّ فَيَقولُ: أَنا المَلِكُ أَنا اللهُ».

وفي رواية البخاري: «يَجْعَلُ السَّمٰواتِ عَلى إِصْبَعٍ والماءَ والثَّرى عَلى إِصْبَعٍ، وسائِر الخَلْقِ عَلى إِصْبَعٍ» أخرجاه.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمٰواتِ يَوْمَ القِيامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ

أبي الضحى عن ابن عباس قال: «مرَّ يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم، يوم يجعل الله السمٰوات على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على [ذه]، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾» وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح. به. وقال: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ثم قال البخاري: حدثنا سعيد بن عفير حدثنا الليث حدثني عبدالرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي سلمة بن عبدالرحمن أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقال البخاري في موضع آخر حدثنا مقدم بن محمد حدثنا عمي القاسم بن يحيى عن عبيدالله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع وتكون السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك» تفرد به أيضًا من هذا الوجه. ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبأنا إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن عبيدالله بن مقسم، عن ابن عمر: «أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول: هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر؛ يمجّد الربُّ تعالى نفسَه أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك؛ أنا العزيز، أنا الكريم. فرجف برسول الله ﷺ المنبرُ حتى قلنا: ليخرّنّ به» ا.هـ.

قوله: (ولمسلم عن ابن عمر) الحديث كذا في رواية مسلم. قال الحميدي وهي أتم، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أبيه وأخرجه البخاري من حديث عبيدالله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماء بيمينه»

اليُمْنَى، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمالِهِ، ثُمَّ يَقولُ: أَنا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرونَ؟».

وأخرجه مسلم من حديث عبيدالله بن مقسم.

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرّف وتدل على كماله، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته(١) وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل؛ وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربَّه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقًّا بلّغه أمينه أُمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلّغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]، وكذلك التابعون لهم بإحسان وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بها كما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ولم يجحدوا شيئًا من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في ردِّ هذه الشبهات المصنفات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين؛ وكلام سائر الأئمة مملوءة كلها بما هو نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السمٰوات مستوٍ على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله

(١) في قرة العيون: وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده؛ ولا يصلح منها شيء لملك مقرب ولا نبي مرسل ولا لمن دونهما.

ورُوي عن ابن عباس قال: «ما السَّمٰوات السَّبْع والأَرْضونَ السَّبْع في كَفِّ الرَّحْمٰنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ في يَدِ أَحَدِكُمْ».

تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]، وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ الآية [يونس: ٣]. فذكر التوحيدين في هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾ [الرعد: ٢]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ۝ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٤،٥]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨،٥٩] وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٤،٥] وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦،١٧] وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢] وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰهَـٰمَـٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ۝ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦،٣٧] انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة ونحوهم، أقوال الصحابة والتابعين. فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في كتاب العلو وغيره بالأسانيد الصحيحة، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أنها قالت: - في قوله تعالى -: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ قالت: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر». رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح. قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: أنه قال: لما سُئِلَ

وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السَّمٰواتُ السَّبْعُ في الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَراهِمَ سَبْعَة أُلْقِيَتْ في تُرْسٍ».

ربيعة بن أبي عبدالرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ؛ وعلينا التصديق. وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾. كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرَّحَضاء وقال: «الرحمن على العرش استوى، كما وصف نفسه ولا يقال كيف؟ و«كيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة. أخرجوه» رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضًا، ولفظه قال: الاستواء غير مجهول؛ والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة.

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية، قال البخاري في صحيحه: قال مجاهد (استوى) علا على العرش، وقال: إسحاق بن راهويه سمعت غير واحد من المفسرين يقول: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: ارتفع. وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ أي: علا وارتفع، وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، فمن ذلك قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبدالله بن المبارك يقول: «نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمٰواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية». قال الدارمي: حدثنا الحسن بن الصباح البزار حدثنا علي بن الحسين بن شقيق عن ابن المبارك قيل له: «كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه».

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله - تعالى ذكره - بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة.

وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأصول: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته، وقال في هذا الكتاب أيضًا: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز؛ ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكُرْسِيُّ في العَرْشِ إِلَّا كَحَلقَةٍ مِنْ حَديدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْري فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ».

وعن ابن مسعود قال: «بَيْنَ السَّماءِ الدُّنْيا والَّتي تَليها خَمْسمائَةِ عامٍ وبَيْنَ كُلِّ سَماءٍ

السماء وعلمه في كل مكان ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السمٰوات بذاته مستوٍ على عرشه كيف شاء. وهذا لفظه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا؛ كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ الذهبي: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد ابن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبدالله القسري وقصته مشهورة؛ فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر: مثل الأوزاعي وأبي حنيفة، ومالك والليث بن سعد والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة وابن المبارك ومن بعدهم من أئمة الهدى، فقال الأوزاعي - إمام أهل الشام على رأس الخمسين والمائة - عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبدالواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي أنبأنا أبو عبدالله الحافظ، أخبرني محمد بن علي الجوهري - ببغداد - حدثنا إبراهيم بن الهيثم حدثنا محمد بن كثير المصيصي سمعت الأوزاعي يقول: كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله فوق عرشه. ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقي في الصفات ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى -: لله أسماء وصفات لا يسع أحد ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه، كفر؛ وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] اهـ. من فتح الباري.

قوله: (عن العباس بن عبدالمطلب) ساقه المصنف رحمه الله مختصرًا، والذي في سنن أبي داود عن العباس بن عبدالمطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟» قالوا: السحاب قال: «والمزن» قالوا: والمزن. قال: «والعنان» قالوا والعنان - قال أبو داود: لم أتقن العنان جيدًا - قال: «هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟ قالوا: لا ندري. قال: إن بعد ما بينهما إما واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التي فوقها كذلك، حتى عدّ سبع سمٰوات، ثم فوق السابعة بحرٌ، بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء. ثم فوق ذلك ثمانية أو

خَمْسمائَةِ عامٍ وبَيْنَ السَّماءِ السَّابِعَةِ والكُرْسِيِّ خَمْسمائَةِ عام، وبَيْنَ الكُرْسِيِّ والماءِ خَمْسمائَةِ عامٍ والعَرْشُ فَوْقَ الماءِ، واللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمالِكُمْ». أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبدالله.

ورواه بنحوه، المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبدالله.

قال الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى: قال: وله طرق.

عال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك» وأخرجه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسن غريب. وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن[١] وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: «ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام» ولا منافاة بينهما، لأن تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلًا، ونيف وسبعون سنة على سير البريد، لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يومًا باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد. وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه. هذا آخر كلامه[٢].

(١) في إسناده الوليد بن أبي ثور لا يُحتج بحديثه، وقد ساقه أبو داود من غير طريق الوليد، وقال العلامة ابن القيم في تهذيب سنن أبي داود: أما رد الحديث بالوليد بن أبي ثور ففاسد، فإن الوليد لم ينفرد به، بل تابعه عليه إبراهيم بن طهمان كلاهما عن سماك. ومن طريقه رواه أبو داود. ورواه أيضًا عمرو بن أبي قيس عن سماك. ومن حديثه رواه الترمذي عن عبدالله بن حميد: أخبرنا عبدالرحمن بن سعد عن عمرو بن أبي قيس. اهـ. ورواه ابن ماجه من حديث الوليد بن أبي ثور عن سماك. وأي ذنب للوليد في هذا؟ وأي تعلق عليه؟ وإنما ذنبه روايته ما يخالف قول الجهمية وهي علته المؤثرة عند القوم اهـ.

(٢) في قرة العيون: قلت: وهذا الحديث، له شواهد في الصحيحين وغيرهما، مما يدل عليه صريح القرآن فلا عبرة بقول من ضعفه.

وقد ابتدأ المصنف - رحمه الله تعالى - هذا المصنف العظيم ببيان توحيد الإلهية لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد؛ وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام الشيخ ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل ونهوهم عما كانوا عليك من الشرك المنافي لهذا التوحيد. فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه، وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته؛ فقرر هذا التوحيد كما ترى في هذه الأبواب؛ ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات لأن أكثر العامة ليس لهم التفات إلى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم، وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عمن خاض في هذه العلوم، وأحسنوا الظن بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين. وما زال أهل السنة متمسكين بذلك لكنهم قلوا، فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد فقررها بأدلتها، فلله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام، فضل عنه من ضل من أهل القرى والأمصار. وغيرهم. وبالله التوفيق.

فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله:

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هَلْ تَدْرونَ كَمْ بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُهُ أَعْلَمُ. قالَ: بَيْنَهُما مَسيرَةُ خَمْسمائَةِ سَنَةٍ، ومِنْ كُلِّ سَماء إلى سَماءٍ مَسيرَةُ خَمْسمائَةِ سَنَةٍ، وكَثْفُ كُلِّ سَماءٍ مَسيرَة خَمْسمائَةِ سَنَةٍ، وبَيْنَ السَّماءِ السَّابِعَةِ والعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وأَعْلاهُ كَما بَيْنَ السَّماءِ والأَرْضِ، واللهُ تَعالى فَوْقَ ذٰلِكَ، ولَيْسَ يُخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمالِ بَني آدم» أخرجه أبو داود وغيره.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعفه لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله، وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه ووصفه بها رسول الله ﷺ، وعلى كمال قدرته وأنه هو المعبود وحده لا شريك له دون كل ما سواه. وبالله التوفيق؛ والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين.

كمل مقابلة وتصحيحًا وقراءة على يد شيخنا العلامة المحقق الفهامة، بقية أهل الاستقامة؛ الشيخ عبدالله بن الشيخ حسن آل الشيخ - متع الله بحياته - سنة ١٣٦٢هـ.

والعلم أقسام ثلاث ما لها	من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله	وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه	وجزاؤه يوم المعاد الثانِ

وصلى الله على سيد المرسلين، وإمام المتقين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نبذة مختصرة من ترجمة الشيخ عبدالرحمن بن حسن مؤلف فتح المجيد

قال الشيخ ابن بشر في كتاب (عنوان المجد) في حوادث سنة ١٢٤١هـ.

وفيها أقبل من مصر الشيخ العالم النحرير، البحر الزاخر الغزير، مفيد الطالبين، المحفوف بعناية رب العالمين، جامع أنواع العلوم الشرعية، ومحقق العلوم الدينية، والأحاديث النبوية، والآثار السلفية، وارث العلم كابرًا عن كابر، الذي صارت الأصاغر بإفادته شيوخًا أكابر، قاضي قضاة الإسلام والمسلمين مفتي فرق الأنام الموحدين، وناصر سنة سيد المرسلين، الموفق للصواب في الجواب، الشيخ عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب، قدم على الإمام تركي بن عبدالله قدس الله روحه، ففرح به وأكرمه غاية الإكرام، واغتبط بطلعته خاص المسلمين والعام، فعظموه وقاموا بما يستحقه من الإعظام، وبذل نفسه للطالبين انتفع بعلمه كثير من المستفيدين - ثم ذكر العلماء الأفاضل من آل الشيخ وغيرهم، الذين استفادوا من الشيخ وانتفعوا بعلمه وتخرجوا عليه، وهم جملة كثيرة، ثم قال: فضربت إليه آباط الإبل من أقطار نجد والأحساء؛ وظهرت آثار البركات من تعليمه وفشا. كيف لا وهو من شجرة مباركة أضاء نور طالعها للمسلمين وفشا، ولاح وميض برقه حين غشا، فكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يهدي الله لنوره من يشاء، اللهم يا سميع الدعاء، يا إله الأرض والسماء، نسألك بأسمائك الحسنى: أن تجزيهم عنا وعن المسلمين أحسن ما جزيت من دعا إلى توحيدك، وأن تجعل العلم النافع وفي عقبهم باقيًا إلى يوم لقائك وشهودك.

وقد صنف الشيخ عبدالرحمن بن حسن مصنفات في الأصول والفروع، أكثرها ردًّا على أهل المقالات، ومن غلط منهم من الصفات، وله مصنف فيما يحل ويحرم من الحرير، فمن طالعه دله على علمه الغزير؛ ردًّا على من أباح لبس المحرمة الروغان، التي ابتلي الناس بلبسها في هذا الزمان، واختصر شرح التوحيد للشيخ سليمان بن عبدالله بن شيخ الإسلام، الذي سبق ذكره لأنه مات قبل أن يتمه.

وكان كثيرًا ما يتعهد أهل بلدان نجد بالمراسلات والنصائح، ويعلمهم ما يجب عليهم من أمر دينهم، ويذكرهم نعمة هذا الدين؛ واجتماع شمل أهل الإسلام عليهم، وما منَّ الله به على أهل نجد في آخر هذا الزمان. والحمد لله أولًا وآخرًا. وصلى الله على سيدنا محمد، وآله، وسلم.

الفهرس